

وزارة المعارف العمومية

كِتَابُ
الْمِطَا الْعَبْرِيَّةِ لِلسَّرِ الشَّانَوِيَّةِ

الجزء الثاني

(حق الطبع محفوظ للوزارة)

الطبعة الثانية

طبع بالمطبعة الأميرية بالقاهرة
١٩٢٨ م ١٣٤٦

فهرس موضوعات كتاب المطالعة للدارس الثانوية (الجزء الثاني)

| رقم الترتيب | الموضوع | رقم الصفحة |
|-------------|---|------------|
| ١ | الوطن | ١ |
| ٢ | الجناس (١) | ٣ |
| ٢ | » (٢) | ٦ |
| ٣ | حاتم الطائي (١) | ١٠ |
| ٣ | » (٢) | ١٢ |
| ٤ | حرب اليبوس | ١٨ |
| ٥ | غالد بن الوليد | ٢٢ |
| ٦ | مدائن كسرى وحصره الأبيض وإيوانه | ٢١ |
| ٧ | تزه الدنيا وشعب يوان | ٥٦ |
| ٨ | الحمرارة | ٦٥ |
| ٩ | المسجد الحرام (١) | ٧١ |
| ٩ | » (٢) | ٧٧ |
| ١٠ | مكة المكرمة (١) | ٨١ |
| ١٠ | » (٢) | ٨٥ |
| ١١ | الورق | ٨٩ |
| ١٢ | تقرير لجنة التجارة والصناعة من صناعة الورق في مصر | ١٠١ |
| ١٣ | المطابع (١) | ١٠٧ |
| ١٣ | » (٢) | ١١١ |
| ١٤ | المصارف المالية (١) | ١١٥ |
| ١٤ | أعمال المصارف (٢) | ١١٦ |
| ١٥ | أموال الحكومات (جبايتها ووقفها) | ١٢٢ |
| ١٥ | أبواب الجباية | ١٢٣ |
| ١٦ | وجوه الفقه | ١٢٧ |
| ١٦ | حسم الداء خير من علاجه | ١٢٩ |
| | الأغذية : | |
| ١٧ | (١) النباتات | ١٣٤ |
| ١٧ | (٢) تعقيم الأغذية | ١٣٨ |

(تابع) فهرس موضوعات كُتاب المطالعة للدارس الثانوية (الجزء الثاني)

| رقم الترتيب | الموضوع | رقم الصفحة |
|-------------|--|------------|
| ١٨ | وإن من شيء إلا يسبح بحمده (١) ... | ١٤١ |
| | » » » » (٢) ... | ١٤٦ |
| | أعياد العرب في الجاهلية والإسلام (١) ... | ١٤٨ |
| | » » » » (٢) ... | ١٤٩ |
| ١٩ | » » » » (٣) ... | ١٥١ |
| | » » » » (٤) ... | ١٥٦ |
| ٢٠ | أعراس » » (١) ... | ١٥٩ |
| | » » » » (٢) ... | ١٦١ |
| | المرأة العربية (١) ... | ١٦٥ |
| ٢١ | » » (٢) ... | ١٦٨ |
| | » » (٣) ... | ١٧٢ |
| ٢٢ | الكلب ... | ١٧٥ |
| ٢٣ | آثار العلم في الحضارة ... | ١٨١ |
| ٢٤ | المزينة ... | ١٨٦ |
| | الشجاعة ... | ١٨٩ |
| ٢٥ | » (١) ... | ١٩٠ |
| | » (٢) ... | ١٩٣ |
| ٢٦ | القصص في الطعام أمتع وقاية للأجسام ... | ١٩٩ |

الوطن

يترع الطير إلى وكزه الذى درج منه فلا يزال — إن ألم به الليل وأضله الظلام —
يتلمس إليه الطريق دوحه بعد دوحه، وغصنا فى إثر غصن ، وبين ذاك ينوح
بواقاع من الحزن ، يذكي لميب الأسمى ، ويشير الشجون .

لقد تجاوز الطير فى سبيله ما تجاوز من رائع الزهر، ويانع الثمر، ووارف الورق،
ودانى القُطوف، فما له لم يبتغ بين كل أولئك مقاما؟ وهل هو واجد فى وكزه ما يجده
فيا حوله؟ ماء روي^(١)، وهواء غدي^(٢)، وطعام شهى، وحب كثير، وبساط نضير،
وفراش وثير، وهل وراء ذلك بغية لنفس؟ أجل! لأنه يطلب الوطن، وله بين
جوانحه معنى لا يراه فيما رآه، فهو منبت نفسه، ومهيئ رأسه، ومدرج طفولته،
ومرتع أحداثه، وجمع ألقائه، وملتقى أحبابه، فكان من الحق ألا يهم ألا به،
ولا يحزن إلا إليه .

وكذلك ترى الأعرابي يهبط حواضر الملك، وأتمهات المدن، وبها ما بها مما يملأ
النفوس غبطة، والعيون بحالا، فلا يصرفه كل ذلك عن خطرة الوطن، وبكاء
الدين، وما وطنه إلا صخور تسفحها الهابجة، ورمال تغل الدم، وتصحّر العظم،
وأطلال توارت رسومها، ودرست معالمها، ولكن هو الوطن، مقل أهله
وعشيرته، معقد شرفه، ومشار حبيبته، موطن ألافه، ومبعث أفته، هو سر
الحياة بين جانحيته، هو نور الوجود فى ناظريه، هو كل شيء بين يديه .

(١) سائق (٢) صاف (٣) جمع دمة وهى ما يتركه الناس عند رحيلهم زهدا فيه (٤) تسفحها

تلقفها والهابجة حرارة الظهر فى الصيف .

سحابة تلك طويت عليها النفوس ، ونهض على دعائها نظام الكون ، وما مرابض
الوحش ، ومعاطن الإبل ، ووكبات الطير ، ومسارب الحشرات ، إلا صنوف من
الوطن لا تستبدل بها ذواتها أرائك الملوك ، ولا شتم القصور .

أما أنت يا ربيب النيل ، وسليل الهداة الأولين ، والملوك الفاتحين ، فأرضك
مهبط المدنية الأولى ، ومنبت العلم القديم ، ومرتقى الشرف العريق ، والمجد الوثيق ،
تجاوز أهلها مناط النجم ، وجنوا ثمرات الأمل ، ونشروا مطارف الحكمة ، وبنوا
ما تطمئن له جبين الدهر ، ووقفت دونه مدارك البانين ، على حين كان الناس
في أرجاء الأرض ، وفوق مختلف البقاع ، يتخصفون عليهم من ورق الشجر ،
ويسكنون أعماق الكهوف ، ويهيمون في شعاب الجهل ، ويتهاوون على موارد
الهلاك .

في ذلك الزمن القيصي ودون تلك الحقب السحيقة ، وقف الدهر على باب
"طيبة" ، ورجفت الأرض بين يدي "منف" ، وانبعثت إشراقة العلم من
"عين شمس" ، فانحسرت غياهب الجهل ، وتهتكت حجب الضلال .

ذلك وطنك أيها المصري ! فإن أنت أنهلته ماء مهجتك ، وأظلمته أحناء
صدرك ، ووقفت عليه خفقات قلبك ، وخطرات سرائرك ، فما كان ذلك كثيرا .
على أنلوعة الحب ، وخفقة الأمل ، لاتغنيان عنك من وطنك شيئا إذا لم تترعا
بك إلى منازع أسلافك ، من عمل مجيد ، وخلق حميد .

ألا وإن نيل مصر ، نهر الفردوس ، ووشاح مصر المحلى ، لخليق ألا يرتشف
مائه إلا العاملون المحنون .

لقد كان بنو النيل فيما سلف من أيامهم يجمعون من مضاء العزم، وسناء الرأى،
ونيل الخليفة، وحماية الحقيقة؛ ما تخشع له شَمّ الجبال، وتتقطع دونه نياط الآمال؛
فإن أحبت أن تكون صاحب ملكهم، وولى ديارهم، فانهج نهجهم، واحرص
على فضائلهم، حتى يكون إلى مصر مرجع المجد كما كان مشرقه من سمائها، وحتى
يعلم الناس أن منابت النيل متشابهة الدوح والتمر، متألقة الروح والزهر، وحتى
يقوم المصرى في كل مجتمع وناجذ فيقول — وبحق ما يقول :

وأتى من القوم الذين همُّهم إذا مات منهم سيدٌ قام صاحبه
نجومٌ سماءٌ كلها غاب كوكبٌ بدا كوكبٌ تأوى إليه كواكبه

الحمام

(١)

الحمام أنواع كثيرة وهو طائر أنيق الشكل، حديد البصر، قوى السمع، سريع
الطيران، صبور على الجوع لا على العطش، يعيش من العمر نحو ثمانى سنوات .

منه الفاخرة . وفي صوتها وضوح وحسن وصلصلة . من أجل ذلك تبيت
بالصلصل . تكثر في المنازل، وتربى في الأبراج، وتضرب العرب بكذبها المثل فتقول
أكذب من فاخرة يزعمون أنها تصبح وسط التخيل بصوت حكايته " هذا أوان
الرطب " وطلع التخيل لم يظهر وفي ذلك يقول الشاعر :

أكذب من فاخرة تحول وسط الكرب^(١)

والطلع لم يبد لها هذا أوان الرطب

(١) أصول السعف .

ومن الحمام نوع اسمه المَسْرُول قليل النسل، يكسو أرجله ريش كثيف كأنه السراويل . ومنه القَلَاب الذى يتقلب فى الهواء ، والزَيَاف الذى يستدير ذيله . ويدفع مقدمه بمؤنعه ويسيل جناحيه ، ويظل فى اهتزاز واضطراب وهو كثير فى المنازل . ومنه القطا الذى يضرب المثل بصدقته وهدايته يقال "أهدى من القطا" و"أصدق من القطا" . ومن أنواعه الجميلة القُمَيْرى وهو حسن التغريد والتطريب ، وخصوصا بالليل ، يالفه الناس لرخامة صوته . والحمام حنان إلى وطنه ، حَلَّاب . لوكره ، يهتدى إليه من أمد بعيد . وقد تُقَنَّص الحمامة فتنزل نائية عن ديارها أعواما، فإذا ما حانت لها الفرصة ركبت متن الريح قافلة إليها . وهو سريع الطيران ، شديد الوفاء ، كثير التعلق بمنزله : يقيم فى وكره فتؤخذ صغاره من تحته فتدبج ثم لا يفارق الوكر . وبحوارج الطير ^(١) قرقم إلى لحمه، وميل إلى العدوان عليه . ولقد ترى الحمامة الشاهين فيعتريها ما يعترى الفأرة صادفها السنور والشاء عرض لها الذئب ^(٢) . أما لطفه ودعته ونظافته وكرم صفاته فقد سار بذكرها المثل . ولطام حين وتغريد تهترأ له القلوب، وتستقيد له النفوس ^(٣) : يسمعه المحزون فيحتاج فيه كامل الأسى، والغريب . فتثور به لوائح الشوق إلى أوطانه . سمع أحد الشعراء حمامة تغزد وكان وحيدا نائيا :
عن وطنه فقال يناجيا :

أقول وقد ناحت بقربى حمامة * أيا جارتا لو تعلمين بحالى
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيتنا * تعالى أقاسمك المومون تعالى

(١) رغبة شديدة فى أكل لحمه (٢) الفأرجع والفأرة واحدة تطلق على الذكر والمؤنث (٣) ظهور

(٤) سعاد (٥) أبو فراس الحمداني الشاعر الفارس .

وللشعراء في مناجاة الحمام شعر جميل قال توبة :

حامة بطن الولدين ترعى * سقاك من الغر الفوادى مطيرها^(١)
أبني لنا لا زال ريشك ناعما * ولا زلت في خضراء دان بريرها^(٢)

وقال غيره :

أحامة الوادى بشرق القضا * إن كنت مسعدة الغرب لرجعى^(٣)
إنّا تقاسمتا القضا فقصوته * فى راحتك وناره فى أضلعى^(٤)

وما أحسن قول بعض الشعراء :

رب ورقاء تنوف بالضحى * ذات شجوى سجت فى فن^(٥)
ولقد تبكى لما أفهمها * ولقد أبكى لما تفهمنى
فبكائى ربما أزعها * وبكائها ربما أزعنى
غير أنى بالجوى أعرفها^(٦) * وهى أيضا بالجوى تعرفنى

وقد استهوى الأفتدة جمال الحمام فعقدت على محبته ، وصار له في منازل الخلفاء مراح ومغدى . هذا الرشيد على جلال قدره ، ووفور علمه ، وعظيم ورعه ، كان يأنس بالحمام ، ويهدى إليه فينال من نفسه مكانا رجا . وقد كان للحمام فى الجاهلية منزلة عالية فيرسمونه بجانب بعض أوثانهم . ولذا الآن فى الحرم المكي مرتع خصيب فالناس يتنافسون فى تقديم الطعام إليه . وهناك طائفة من الناس يعرضون الحب

(١) جمع غراء وهى البيضاء والمراد السحب والفوادى القراهب والمطير المطر (٢) أول ثم الأرواك

(٣) مسقة (٤) رددي صوتك بالفريد (٥) حامة لونها كلون الرياء والملاكر أروق (٦) حزن

(٧) حزن (٨) الجوى داء فى الجوف لا يطيب به الطعام والمقصود به الحزن .

على المحتاج فيشترونه لإطعام الحمام . وقد ضرب بأمته المثل فقيل " آمن من حمام الحمى " وقد عرف الحمام ذلك فتوافروا^(١) في رحاب المسجد الحرام :

تسقط الطير حيث ينثر الح * م^(٢) وتُشقى منازل الكرماء

وأهل الصين يتعرفون^(٣) بحجهم بالحمام فيضعون أوراقا فيها عبارات الخير والشر في طبق ويريدون حمامة على النقاط إحداها فإن كان فيها الخير استبشروا ، وإلا تطيروا . وتلك عادة تدل على عنايتهم بشأن الحمام ولكنها عادة ممقوتة^(٤) يابها العقل والدين :
لعمرك ما تدرى الطوارق بالخصى * ولا زاجرات الطير ما الله صانع^(٥)

الحمام

(٢)

حمام الزاجل^(٦)

عرف الناس قديما من طباع الحمام سرعة الطيران ، وشدة الحنين إلى الأوطان ، والصبر على الجوع ، فاتخذوا منه بريدا يربط أجزاء الممالك بعضها ببعض . وأتى عليه حين من الدهر قام بعمل البرق فطوى العالم بقلادة من المعروف ومينة لا تزال بين الناس مأثورة ، فقد كانت الحمامة تحمل رسائل الملوك إلى الأفيال^(٧) والعمال ورؤساء الجند في أطراف الدولة فتتطابق بها كالسهم فارق القوس ، وتشقى جوز الفضاء ، فوق الأرض والماء ، حتى تؤدي الأمانة موفورة ، فتصل أجزاء الممالك ويستتب الأمن في البلاد وتتظم بذلك الأحوال ، وما ذلك إلا بفضل وسل الحمام :

(١) اجتمع (٢) ينزل بها (٣) يكرهونها (٤) اللام يفرق البحت بطرق الخصى (٥) زجر

الطير أن يرى المرء الطائر بصاة أو يصبح به فان ولاء في طيرائه ميامه تقابل به وإن ولاء مياصره تطير

وتشام (٦) الزجل إرسال الحمام (٧) جمع قيل وهو الملك دون الملك الأعظم (٨) وسط .

خَفَرُ تَهْوُق الرِّيحِ فِي طَيْرَانِهَا * لَا بَعْدَ بَيْنِ غَدَقِهَا وَوَرَاكِهَا
تَأْتِي بِأَخْبَارِ الْغَدَقِ عَشِيَّةً * لِمَسِيرِ شَهْرٍ تَحْتَ رَيْشِ جَنَاحِهَا
وَكَاثِمًا الرُّوحَ الْأَمِينَ بُوْحِيهِ * نَفَثَ الْهُدَايَةَ مِنْهُ فِي أَرْوَاحِهَا^(١)

وقد اعتمد العالم على الحمام في ذلك منذ القرن التاسع قبل الميلاد . وكلن رجل من جزيرة (أوجين) من جزائر اليونان يختلف إلى أثينا لمشاهدة الألعاب الأولمبية قبل الميلاد بنحو ثمانية قرون فكان يرسل إلى بلده بعد أن يظهر على أُنْداده حمامة^(٢) ويعلق فيها غصنا من الأَرْجوان يجعله عنوان الانتصار . وكان الذين لا يتيسر لهم شهود سباق العجالات (برومة) قديما يوفدون غلمانهم أو أصدقاؤهم بدلانهم ، حتى إذا انتهى السباق أطلقوا إلى موفئهم حاتم معاملة يصيغ يعرف به الحزب الفائز ، وفي سنة ثلاث^(٣) وأربعين قبل الميلاد حاصر "أنطونيوس" مدينة مودينا فأرسل رئيس حكومتها رسالة في علق حمامة إلى حاكم إحدى المدن فرد عليه بمثلها ، وقد تكون هذه المرة الأولى التي اتخذ فيها بريد الحمام في الحروب ، ولم يعرف القرنيحة رسل الحمام إلا في سنة ألف وثمان وتسعين بعد الميلاد حينما طوقوا "أورشليم" فأرسل القائد المحاصر رسالة جوية مع حمامة فعدا عليها طير جارح وأسقطها بين خطوط الصليبيين فعثروا على الرسالة وأطلعوا على نيات المسلمين . وقد كان لحمام الرسائل أيام الدول الإسلامية شأن عظيم فقد عُني به خلفاء بني العباس كالمهدي وتنافس رؤساء العراق في اقتنائه^(٤) والتوفر على تربيته ، ولججوا بذكره وتغالوا في ثمنه حتى بيع الفرد الفارسية منه بسبعمائة دينار . وبالغ الفاطميون في العناية به حتى أفردوا له ديوانا تقيد فيه أنسابه وصفاته

(١) جبريل عليه السلام (٢) يتردد عليها (٣) غمر لونه أحر (٤) الانصراف إليها يقال

توفر الرسل على كذا صرف إليه همه (٥) الحاذق .

وأسمائه . وجاء من بعدهم "محمود نور الدين" ملك حلب ففاقهم في ذلك الشأن . وقد ذكر المؤرخون أنه لما أتممت رقعة مملكته ربط أجزاءها بالحنام بخليبه وضى به وفزقه على الأفطار وأدخله مصر وكان أشهره المراقى المطوق بالياض فقد شهر بسرعة التعلم والدجن والفراهة . وأقام له في الطرق أبراجاً عدة في كل برج حراس يراقبون الجوى ليلاً ونهاراً . وكان من محطات طريق الشام القلعة ولبليس والصالحية ، فلما حدث أمر ^(١) أنذوبال كتمت الرسالة على ورق غاية في الرقة يسمى ورق الطير ووضعت في قارورة من وقيق الذهب وعلقت تحت جناح الحمامة أوفى عنقها ثم تطلق وتقع بمثلها خوف أن تضلّ إحداها أو يعدو عليها فإد فعند ذلك تصل الرسالة مع الحمامة الأخرى . وكان اسم السلطان يكتب على منقار الطائر ورجله وإذا وصل إلى الغرض المقصود أسرع رئيس الحرس ففك الرسالة وأطلق بها من فوره إلى من هي له كائنات من كان فلا يلبث هذا أن يتناولها مؤثراً ذلك على كل ما عناه من شؤونه . ولم يعد في اقتنائه والتوفر على تربيته غضاضة حتى على العلماء والعظماء . ومما يساق مساق الطُرف في هذا البحث ما روي من أن حمامة طارت من (القسطنطينية) إلى خليج فارس فطار صيتها وتنافس القوم في اشترائها فظفر بها واحد بألف دينار . وأن رجلين بالشام تراهنا فأرسلتا حمامتين إلى (الإسكندرونه) ليعرفا أيهما أسرع طيراناً وأهدى سبيلاً . فماتت إحداها في الجوق حتى تراعى لها ماء الخليج الفارسي فحسبته بحر الروم فجفت في الطيران نحوه وطال بها السفر فلبثت الأخرى الغرض وعادت مسرعة فجرت بها صاحبها سروراً وظفر بالرهان واستشاط الآخر غيظاً وبعد ثلاثة أيام آتت الحمامة فعاجلها بالذبح فوجد في جوفها حباً لاينتهى

(١) ألفة البيوت والركون إلى الناس يقال دجن الطائر (من باب قتل) بالمكان أقام به وألفه

(٢) زجاجة (٣) لوتة (٤) مفضلا (٥) جمع طرفة وهي ما يستبلع ويستغرف .

في غير جزيرة "سرنديب" بالهند فنقدم على الفتك بها حين لا ينفع الندم وظهر أنها قطعت نحو ثلاثة آلاف ميل في ثلاثة أيام . وقد كانت أخبار سواحل الشام وسورية ترسل إلى داخل البلاد بالحمام فقتض تاجر حمامة فوجد معها رسالة تنهى بأن العفص قد رخص .
 بهاجلته فبادر إلى شراء مقدار وفيه منه حصل له منه ربح قدره مائة ألف ريال .
 وروى صاحب صبح الأعشى أن العزيز ثاني خلفاء الفاطميين بمصر ذكر لوزيريه أنه ما رأى (قراصية) بعلبك فأبرد الوزير لساعته إلى من تحت إمرته بدمشق مع حمامة أن اجمع ما لديك من حمام مصر وعلق بكل واحدة حبات من القراصية ، لما هي إلا فترة من نهار حتى جاءت الحمامات فتلقاها وجمع ما علق بها وقدمه بين يدي العزيز فكان ذلك إحدى الفرائب . وما زال الحمام مضطجعا ببيته ، وفيما بهده ، أمينا على ودائعها ، حتى أراحه من وعاء السفر اختراع البرق الكهربائي في منتصف القرن التاسع عشر .
 للبلاد . ولكن لم يصمم الحمام ، من صروف الأيام ، ولم يصنه من أذى الإنسان بحاله الرائع ، وصيته الناعم ، وصيته السابقة ، بل قلب له الزمان ظهر المجن^(٣) ، فذهب باحترامه ووطيته : وجعله هدفا تنزل صيده الكائن ، وسلوة يتسل بها ذوو المال والبطالة ، ووسيلة من وسائل الميسر المردولة ، تستنزف الأموال ، وتفسد الأخلاق ، وتقوس في النفوس القسوة على الحيوان ، وتترع منها المودة والإخاء ، وتودعها المداوة والبقضاء . كان التلهي بتطير الحمام مصابيا يمتثل ، أما مصايد الحمام فخطب جلال ، وبلاء نزل ، ونكبة نكبت بها الأمة ، وخطر داهم يهلك ثروتها ، ويفسد أخلاقها ، تعددت أرزاقه ، وتكاثرت أضراره .

(١) فاكهة معروفة (٢) أرسل البريد (٣) المجن الترس وهو ما يستقره في الحرب اسم آلة من جنه إذا ستره . وقلب ظهره عند العرب يفيد تقص اليهود ونفى السلم والتهديد بالحرب (٤) جمع نخانة وهي جبة السهام (٥) القمل (٦) مصاب عظم .

حاتم الطائي

(١)

الكرم من أخلاق العرب اتى أليستهم ثياب المجد والشرف ، وملكتمهم أزمنة
المكارم ، فقد كانوا شعوبا وقبائل . يتفانرون بالأحساب والأنساب . وكان
الجلود أجل مفانهم ، وأبقى مآثرهم ، تنافسوا فيه فبلغوا غايته وضربوا فيه بسهم
ناجح :

ضربوا بمدرجة الطريق بيوتهم * يتقارعون على قرى الضيفان^(٢)
ويكاد موقدهم يحود بنفسه * حب القرى حطبا على الثيران

ومن أجوادهم المساميح ، وأبطالهم المغاوير ، وعظمتهم الأجداد ، وفتيانهم
الأنجاد "حاتم بن عبد الله بن سعد الطائي" سار بذكره المثل ، فطبق السهل والجبل ،
وتأرجع شذى جوده فططر الأندية . وطار صيته في جو جزيرة العرب فغار وأمجد ،
وأثم وأعرق . ثم عرج على سائر الآفاق . قترك الألسنة رطبة بالثناء عليه ، لاهجة
بتعداد مآثره ، وسرد مكارمه . وجعلت أنفس الكرام ترتسم آثاره ، وتتسسم أخباره ،
نفذت سيرته وإن تكن طوته الأيام ، وصار رهن الترب والرجام^(٣) .
ردت صنائمه عليه حياته * فكانه من نشرها منشور

نشأ حاتم في جبل طيئ من جزيرة العرب بين الصخور والتجود . فالأف اقتحام
الأخطار وأصبح في الحرب بطلها المظفر . واكتسب النخوة والإباء فكان أثبت من

(١) المعترض والمنعطف والممر (٢) ما يقدم للضيف (٣) تأرجع فاحت رائحته والشذى

حدة ذكاء الرائحة (٤) جمع رجمة كفرقة وهى ججارة مجموعة والمراد القبر .

الطود قلبا ، وأمضى من الصارم عزما ، وأسمى من النجم نسا . وترزع بين لسن^(١)
مقاويل تحت سماء جزيرة العرب الصافية ، وشمسها الوضأة ، ونجومها الزاهرة . ودوخ
فوق صحرائها الفسيحة ، ورمالها العفر^(٢) ، فصفت قريحته ، ورقّت في الشعر عبارته ،
وعذب بيانه . فيينا هو أحد الفتيان في الميدان ، إذا هو فارس في حلبات البیان ،
وقد شب بين قوم يشترّون الحمد بالنوال^(٣) ، وأرضعته ليان الكرم أم كريمة هبارت
يجودها الركنان ، فلا عجب أن كان في القوم سيدا لا يبارى ، وفي المكربات غيثا مدرارا .
وصار السخاء له عادة لزمت في غناه وفقره ، وكَم عتقه المعتفون ، وبلّج في لومه اللامون
فطوى عن كلّ ذلك كشعا ، وشرح بالحمد صدرا ، وأتلف الطريف والثالد ، وأذخر^(٤)
الثناء الخالد .

وقد علم الأقوام لو أنّ حاتما * أراد ثروة المال كان له وفور^(٥)
لقد كان يُمَرى بما يُبَطّرهُ الغنى ، ويُسرّما يستنله الإملاق ، بل كان جنباه
مُمرّما ، وربّعه للعفاة مَرّما ، لا يغيره فقر ولا غنى ، يُفيض على القوم من خيره ،
ويرضيه في غناه وفقره ، وما أكرم نفسه وأعفها إذ يقول .

غنيّا زمانا بالثصلك والغنى * كما الدهر في أيامه السر والسر^(٦)
فما زادنا بأوا على ذى قرابة * غنانا ولا أزدى بأحسابنا الفقر^(٧)

وقد ينال منه الفقر ، ويعصّه العُثم بتأبه ، ثم يلمّ به الضيف وقد بات أهله
على الطوى ، وأولاده من الجوع يئنّون فينصر لضيفه راحته أحوج ما يكون^(٨)

(١) جمع لسن وهو الفصح البلّغ والمقاويل جمع مقول وهو المطلق (٢) جمع آخر من العفرة

وهي يابض تملوه حرة (٣) الطاء (٤) الكشح الجانب وبني الجملة (تركه) (٥) وفر كثير

(٦) غصبا (٧) أنا فيها (٨) زعوا واختارا (٩) يزل به (١٠) الجوع .

إليها ، ولو أمسك ما لأمه في ذلك لائم ، ولكنها العادة ملكت نفسه ، ولم يجد عنها محيصا :

تعوذ بسط الكف حتى لو أنه * شأها بقبض لم تطعه أنامله
وقد جمع إلى شجاعته النادرة ، ومخاوة نفسه العالية ، كثيرا من الأخلاق
الفاضلة فكان عفيفا ذا مروءة وحياء ، إذا أمر أطلق ، وإذا عاهد وفى ، وكان
لا يقتل وحيد أمه .

مكارم بلغت في علو كآنتها * تحاول نارا عند بعض الكواكب
ويدلنا على أن الجود فيه موروث أن أم حاتم "عتبة بنت عبد الله" من أندى
النساء بدلا لم تكن تحب عافيا ، ولا تبق من المال باقيا ، وقد ضيق عليها
إخوتها وغلوا يديها عن الجود خشية أن تأتي على جميع ما لهم ، فلما أحسوا ألمها
أعطوها طائفة من الإبل بغائتها امرأة من "هوازن" فأنهبتهم جميع ما ملكته ، ولم
يزدها الحرمان إلا استملا في الكرم .

ولما ترمع جمل يخرج طعامه فإن وجد من يؤاكلة أكل وإلا طرح الطعام ،
فلما أحس أبوه منه ذلك كلفه رعى الإبل فكان يتفقد الناس فلا يجدهم ، وبينما
هو ذات يوم يتفقدهم أقبل ثلاثة من حامل لواء الشعر في الجاهلية يريدون
"النعمان" فسألوه هل من قرى ؟ فقال تسألوننى عن القرى والإبل أمامكم فترلوهم
لمحرم ثلاثا من كرام الإبل فقالوا إنما أردنا اللبن وكانت بكرة تكفيها فقال إنى
لأعرف ذلك ولكنى رأيت وجوها مختلفة وألوانا متباينة فعلمت أن البلاد غير
واحدة فأردت أن أكرم في أشخاصكم قبائلكم جميعا ، فامتد حوه ، فقال : لقد زاد

(١) تمادت في العلول ولازمه (٢) العافى المحتاج السائل (٣) تماديا .

فضلكم على ما قررتكم به فقد عاهدت الله أن أضرب عراقيب الإبل أو تقتسموها
ففعلوا فقتل كل واحد تسعة وتسعون بعيرا . ولما علم أبوه بذلك عول على ألا يساكنه
فتركه وانصرف . ولكن ذلك لم يش حاتما عن الجود بل ازداد بعروة الكرم استمساكا
وما أعز نفسه وأصحابها ، وأثبت عزيمته ، وأقوى شكيمة إذ يقول وقد هجره أبوه :
وإني لعفُ الفقير مشتركُ الفنى * وتارك شكل لا يوافقهُ شكلي
وشكلي شكلي لا يقوم لمثله * من الناس إلا كل ذي نيفة مثلي^(٢)
ولي مع بئال المال في الحرب صولة * إذا الحرب أبدت عن نواجذها العصل^(٣)

حاتم الطائي

(٢)

وقد تزوج حاتم «ماوية بنت عَفْزَر» وهي سيِّدة من أشرف بيوتات العرب ،
فلما رأت ما هو عليه من السرف فارقتهُ فدعا ولده وهبط بطن وإِثم قديم ضيف^(١)
على بيت ماوية يريدون حاتما فضاقت بهم ذرعا وأوفدت جاريتها إلى حاتم فلما
انتهت إليه وأخبرته خبر ضيفه فرح واستبشر وأتى بناقتين ونحرهما فأكلوا منهما
فقال «ماوية» : هذا الذي تركتك من أجله . وسترك ولدك ولا مال لم . ولكن
نفس حاتم المفطورة على السخاء لم يثنها عن المعروف لوم وفي ذلك يقول :

هل الدهر إلا اليوم أو أمس أو غد * كذلك الزمان بيننا يتردد
إذا ما البخيل ألح^(٥) أحمد ناره * أقول لمن يصلون ناري أوقنوا

(١) أقوى هزيمة وعارضة (٢) النيفة التجود في المال كل والملبس (٣) العصل جمع أعصل
وهو الموج فاعرجاج فواجه الحرب شكاية من شدتها (٤) ذرع الانسان طاقته وضاق به ذرعا مجموع
احتماله (٥) الخادع .

ومن عجيب ما يروى عنه أنه خرج في الشهر الحرام في حاجة له فلما كان بأرض «عَترة» استجار به أمير وناداه «يا أبا سَقانة» أهلكنى الإِسار فقال وبلك قد ظلمتنى بتنويهك باسمى في غير بلاد قومى ، ثم اشتراه من بنى عترة وأقام في القيد مكان الأسير حتى فدى نفسه فأطلقوه وتلك مكربة يتضائل عندها بكل شئ .
وحَدَّث ماوية قالت كلَّ أمره عجب : فقد أصابت الناس ^(١) سَنَةً فَأَهْلَكَتْ ^(٢) الخُفَّ والظِّلْفَ فأدرَكنا الجوع ليلة فما زال يملُّ ولديه «عَدِيًّا وَسَقَانَةً» حتى نأما ثم تناومتُ إشفاقاً عليه وما بى من نَاس . وبينما نحن كذلك أقبل شخص بباب الخباء فقال لحاتم من هذا ؟ فإذا امرأة تقول «يا أبا سَقانة» أتيتك من عند صبية يتعاونون كالذئاب من الجوع فقال على بهم فلا تشبعنهم فقمتم مسرعة وقلت له بماذا يا حاتم ؟ وما نام ولداك إلا بالتعليل . فقال لأشبعنهم مع ولدك ثم قام إلى فرسه وذبحها وأضرم النار وأيقظ ولديه وأعطى المرأة شفرة وقال اشتوى وكلى وذهب إلى بيوت الحى فنبه الناس فأقبلوا يأكلون وهو جالس ناحية متقنعا بردائه ينظر إليهم قویر العين بما أسداه من معروف .

وكان حاتم إذا أضلم الليل يقيم غلاما له يوقد النار باليقاع ليتهدى بها الضيوف ويقول له :

أوقد فإنَّ الليلَ ليلٌ قُتِرَ * والريحُ يا غلامَ ريحٌ صِرُ
علَّ يرى نارك من يمرَّ * إن جَلَبَتُ ضبيفا فأنت حرُّ

(١) الجلب يقال أرض سناء أى أصابها الجلب (٢) الخلف البعير والظلف للشاة والبقرة ونحوه والمقصود أهلكك الماشية لشدة جديها (٣) يلهى (٤) ما ارتخم من الأرض (٥) بارد (٦) باردة .

فأين من هذه النفس الكريمة نفوس تتوارى من الضيف فرقا ، وتفر منه
إشفاقا على متاع زائل ، وسخطا بانه ، وحرصا على جمع المال وكثرة ثم تتركه أكدا
لوارث يذروه ذات اليمين وذات الشمال فلا تحلف إلا المذمة والتعير ولعذاب
الآخرة أشد :

يُفْنِي البخل جمع المال مدته * وللحوادث ما يُسْقَى وما يَدْعُ
إن الاقتصاد حسن مطلوب ولكن البخل والكرازة ^(٣) خلق مرذول ، فالعافل
من يجمع بين الاقتصاد والسخاء ويعمل في ماله حقا معلوما للسائل والمحروم .
وقد سرى الجود في عقب حاتم فكانت ابنته «سقانة» من أجود نساء العرب تهب
للناس جميع ما تصل إليه يدها ، ولا غرو فالولد سر أبيه . وقد ذاع فضل حاتم حتى ملا
نبوه أسماح العرب والعجم فتاقت النفوس إلى معرفة أحواله والوقوف على أخباره .
فقد أرسل قيصر الروم حاجبا من حجابيه في طلب فرس لحاتم سمع أنه يرضن بها ويعزها
ويبالغ في إكرامها وإنما يعني بذلك سبر غوره ^(٥) ومعرفة مدى سخائه . فلما دافى الحاجب ^(٦)
ديار طيبي ودخل على حاتم بالغ في الحفاوة به على خير علم بما جاء له ولما أبطل الرعاة
بالإبل في المرعى قام فذبح لضيفه الفرس وقدم إليه الطعام ثم أعلمه الحاجب بأنه
رسول قيصر وأنه يستميحه فرسه التي اشتهرت بالثقافة بين الأفراس فاعتم حاتم
وأخبره بما فعل فأكبر الحاجب فعله وقال لقد رأينا منك أكثر مما سمعنا .

هذا قل من كثير مما يؤثر من حاتم طيبي وهو كاف في إظهار ما انطوت عليه نفسه من
حب الخير ، والكلف بالمعروف ، والرغبة الصادقة في اصطناع المكارم . أما شعره فرائق

(١) خوفا (٢) يفسده ويفرقه (٣) الشح (٤) لا يحب الفعل غرا ينز (٥) سبر الجرح
تعرف عمقه ، وغور كل شيء ، فمره ، والمراد أنه حاول الوقوف على مبلغ جوده (٦) غاية .

حسن الأسلوب ، بجزل العبارة ، يصور خلوصه وسعة فضله وإن من يحيل
الفكر في تضاعيف ألفاظه ومعانيه ليرى نفس ذلك الجواد العظيم مصورة من
مكارم وعفة وصروعة وشجاعة وإخلاص . فشعر حاتم مرآة نفسه وصحيفة مجده :
من ذلك قوله في قصيدة رائعة المعنى حاضرة الأبيات :

أريني جوادا مات هزلا لعلني * أرى ما ترين أو بجيلا مغلدا^(٢)
وإلا فكنتي بمض لومك واجعلني * إلى رأى من تلحين رأيتك مسندا^(٣)
يقولون لي أهلك ما لك فاقصده * وما كنت لولا ما تقولون سيئا
كلوا الآن من رزق الإله وأسروا * فإني على الرحمن رزقكم خدا
وإن البيت الأخير ليدل على عظم ثقته بالله تعالى ، واعتماده عليه ، وذلك يزيد
روعة إلى روعته .

ومن جيد قوله في إياه الإذعان للوم من لآمته على الإلحاح وتمسكه بأهداب
المكارم واحتقاره جمع الخطام الزائل ووجه كسب الثناء الخالد ، قوله من قصيدة طويلة :
أماوي^(٤) إني لا أقول لسائل * ويبقى من المال الأحاديث والذكر^(٥)
أماوي إني لا أقول لسائل * إذا جاء يوما حل في مالي النذر^(٥)
أماوي ما يغني الثراء عن الفسق * إذا حشرت يوما وضاق بها الصدر^(٦)
أماوي إني أصبح صلبا بفقرة * من الأرض لا ماء لدى ولا نحر^(٧)
تري أن ما أفقت لم يك ضررتني * وأن يدي مما بخلت به صغر^(٨)

(١) تضاعيف الشيء : أثنائه وأرسائه (٢) هزلا وضعفا (٣) حلاه بإعاده لآمته (٤) مرثم
(ماوية) نزع حاتم (٥) الدية (٦) حشرت الروح ترددت في الصدر تقرب مقاربتها للجسم (٧) أي
إذا مات وصرت في قبري يمكن نقر (٨) خالية .

ومن جيد كلامه قوله من قصيدة غزاه تضمنت كثيرا من الحكم الرائعة،
والعظات البالغة .

ألا لا تلوماني على ما تقنما * كفى بصروف الدهر لـ^(١)رء محكما^(٢)
فإنك لا ما مضى تدركانه * ولست على ما فاتني منندما
ففسك أكرمها فإنك إن تنه * طيك فلن تلق لها الدهر مكرما
تحلم على الأدنين واستبق وقهم * ولن تستطيع الحلم حتى تحلما
وذو اللب والتقوى حقيق إذا رأى * ذوى طبع الأخلاق أن يتكروا^(٣)
وأخضر حوراء الكريم أدخاره * وأعرض عن شتم اللثيم تكروا^(٤)
ولا أخذل المولى وإن كان خاذلا * ولا أشتم ابن العم إن كان مفضجا^(٥)
لحي الله صلوكا مثاه وهمه * من العيش أن يلقى آبوسا ومطما^(٦)

وقدمات قبيل الإسلام، وحكى عن علي "كرم الله وجهه"، أنه قال ياسبحان الله
ما أزهده كثيرا من الناس في الخير: عجت لرجل يبيع أخوه في حاجة فلا يرى
نفسه لخير أهلا، فلو كنا لانرجو جنة ولا نخاف نارا ولا ننظر ثوبا ولا نخشى عقابا
لكان ينبغي لنا أن نطلب مكارم الأخلاق فإنها تدل على سبيل النجاح . فقام رجل
فقال : فداؤك أبي وأمي يا أمير المؤمنين . أسميت من رسول الله ؟ قال نعم :
وما هو خير منه . لما أتينا بسبايا طي كان في الناس جارية حسناء تقدمت إلى
رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت : يا محمد هلك الوالد، وغاب الوافد، فإن رأيت

(١) حوادث (٢) مهلبا ومرهبا (٣) ذنن الأخلاق (٤) زلة رهفوة (٥) الناصر

والخليفة (٦) اسم مفعول من ألحمت إلحاما ألزمت الحجة فسكت (٧) خاه يلحاه من باب تقع لشره ،
والمراد يلحاه الله الدعاء عليه .

أَلَا تَحُلِّي عَنِّي فَلَا تُسَمِّتُ بِي أَحْيَاءُ الْعَرَبِ فَإِنِّي بِنْتُ سَيِّدِ قَوْمِي ، كَانَ أَبِي
يَفْكُ الْعَانِي وَيُحْمِي الذَّمَّارَ ، وَيَقْرِي الضَّيْفَ ، وَيَشْبِعُ الْجَائِعَ ، وَيَفْرُجُ عَنِ الْمَكْرُوبِ
وَيُطْعِمُ الطَّعَامَ ، وَيُقَشِّئُ السَّلَامَ ، وَلَمْ يَرِدْ طَالِبَ حَاجَةٍ قَطًّا أَنَا بِنْتُ حَاتِمِ طُغْيَ
فَقَالَ لَهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ : يَا جَارِيَةَ هَذِهِ صِفَةُ الْمُؤْمِنِ . خَلَوْا عَنْهَا فَإِنَّ
أَبَاهَا كَانَ يَحِبُّ مَكَارِمَ الْأَخْلَاقِ .

حرب البسوس

لَمَّا مَنَ طَبَائِعُ الْأُمَّةِ الْعَرَبِيَّةِ فِي جَاهِلِيَّتِهَا التَّخَوُّةَ وَالْأَنَفَةَ^(٤) وَالْحَمِيَّةَ^(٣) لَذَلِكَ كَانَتْ
الْحُرُوبُ مُشْتَغَلَةً بَيْنَ الْعَرَبِ لَا تَكْلُافَ تَهْتَدُ جَنُوتِهَا . يَدْفَعُهُمْ إِلَى ذَلِكَ مَا فِي طَبَائِعِهِمْ
مِنَ الْأَنَفَةِ وَالْحَمِيَّةِ وَعَدَمِ وَجُودِ حَاكِمٍ يَتَوَلَّى أَمْرَهُمْ وَأَتَمُّهُمْ قَوْمٌ رَحَّلَ يَلْتَجِمُونَ^(٥)
الْكَلَاءَ^(٦) وَيُرْتَادُونَ^(٧) مَوَاقِعَ الْغَيْثِ فَتَكْثُرُ بَيْنَهُمُ الْمَشَاحَنَاتُ عَلَى مَا يَقَعُ تَحْتَ أَيْدِيهِمْ .
وَقَدْ تَنَوَّرَ الْحُرُوبُ بَيْنَهُمْ بِدَافِعِ النُّجْدَةِ وَحِمَايَةِ الْجَارِ^(٨) . وَمِنْ هَذِهِ الْحُرُوبِ حَرْبُ
أَتَقَدَّتْ نَارُهَا ، وَحَمَى وَطَيْسُهَا بَيْنَ حَمِيٍّ وَائِلٍ ”بَكَرٍ وَتَغْلِبَ“ وَهُمَا مِنْ أَشْرَفِ قِبَائِلِ
الْعَرَبِ فِي الْجَاهِلِيَّةِ وَأَحَامَا أَنْفَاءً^(٩) وَأَعَزَّهَا نَفَرًا . تِلْكَ الْحَرْبُ هِيَ مَا تَعْرِفُ فِي التَّارِيخِ
”بِحَرْبِ الْبَسُوسِ“ . وَسَبَّحَا أَنَّهُ كَانَ لَكُثَيْبِ بْنِ رَبِيعَةَ سَيِّدِ بَنِي تَغْلِبَ مَرَعَى تَرَعَى
كَلَاهُ مَا شِئْتَهُ وَمَاشِيَتُهُ جَسَّاسٌ بِنِ مَرَّةٍ مِنْ بَكَرٍ وَائِلٍ وَكَانَ لِحَسَّاسٍ بِنِ مَرَّةٍ خَالَةً
تَدْعَى ”الْبَسُوسُ“ بِنْتُ مُثَقِّدِ التَّمِيمَةِ نَزَلَ بِهَا ”سَعْدُ بْنُ شُمَيْسِ الْجُرَيْمِيِّ“ وَكَانَتْ لَهُ نَاقَةٌ

(١) الْأَسِيرُ (٢) مَا يَجِبُ عَلَى الْمَرْءِ حِمَايَتَهُ بَحِثْ لَوْ لَمْ يَحِمْهُ لِأَنَّهُ الْبَاسُ وَعَقُوبُهُ (٣) الْعِظْمَةُ
(٤) الْإِنْفَةُ وَالْحَمِيَّةُ الْإِسْتِكْبَارُ وَالْإِسْتِكْكَافُ (٥) وَ(٦) يَذْهَبُونَ لَطَلَبِ الْكَلَاءِ وَهُوَ الْعُشْبُ (٧) يَطْلُبُونَ
(٨) الشَّجَاعَةُ وَالشَّدَّةُ (٩) الْوَطَيْسُ مِثْلُ التَّنُورِ يَنْخِزُ فِيهِ وَحَمَى الْوَطَيْسُ كِتَابَةٌ مِنْ شِدَّةِ الْحَرْبِ
(١٠) أَمْنُهَا وَأَعَزَّهَا .

تدعى «سراب» نريحت ذات يوم للرعى مع إبل جساس فاندست بين إبل كليب
فراها وسط الإبل فقال لا تعد مرة أخرى ثم رآها ثانية فأنفذ سهمه في ضرعها
فانطلقت تسعى نحو خباء «اليسوس» خالة جساس وبركت بفناء صاحبها الجرمي
فلما رأتها اليسوس وعلمت ما فعل كليب صاحت قائلة «واذلاًه! يا البكرا» ففزع إليها
جساس وسأها عن الخبر فقصت عليه قصصهما فأخذته الحمية العربية التي فطر عليها،
فقال لما سأقتل في الناقة «غللا» وهو أكبر نخل في إبل كليب وأتما يريد بغلال
«كليا» نفسه ثم رصد كليبا حتى رآه سائرا فناداه من خلفه قائلاً «يا كليب الرج
وراءك» فإبى كليب أن يلتفت إليه أفة واستكجرا وقال له «أقبل إلى من أمأى»،
فقطعنه جساس طعنة كان فيها حتفه وهناك ثارت عجاجة الحرب بين حبي وائل
«بكر وتغلب» فأكلت الأخضر واليابس وأوقعت بأسمهم بينهم وحصدت رجالمهم
حصداً، وما زالت دائرة الرعى أربعين عاماً حتى أفنى بعضهم بعضاً وضرب بالناقة المثل
فقيل «أشام من سراب» فلقد ذهب قتل كليب بأحلام بني تغلب وأغراهم بالنار من
بني بكر. يدلك على ذلك قول مهلهل من قصيدة يبكي بها أخاه كليبا ويتهدد بني بكر:

أهاج قذاة عيني، الاذكار؟ * هُدوماً فالدموع لها انهمار^(٥)
وظلّ الليل مشتملاً علينا * كأنّ الليل ليس له نهار
وبت أراقب الجوزاء حتى * تقارب من أوائلها انحدار
أصرف مقلتي في إثر قوم * تباينت البلاد بهم فغاروا^(٦)^(٧)

(١) العجاج الفبار والعجاجة واحدة والمراد أن الحرب اشتعلت نارها (٢) نكابة عن أن الحرب

لشدتها لم تنق شيئا (٣) عقول (٤) ما يقع في العين فيؤلمها (٥) وقت الهدوء أى النوم (٦) افترقت

(٧) ذهبوا في الأرض .

أجبنى يا كليب خلاك ذم * لقد بَجَعْتُ بفارسها نزار
سقالك الفيثُ إنك كنت غيثا * ويسرا حين يلمس اليسار
سألتُ الحى أين دفتموه * فقالوا لى بسفح الحى دارُ^(١)
فسرت إليه من بلدى حثيثا^(٢) * وطار النوم وامتنع القرار
ولست بمخالف سيفى وزعمى * إلى أن يخلع الليل النهارُ

وقوله

يا بكر أنشروا لى كليباً * يا بكر أين أين الفرار
يا بكر فاطعنوا أو خللوا^(٣) * صرح الشروبان السرارُ^(٤)

وقوله

أزجر العين أن تُبكي الطلولا^(٥) * إق في الصدر من كليب غليلا^(٦)
إق في الصدر حاجة لن تقضى * ما دعا في الفصون داع هديلا^(٧)

وليس بمعجب أن يشتد جزعُ بنى تغلب على فتاها كليب فقد كان قتي مغواراً
وبطلاً في الحربِ كزاراً ، وكان يضرب بعزته المثل فيقال "أعزُّ من كليب وأثل"
وما ظنك بمن كان يحى مواقع السحاب ، وكان يقول: «وحش أرض كذا في حمى»
فلا يصاد ، ولا يورد أحد إلا للشرب مع إبله ، ولا توقد نار مع ناره ، ولا يمر أحد بين
بيوته ، ولا يجتبي أحد في مجلسه ، وكان إذا أعجبه موضع أو روضة ألقى فيه جُرواً فلا
يسمع أحد عواءه إلا يجتنبه ولذلك لقبته العرب بكليب . وقد قتل غيلة فكان^(٨)

(١) مقدمه (٢) مسرا (٣) اهتوه من قبره وهذا تمييز لم (٤) ارحلوا (٥) الليلة المظلمة

(٦) جمع طلل وهو الشاخص من الآثار (٧) حقدا كأننا (٨) صوت الحمام أى ما بكى حمام على

ضمن (٩) كثير الغارات (١٠) احتجى الزجل جمع ظهره وساقيه بثوب أو غيره وقد يعنى باليسدين

(١١) قتل قدرا وضياعة وأخذ على غرة .

الجزع لفقده أعظم، والرغبة في الثأر له أشد: من أجل ذلك لم يرَحم «مهلهل» أحدا ظفِره به من قوم جَسَّاس حتى من جنح منهم إلى السلم واعتزل الحرب، فإنه لقي «يُجَيَّر» ابن الحارث بن عبادٍ البكري^(١) وكان الحارثُ مسالما لتَغْلِبَ فقتل بجيرا وقال «يُوبِشِع^(٢) نعل كليب» فلما أتصل نبؤه بأبيه «الحارث» وكان رجلا حكيما رزينا ظنَّ أنَّ مهلهلا قتله في ثار كليب مكثفيا به عن غيره وأقَّ الحربَ بعد ذلك تَضِعْ أوزارها ولكن ظلَّ مِرْجَلُ الغَضَبِ في صدره واحتدم غيظا إذ علم أن ولده لا يساوى عند «مهلهل» إلَّا شِشْع نعل كليب . فهناك خاض غمار الحرب مُكرها بعد أن لزم الحيدة زمنا طويلا كاجها حجاج نفسه وهو يرى الحرب تطعن رجلاها بنى أبيه . ثم قال يطلب فوسه النعامة :

قَرَبَا مَرَبَطَ النَعَامَةِ مَنَى * شَابَ رَامِي وَأَنْكَرَنِي عِيَالِي
قَرَبَا مَرَبَطَ النَعَامَةِ مَنَى * لَأَقْتُلَ الْأَجْرَارَ بِالشِّشْعِ غَالِي
لَمْ أَكُنْ مِنْ جُنَاتِهَا حَلِمَ اللَّهُ وَأَتَى بِنَارِهَا الْيَسُومَ صَالِي

ثم خَبَّ^(٦) في الحرب ووضع فازدادت نارها اشتعالا وانجلت عن تَمْزِقِ الْفَرِيقَيْنِ وانتهزام ما كان لتغلب من العزَّة وإبلها وقد كانت الحرب بين الفريقين مجالا حتى جاء يوم «قِصَّة» وهو يوم تَحْلِقُ^(٨) اللِّمَّ، فدارت الدائرة على تَغْلِبَ وكان الحارثُ رأس بنى بكر.

(١) مال (٢) ارجع بشع نعله وهو جبل يشد به النمل (٣) أخفاها (٤) قدر من نحاس.

والمنى اشتد غضبه (٥) زحبا وهو جمع غمرة (٦) خب أسرع وسار سيرا بطيئا والمعنى أنه خاض بلة الحرب واضطل بنارها وتقلب عليه بأسوارها (٧) السجل الصليب والجمع مجال والحرب مجال أى نصرتها متداولة بين الناس (٨) يوم مشهود من أيام هذه الحرب ومعنى بذلك لأن «بكر» أجمعت على حلق رؤسها حتى تعرف .

ذلك اليوم وفيه أسر "مهلهلا" وهو لا يعرفه فقال له: ^١دُلِّيْ عَلَى «عِدَى بن ربيعة»
وَأَحْيِيْ عُنْكَ فَقَالَ : عليك اليهود بذلك إِنْ دَلَّلْتُكَ عَلَيْهِ قَالَ : نَعَمْ قَالَ : فَأَنَا «عِدَى»
فَغَزَى نَاصِيَتَهُ وَتَرَكَهُ ثُمَّ قَالَ :

لَمَفْ نَفْسٍ عَلَى عِدَىٍّ وَلَمْ أَمْ * رَفَ عِدِيًّا إِذْ أَمَكَنْتَنِي الْيَدَانِ

ولا غرو فالوفاءُ سَجِيَّةُ الْعَرَبِيِّ لَا تَفَارِقُهُ فِي السَّلَامِ وَالْحَرْبِ ، ثُمَّ إِذَا مَهْلَهْلًا بَعْدَ
أَرْبَعِينَ أَمَامًا سُمِّيَ الْحَرْبَ وَأَهْوَاهَا وَرَجَعَ إِلَى نَفْسِهِ وَأَشْفَقَ عَلَى بَقِيَّةٍ مِنْ قَوْمِهِ كَادَتْ
الْحَرْبُ تَأْتِي عَلَيْهِمْ ^(١)وَكَاثِمًا أَحْسَسَ وَخَزَ الضَّمِيرَ فَقَالَ لِقَوْمِهِ : قَدْ رَأَيْتُمْ أَنْ تُبْقُوا عَلَى
قَوْمِكُمْ ، فَإِنَّهُمْ يَحِبُّونَ صَلَاحَكُمْ ، وَقَدْ أَتَيْتُمْ عَلَى حَرْبِكُمْ أَرْبَعُونَ سَنَةً وَمَا لَمْ تَكُنْ عَلَى مَا كَانَ
مِنْ طَلَبِكُمْ يَوْمَ تَرَكْتُمْ فَلَوْ صَرَّتْ هَذِهِ السَّنُونَ فِي رِفَاحِيَةِ عَيْشٍ لَكَانَتْ تَمَلُّ مِنْ طَوْلِهَا
فَكَيْفَ وَقَدْ فَنَى الْحَيَّانَ ، وَتَكَلَّتِ الْأُمَمَاتُ ، وَيَتِمُّ الْأَوْلَادُ ، وَنَائِضَةٌ ^(٢)لَا تَزَالُ تَصْرُخُ
فِي النَّوَاحِي ، وَدُمُوعٌ لَا تَرْفَأُ ، وَأَجْسَادٌ لَا تَدْفِنُ ، وَسُيُوفٌ مَشْهُورَةٌ ، وَدِمَاحٌ مَشْرَعَةٌ .
وَإِنَّا الْقَوْمُ سِيرَجَمُونَ إِلَيْكُمْ غَدًا بِمَوَدَّتِهِمْ وَمَوَاصِلَتِهِمْ وَتَتَمَطَّفُ الْأَرْحَامُ ^(٣)فَمَنْ قَالَ : "وَأَمَّا
أَنَا فَلَا تَطِيبُ نَفْسِي أَنْ أَقِيمَ فِيكُمْ ، وَلَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَنْظُرَ إِلَى قَاتِلِ كَلِيبَ ، وَأَخَافُ أَنْ
أَحْمِلَكُمْ عَلَى الْإِسْتِخْصَالِ وَأَنَا سَائِرٌ إِلَى الْيَمَنِ" وَنَزَلَ فِي "جَنْبٍ" وَهُمْ حَتَّى مِنْ مَذْجَحٍ .
^(٤)

وَقَدْ أَرْغَمَتْهُ الْأَحْوَالُ عَلَى أَنْ يَزُوجَ ابْنَتَهُ فِيهِمْ وَهُوَ لَا يَرَاهُمْ مِثْلَهُ شَرَفًا ، وَقَالَ
فِي ذَلِكَ أَيْبَاتًا يَنْتَعِي بِهَا قَبِيلَتَهُ وَبِجَدِّهِ الَّذِينَ طَاحَتْ بِهِمَا هَوَجَاءُ الْحُرُوبِ ، ثُمَّ رَجَعَ
إِلَى دِيَارِ قَوْمِهِ فَأَسْرَهُ عَمْرُو بْنُ مَالِكِ الْبَكْرِيُّ بَنُوَاحِي تَجْرُومَاتٍ فِي أَسْرِهِ سَنَةَ ٥٣١
مِيلَادِيَّةً . وَلَوْ أَنَّهُ لَمْ يُسَرِّفْ فِي الْقَتْلِ وَلَمْ يَتَدَّ عَلَى مَنْ سَلَّمَهُ وَحَكَّمَ الْعَقْلَ وَجَنَحَ إِلَى

(١) تَقْنِيمُ جَمَا (٢) بِأَرْكَمَ (٣) قَتَدَنَ أَوْلَادَهُ (٤) لَا تَتَقَطَّعُ وَلَا تَجْفُحُ (٥) مَالَةٌ

أَسْتَدَادَا الطَّلَانِ (٦) الْفَنَاءُ (٧) ذَهَبَ (٨) الْحَرْبُ الشَّدِيدَةُ التَّغْلِبُ مَأْصَلُ الْهَوَجِ الْحَقِيقُ مَعَ طَوْلِ .

السلم . ما أنزله الزمان عن كبريائه ، ولا تجرع البؤس بعد النعيم ، ولكن النفس المفطورة على الكبرياء والعظمة ، لا ترجع عن ^(١) غيها ، حتى تحضد الأيام ^(٢) شوكتها . والحرب كارثة رافقت العالم منذ نشأته ، تجلبها الآثرة ، ويسوق إليها الطمع ، ويذكرى نارها ما في النفوس من حب الغلبة ، والجنوح إلى الظلم ، ولا يمكن أن يستريح العالم من ويلاتها إلا إذا عقدت أواصر المودة بين النوع الإنساني ، وانتصف كل واحد لأخيه من نفسه .
لأن نصف الناس حظ الثقل حائله * عنه ولم ترف الهيجاء معتركا

خالد بن الوليد

هو أبو سليمان خالد بن الوليد بن المغيرة فارسي قريش في الجاهلية ، وقائد خيل الله في الإسلام . وكفاه غمرا أن يكون من قريش . وهم أرجح العرب عقولا ، وأضخم أنسابا ، وأكرمهم أصولا ، وأشرفهم أحسابا . وإذا كان شرف الناس بأثارهم وبما هبهم فقريش في الجاهلية قوام العرب ، ونظام وحدتهم ، وبهم في الإسلام قام أكبر انقلاب في العالم من عهد آدم إلى أوائل القرن السابع من ميلاد عيسى عليه السلام . لا نجد قوماً حفظوا أنسابهم وقوميتهم بمنزل ما فعلت قريش ، ولا قبيلة أحرزت نصاب قريش من صناديد الرجال والأعلام .^(٤)

ومن بطون قريش بنو مخزوم آل الوليد ربيعة قريش وسريها ومرجها في عقله وبلاغته ، وله فيهم بسطة المال والجاه . وكان يطعم الناس في منى ، وينهى أن توقد النار^(٥)

(١) ضلها (٢) تقطع (٣) الأورا ترجع أمرته وهي العاطفة والعهد والرابطة (٤) العصاب

للقدار (٥) عظيمها .

تأثيره لغير ناره للإطعام ، ويوسع النفقة على الجميع ، ويأتيه الثناء من الأعراب . وله مسائل تمتد من مكة إلى الطائف ، ومنها ما لا ينقطع طول أيام العام .

وكانوا يسمونه الوحيد لتفرد فيه بتلك المزايا الجسام .
لما أُسندت الأمانة^(١) إلى خالد عفا ، ولا كانت له القبة عرساً ، ولا أحرز الجاه^(٢)
العريض بلا سبب ، ولكنه الحلم^(٣) الراجح ، والحسب^(٤) الوافر ، والمجد^(٥) الأصيل .

ولد رضى الله عنه قبل الإسلام بنحو من ثمان سنين ، وبعث النبي صلى الله عليه وسلم وهو لم يبلغ أشده بعد ، فبأوفى على العشرين حتى أسلمته قريش أعتبها وقبعتها . فكان بذلك قائد خيلها ، وخازن^(٦) حربيها ، شرف كان له في الجاهلية وصله به الإسلام ، وكان له العقل^(٧) الراجح في السلم ، والتدبير^(٨) المحكم في الحرب ، لا يعمى عليه سهيل أو يضلل به دليل . ألم تركيب فعل في أحب وهو على خيل المشركين ، إذ أمر النبي صلى الله عليه وسلم الرماة ألا يرحوا أماكنهم ولو رأوا إخوانهم يتقاسمون الغنائم منصورين ، فلما انتصر المسلمون وتناولوا الغنائم زال الرماة عن مواقعهم جنوحا إلى المغم ونسوا أمر الرسول . فما كان إلا أن أخذتهم خيل خالد من ظهورهم واضطرب أمر المسلمين فكأنما كانت النبوة لا تحذر في تحذير الرماة غير ابن الوليد .

لله قريش في أحلامها وعقولها ، في شبابها وكهولها ، ما عجلت أمراً إلا كانت فيه المثل الأعلى ، والإمام المبين ، يلينا نرى ابن العشرين من هاشم مثلاً تهتد^(٩) أرجاء الحرب لصوليته إذا تملد سيفه للقتال ، كمل^(١٠) بن أبي طالب ، إذا ابن العشرين من غزوم يتقلب في حجراتها ، على المقربات الجياد ، نخالده^(١١) بن الوليد .

(١) أنجيل (٢) حمية تضرب وتجمع فيها أموال قريش للحرب (٣) خازن الحرب الذي يهده أموالها (٤) ساحتها (٥) جهاتها وجوانبها (٦) أنجيل .

فتى قريش مثال النجدة في جاهليته وإسلامه فلا بدع أن ترى خالدا شديد البأس في كفره على المسلمين ، كما عاد في إسلامه من أشد الناس بأساً على الكافرين ، ولم يخف على النبوة ما كان له من أوصال الرأي ، فلم ينقطع لرسول الله صلى الله عليه وسلم رجاء فيه ولا في إسلامه ولا أحفظه عليه شدة نكايته بالمؤمنين ، والرجل الصدوق يحسن كل عمل أسند إليه ، واعتمد فيه عليه ، وكذلك كان قتي بن عزم قبل الإسلام وبعد الإسلام ، فإنه لما شرح الله صدره للإسلام فكر في أمر النبي صلى الله عليه وسلم وتزايد قوته يوماً بعد يوم فقال في نفسه : إنه لا بد أن يظهر ويتبعه الناس فاولى بنا أن نكون أسبقهم إلى اتباعه والتصديق به وكان النبي صلى الله عليه وسلم قد هاجر إلى المدينة والمسلمون يتسللون خفية إليه خشية قريش فاتفق هو وعمر بن العاص وهشام بن طلحة رضى الله عنهم ووفدوا على النبي بالمدينة سنة ثمان من الهجرة وهو يومئذ لم يبلغ الثلاثين من عمره فأسلموا ، ويومئذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم : الحمد لله الذي هدانا لهذا قد كنت أرى لك عقلاً رجوت ألا يسئلك إلّا إلى خير. فقال له : يا رسول الله ادع الله لي يفرقك المواطن التي كنت أشهدك عليها . فقال له صلى الله عليه وسلم : الإسلام يحب ما قبله . هذا والنفس الكبيرة في كفرها تكون في إسلامها أكبر ، والأعراف الطاهرة في عهد الشرك تراها بالإيمان أزكى وأظهر ، وكذلك كانت نفس خالد رضى الله عنه .

فإنه في أول مشهد شهده في نصرة الدين الحنيف أحرز شرف القيادة الصائبة لجيش المسلمين ولقبه الرسول بسيف الله المسلول . في غزوة من غزوات بلاد الروم ، كان جيش الإسلام فيها نحو ثلاثمائة ألف ، وجيش الكفار مائتي ألف أو يزيدون ، فلما التقى الجماعتين فيها استشهد القائد الأول زيد بن حارثة مولى

رسول الله ، ثم استشهد بعده خلفه جعفر بن أبي طالب ابن عم الرسول ، وهو الملقب بالطيار وذى الجناحين ، ثم ثالث القواد عبد الله بن رواحة الأنصاري رضى الله عنه وعن سابقيه .

فلما تولى قيادتهم خالد بن الوليد ، انحاز بالجيش ، وثبت للعدو ، وصدق بأس الإسلام فيهم ، وكسر خالد في هذه الواقعة سبعة أو تسعة من السيوف ، حتى ارتاع أهل الروم ، وزلزلوا زلزالاً شديداً ، ثم ولوا مدبرين ، وكثرت الغنائم للساكنين ، وصار سيف الله لقباً من ذلك اليوم ، لزمه وعرف به ، كما لزمه في جميع غزواته الفتح المبين .

وشهد فتح مكة مع النبي صلى الله عليه وسلم ، وندبه بعد الفتح لمسلم العزى فهدمها ، وهى أكبر صير كان يعبده المشركون ، وكان يقول وهو يهدمها :
يَا عَزَّ كُفْرَانُكَ لَا سَبْعَانَكَ * إِنِّى رَأَيْتُ اللَّهَ قَدْ أَهَانَكَ

ولما تولى رسول الله صلى الله عليه وسلم ، جعله أبو بكر رضى الله عنه أكبر قواد المسلمين ، وقد جمع في نفسه صفات العظماء من القواد كلها ، فأقدم في حزم ، ونجدة في عزم ، وذكاء في روية ، وخبرة بفنون الحرب وخدمتها ، وبعد نظر في كيد العدو ، وصدق رأي في سياسة الجند ، وتأمين الثغور والمخاوف ، وحسن القيام عليها ، وحفظ الطريق لما فتح من البلدان بإقامة العدل والقسط بين الناس ، فهو القائد الذى لا يستطيع العدو من ساحته من يريده ولا يفوته ما أراد .

وسيره أبو بكر رضى الله عنه إلى قتال المرتدين والمتلبسين كسليمية الكتاب الذى فتن أهل النيسابور وأصلهم ، وكغيره ممن ارتكبوا عن الإسلام ، فرجعهم إليه وأذاقهم بأس الله في عدة مواطن ، ملاها كلها حزمًا ونجدة وتديرا .

ولما أراد الله فتح العراق على المسلمين ، اتدلق سيف الله من قرابه بأمر^(١) الصديق إليها ، عارضا مستقبل أوديتها ، وغيا يأتي على محولها ، ونورا يجلو ظلامها ، فكان على الكافرين من أهل العراق كما قال سيد الرسل صلى الله عليه وسلم : إنا إذا نزلنا بساحة قوم "فساء صبايح المنذرين" .

فلما حل بأرض السواد من تلك البلاد أقام بها للحرب سوقا بضاعتها النفوس ، وبعثها السيوف ، وشبّت بين المسلمين والعجم فيها وقائع تجعل الولدان شيئا ، وخالد في جميعها كفيلا في كلّ واقعة بأمر كبشها يعاجله بالبراز ، فلما أن ينجو بالفرار ، وإما أن يدّ حياض المنون . وما زال من يوم إلى ليلة ، ومن ثغر إلى بلدة ، حتى فتح السواد كله وسار إلى الروم بأمر الخليفة حتى لقي المسلمين باليرموك .

يوم اليرموك

وبلغ عدد المسلمين في هذا الموقف بضعة وأربعين ألفا ، فيهم ألف من أصحاب الرسول ، وفي الألف مائة بدرّيون ، وكان جيش الروم مائتي ألف وأربعين ألفا فيهم ثمانون ألفا مقيّدون ، وأربعون ألفا مقرّنون ، وثمانون ألفا معقولون بالهائم لئلا يفزوا ، ومثلهم راجلون . وكان المسلمون قبل خالد يقاتلونهم متساندين ، أي كلّ زعيم أمير على صحبه ليس لهم قيادة طاعة ولا نظام ، فوقف فيهم خالد خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال : إن هذا يوم من أيام الله ، لا ينبغي فيه الفخر ولا البغي ، أخلصوا جهادكم ، وأرضوا الله بعملكم ، فإن هذا يوم له مابعد ، ولا تقاتلوا قوما

(١) أنزل (٢) حمده (٣) المارض من التهام ما جاءه ساقا جاني الألق (٤) جديها (٥) علم

على الأرض التي في غرب القرات (٦) القائد العام (٧) مكان يبلد الروم .

على نظام وتبعية وأتم متساندون ، فإنَّ ذلك لا يحسَّل ولا ينبغي ، وإنَّ وراءكم من لو يعلم حال بينكم وبين هذا ، فاعملوا فيما لم تؤمروا به بالذي ترون أنَّه رأى من وإلىكم .

ثم أشار عليهم بأن يتأمر كلَّ زعيم قوم منهم يوما ، وأن يكون هو أقلَّ زعيم ، فأقروه وهم يظنون أنَّها تخرجاتهم كلَّ مرة ، وأنَّ الأمر لا يطول ، فخرج الروم في تبعية لم ير الرأون مثلاً ، ونسج خالد في تبعية لم تعبها العرب قبل هذا اليوم ، فخرج في كرايس مددها من ستة وثلاثين كردوساً إلى أربعين ، وقال لقومه : إنَّ عدوكم كثير وليس ثم تبعية أكثر في رأى العين من الكرايس ، وكذلك جعل كلَّاً من القلب والجناحين كرايس على كلِّ كردوس رجل من الشجعان وجعل للجيش قاضياً ومؤرخاً ، فالقاضي أبو الدرداء ، والمؤرخ أبو سفيان ، ونظَّم القيادة تنظيمًا بديعاً ، فعل على كل جزء من أجزاء الخميس رجلاً من المعروفين ، فكان قائد القلب أباصيدة ، وقائد الميمنة عمرو بن العاص وأحرمه ، وقائد الميسرة يزيد بن أبي سفيان ، وقائد الساقة عكرمة بن أبي جهل رضوان الله عليه . ثم نسب القتال بين الفريقين ، والتحم الناس ، واشتد القتال وبنياهم على ذلك قدم الرسول من دار الخلافة فسألوه ما وراءك فقال الخير والأمداد ، وأما جاء بكاتب فيه وفاة الصديق ، وانتقال الخلافة بعده إلى عمر بن الخطاب ، وبإسناد القيادة العائمة إلى أبي عبيدة ، وعزل خالد ابن الوليد ، ورضي الله عن الجميع .

(١) الصيغة جمع الجيوش وتديره (٢) يريد الخليفة يقول لو علم حالكم هذه وتساندكم لمنكم .
(٣) الكردوس الجملة من الخيل يشبه أن يكون هو الهلوك المعروف اليوم (٤) الخميس الجيش باعتباره خمسة أجزاء المقدمة والجناح الأيمن والقلب والجناح الأيسر والساقة .

ولما قرأ خالد الكلاب أخفاه خيفة أن تضعف قلوب الجند ، ويدب التفريق إلى كلمة المسلمين ، والعدو لهم بالمرصاد .

وخرج من جيش الروم إلى ما بين الصقيين رجل اسمه "جرجه" وطلب خالدا فبرز له وأمن كل منهما صاحبه ، فقال جرجه ، يا خالد ، أصدقني ولا تكذبني فإن الحق لا يكذب ولا تخادعني ، فإن الكريم لا يخادع ، هل أنزل الله على نبيكم سيفا من السماء فأعطاكم فلا تسلمه على قوم إلا هزمتهم ؟ قال : لا ، قال : فم سميت سيف الله ؟ فقال : إن الله بعث فينا نبيه صلى الله عليه وسلم ، فكنت أقاتله ، ثم إن الله هداني فتابعته ، فقال : "أنت سيف الله سلمه الله على المشركين ودعا لي بالنصر" قال : جرجه فأخبرني إلام تدعوني ؟ قال خالد : إلى الإسلام أو الجزية أو الحرب ، قال : فإ مثلة الذي يحبكم ويدخل فيكم ؟ قال : مثلتنا واحدة ، قال : فهل له مثلكم من الأجر والذخر ؟ قال : نعم وأفضل ، لأننا أتبعنا نبينا وهو حتى يبرزنا بالغيث ، ونرى منه العجايب والآيات ، وحق لمن رأى ما رأينا ، وسمع ما سمعنا ، أن يسلم ، وأنتم لم تروا ولم تسمعوا مثلنا ، فن دخل يديته وصلى كان أفضل منا . فقلب جرجه رأسه ، ومال مع خالد وأسلم ، ثم خرج مع خالد وقاتل الروم حتى قتل شهيدا في هذا اليوم فرحمه الله في الشهداء والصدقيين .

وحمل الروم حملة زحزحوا بها المسلمين أول الأمر ، ثم كرّ المسلمون على الروم واشتد البأس عليهم فتضعضعوا ونهض خالد بالقلب حتى كان بين خيلهم ورجلهم فانهمزت الخيالة وتركوا الرجال يصلون ناراها ، فانهمزوا شرّ هزيمة ، ووقع المقتزون والمسللون في الخندق هالكين ، وتم النصر للمسلمين فكان نصرا مبينا ، ثم أعلن خالد كتاب أمير المؤمنين وأسلم القيادة إلى أبي عبيدة طاهر بن الجراح رضى الله عنه .

ونظر رجل يومئذ إلى الروم فقال: ما أكثر الروم وأقلّ المسلمين ، فقال خالد:
بل ما أكثر المسلمين وأقلّ الروم إنما تكثر الجنود بالنصر وتقلّ بالخذلان .

يا حيرة البرأعة في وصف هذه النفس وكبرها ، وبصرها بمواطن النصر وثقتها به
في أشدّ الأحوال ، قائد يرى عدد عدوه ستة أمثال عدده ، ويبصر نظامه وتعيينه
ثمّ يستبين به إلى هذا الحدّ ، فيقول ما أقلّه وأكثر جيشي ، ثمّ يقول لمحدثه والله
لوددت أنّ الأشقر براءً من توجّيه^(٢) ، وأنهم أضِعُّوا في العدد ، ماهذه القوة النفسية؟
وما هذا اليقين ؟ اللهمّ أنّه نور الإيمان يهدي به الله من اتّبع رضوانه سبل السلام ،
ويخرجهم من الظلمات إلى النور بإذنه ويهديهم إلى صراط مستقيم .

ولا أخذت قلبه حركة من حركات الحقد على الخليفة ، أو الغضب من عمله ، وإنما
ظلّ في إخلاصه معه ، وفيما كان عليه من البأس والإقدام ، جندياً في نفس قائد ،
وقائداً في صورة جنديّ ، ولم يزل يمدّ الجيش بما عوّده من الازم والتدبير ، حتّى فتح
أكثر ما بقى من بلاد الروم ، واضطرت أعماله أمير المؤمنين أن يعيد إليه الإمارة وقيادة
الجيش ويقول : ”أمر خالد نفسه ، رحم الله أبا بكر، كان أعلم بالرجال مني“ . ولم
يزل أميراً حتّى اختاره الله لجواره الكريم ، ولما توفّي رضى الله عنه وجدوا في جسمه
بضعا وسبعين طعنة وضربة ليس فيها واحدة في ظهره فرضى الله عنه وأرضاه ،
وجزاءه عن الإسلام وعن المسلمين أحسن ما جزى سلفا كريما عن خلف كريم .

بعيشك ماذا ترى في قائد مظفر ، وأمير جليل ، فاجأه أمر الخليفة بال عزل ،
في وقت ينتظر الناس له فيه أرفع ما يكون من منازل التجلّة ، وأكثر ما يدخل تحت

(١) الأعلام (٢) يريد حصانه (٣) التوجّى الحفا . والحفا رقة القدم والخف والحافر من
كثرة المشى .

الطاقة من الثواب والجزاء ، قائد يفتح ما فتح خالد من أرض العراق ، ويضرب
ما ضرب من جنود فارس والروم ، وما أخطأ مرة ولا أخذت عليه تقصيرة ،
ولا ضعف يوما ولا استكان ، ثم يكون جزاؤه أن يعزل من القيادة ، وما كان
في حياته كلها إلا قائدا ، ويصبح جندياً مجرداً من صفات الرياسة والإمارة ،
وما كان كذلك يوما من الأيام ، أنظنه يبقى على ما كان فيه من نجدة وإقدام ، وجد
في العمل ، وإخلاص في السيرة ، أم شكس نفسه ، وتخذ حقيقته ، ويحذف إخلاصه
كما نرى في زماننا هذا ، بل ربما فسدت نفسه وتربص الدوائر بتلك الأئمة التي
رأى من خليفتها مارأى ، اللهم إنا نؤثر فيها ذلك كله وتبقى على ما عرف فيها
من قبل من نشاط في العمل ، وإخلاص في الجهاد ، لم ي نفس لاتعد في الصفوف
المألوفة من نفوس البشر ، ذلك هو خالد بن الوليد العربي القرشي المخزومي ،
ذو النفس التي شرفها الله بالدين ومكارم الأخلاق ، عزله أمير المؤمنين لها وفي
ولا وهن ولا هان .

مدائن كسرى وقصره الأبيض وإيوانه

كانت الإثمة الفارسية دولة ذات قوة ومسطوة وسلطان ، ومملكة ذات عز
شاخ^(١) ، ومجد باذخ^(٢) ، عريقة في الحضارة ، راسخة القدم في المدنية ، والفرس أهل ذكاء
وفطنة وفيهم استعداد فطري لوسائل الارتقاء وأسباب التقدم . وحسبك شاهدا بما
كانت عليه من القوة والعظمة أنها حاربت اليونان قبل المسيح ببضعة قرون فسافت

(١) حال مرتفع وجبل شاخ شاهق وفله شمع تخضع (٢) حال وبلخ كفرج وتبلغ تكبر وحلا .

إلى بلادهم جيشاً جزاراً قد يصعب على دولة عظيمة حشده وتزويده بما يحتاج إليه من
مئون وذخائر. وتُقل ذلك كله من أواسط آسيا إلى البحر الأبيض. فالدولة التي يكون
هذا مبلغ قوتها لا تخلو من علم وأدب وصناعة ورقية. فما كان لأمة فت الجهل^(٣)
في عضدِها وهاض الضعف من جناحها أن تقوم بعمل عظيم أو أن تصب عن
نفسها عادية عاد .

ولقد أخرج الفرس للناس في كل زمان أدبا جمّا لأئهم مزدانون بخلال شريفة
رفع إلى التقى والمرح والمجارية، وزادت نهضتهم العلمية في زمن الملك العادل كسرى
أنوشروان (من سنة ٥٣١ ق م إلى سنة ٥٧٨) وولد النبي صلى الله عليه وسلم في عصره
ولذلك يقول: «ولدت في زمن الملك العادل» فقد كان ذلك العاهل العظيم المضروب^(٦)
بعمله المثل نصيراً للعلم ، يشد أزده، ويبذل عنايته في تقدمه وانتشاره، حتى ازدهى
عصره بما كان عليه أبناء فارس من علم وأدب .

ولقد جاء الإسلام والفرس في إبان هذه النهضة العظيمة ، والمدنية الراقية التي
غرس أصولها الملوك السالفون، وتماهدوا أنوشروان بالسقيا والإصلاح ، فأثمرت
في زمانه ثمرات شتى ، ولم نجد العرب حضاضة حين أشرقت شمسهم في تلك الأنحاء أن
ينتفعوا من هذه المدنية الفارسية فاقنيسوا منها ما مزجوه بمدىتهم وشيدوا عليه تلك
الحضارة العربية الزاهرة التي كانت فيما بعد نبراساً يستضاء به ونورا يهتدى بهديه .

(١) جيش جزار وكتيبة جزار قتيبة السير لكثرتها (٢) جمعه (٣) فت الشيء كسره ودقه ، فت
في ضده وساعده أضغه وكسر قوته وفرق عنه أعوانه (٤) هاض الضم يهضه كسره بهد البحر وهاض
جناحه أضغه وكسر من قوته «وتقول عائل المريض فهاضه كذا أي تكسه» (٥) مرح مرحا اختال
ونشط واشتد فرحه (٦) العاهل الملك الأعظم (٧) ظهره أو قوته وشدة أزده أي قواه وأمانه
(٨) ذلة ومقعدة وجيب (٩) مصباحا .

وقد قام بالأمير من ملوك هذه الدولة من لا يزال التاريخ يقص علينا من أنسابهم، ويحدثنا عن عظيم أعمالهم، وجليل آثارهم، وبل كثير مما خلقوه منها على ما كان لهم من قوة وإقدار، وعناية برائع الآثار. غير أن التاريخ ينقم من بعض هؤلاء الملوك ما كانوا عليه من جبروت وطفان، وما شوهوا به صفحات أيامهم من ظلم وقسوة وإرهاق للرعية، ومن هؤلاء «دارا الأصغر» فقد أطال إعنات رعيته، وقتل رؤسائهم، قتل أهل مملكته، وسبوا حكمه، وانصرفت قلوبهم عن محبته، فلهي كثير من وجوههم وأعلامهم بالإسكندر وأرشدوه إلى مواضع الضعف من دارا وقوته عليه فالتقيا ببلاد الجزيرة ودارت بينهما حرب طاحنة دامت نحو عام كامل ثم إن رجالا من أصحاب دارا وثبوا عليه فقتلوه وتقرّبوا برأسه إلى الإسكندر فكافأهم بأن أمر بقتلهم وقال : هذا جزاء من اجتأ على ملكه .

هكذا هلك دارا بعد أن ملك أربع عشرة سنة وتفرق من يومئذ ملك فارس وكان قبل الإسكندر مجتمعا .

دار الزمان على دارا وقائيله * وأتم كسرى فما آواه إيوان

ومهم «يزدجرد» وكان فظا، غليظ القلب، شديد الإعجاب بنفسه، مستخفا بكل ما كان عند الناس من علم وأدب محترمه، قليل الاعتداده به، وكان مع هذا غليظا سيئا الخلق حتى بلغ من شدة غلظه وحدته، أن كان الصغير من الزلات لديه كبيرا، واليسير من الأسقطات عنده عظيما، ثم لم يقدر أحد وإن كان أدنى الناس إليه وأقربهم مجلسا

(١) تكبر وقوة وعظمة (٢) العنت المشقة والتعب وقاء الشدة، عته شدة عليه وألزمه ما يصب

عليه أداؤه (٣) رجل غليظ سيئا الخلق ضيق الصدر سريع الغضب والحدة عمر الرضا، فله كفرح .

منه أن يكون لمن ابتلى عنده بشيء من ذلك شفيما ، وكان دهره كله للناس متما .
حمل على الضمفاء ، وأكثر من سفك الدماء ، وأساء السيرة في الرعية ، وعظمت
منه البلية .

ومنهم من كانوا يستعبدون الأحرار ، ويُجثرون الرعايا بجرى الأجراء والعبيد والإماء^(١)
فلا يقيمون لهم وزنا ، ولا يرون لهم معهم قدرا ، ويستأثرون عليهم بأطايب الأشياء
وأحاسنها ، بآئين أمورهم معهم على قول عمرو بن مسعدة للأمون : «ملك ما يصلح^(٢)
للولى على العبد حرام»^(٣) .

ولكن التاريخ لا ينسى فضل كثير من ملوك هذه الدولة كانوا شديدي الميل إلى
الإصلاح ، مؤثرين العدل ، قائمين بحق الملك خير قيام ، حريصين على العارة حتى
كان فيهم من إذا بلغه أتك بيتا خرب وجلا عنه أهله فأقب صاحب البلد الذي فيه^(٤)
ذلك البيت على تركه إناشهم وسد فاقيتهم ، حتى لا يضطروا إلى الجلاء عن أوطانهم^(٥) .

وكان كسرى أنوشروان ملكا عادلا ، سديد الرأي ، حسن السيرة ، قد عرف الناس^(٦)
منه فضلا في رأيه وعلوه ، وعقله وبأسه ، وحزمه مع رأفته ورحمته بالرعية وحديثه عليهم ،
ونظره فيما يصلح شأنهم ، ويعملهم في حسن حال ، ورخاء بال ، وكان ولو بالتشديد المباني ،
وإصلاح ما تهتم منها ، فقام يكرى الأنهار ، وحفر القني ، ومساعدة أصحاب العارات ،
وأمر بإعادة كل جسر قطع ، أو قنطرة كسرت ، أو قرية خربت ، وأن يرذ كل ذلك إلى^(٧)
أمر بإعادة كل جسر قطع ، أو قنطرة كسرت ، أو قرية خربت ، وأن يرذ كل ذلك إلى^(٨)

(١) جمع أجير وهو العبد أو الخادم والعامل المستأجر (٢) عمرو بن مسعدة من مشهورى الكتاب
والشعراء في عصر الأمون توفي سنة ٢١٧ هـ (٣) معناه هنا السيد (٤) جلا عن البلد جلاء خرج
منه وفارقه وجلا راجل كلاما يستعمل لازما ومتعديا (٥) أنعشه رفعه وأحسن حاله وجيره بمد فقر
وتداركه من شدة (٦) جذب عليه كفرح تطف (٧) كرى التهر استحدثت حفرة (٨) الجسر ما يعبر
عليه ، القنطرة الجسر ، ما ارتفع من البنيان .

أحسن مما كان عليه . وسهل سبل الناس ، وبني في أنحاء مملكته القصور والحصون والآكام ، وما يكون حِزًّا لأهل بلاده يلتجئون إليه من عدوئهم^(١) . أقام في ملكا بالمداين نحو ٤٧ سنة لم يزل فيها مظفرا منصورا تهابه جميع الأمم ويحضر بابه من وفودهم عدد كثير من الهند والصين والخزر ونظرائهم ، مكرما للعلم والعلماء ، آخذا بيدهم ، ومشرفا بهم على اليقاع^(٢) ، حتى راجت في عصره سوق العلوم والمعارف ، ووصلت بلاد فارس في أيامه إلى غاية مجدها وارتقاها .

مد هؤلاء من أعظم ملوك الفرس وأبعدهم صيتا ، وأسيرهم ذكرا ، والتاريخ يحفظ لأكثرهم رغبته في العماره وحرصه على إقامة البناء الشاهق ورفع قواعده . وكَم منهم من بنى المدائن وأنشأ القرى واحترف الأنهار وعقد الجسور ، وكانهم علموا أن لذة البنيان باقية دائمة وأنه كلما نظروا إليه تجددت لذته في القلب ، وتكرر حسنه في العين ، وعرفوا أن المباني العظيمة أخلد أمرا ، وأنطق خيرا .

هم الملوك إذا أرادوا ذكرها من بعدهم فبالسن البنيان
إن البناء إذا تعظم شأنه أخفى يدل على عظيم الشأن

ولشدة ولوعهم بالعماره والإصلاح يتناقل المؤرخون عنهم عبارة على سبيل التمثيل لحالهم وتصويرها للناس من بعدهم ، وأنهم كانوا يحبون العماره أشد حب ، ويرونها قوام الدين والملك ، ولا يقرون أحدا على الإخلال بها والتقصير فيها . قالوا : يروى أن بعض الأنبياء عليهم السلام قال : يارب لم آتيت الأكاسرة ما آتيتهم ؟ فأوحى إليه : (لأنهم عمروا بلادى حتى حاش فيها عبادى) .

(١) دمه غيب وقد دمروهم أى جاوهم على غزوة (٢) كان اسم جبل من الترك أو التتار

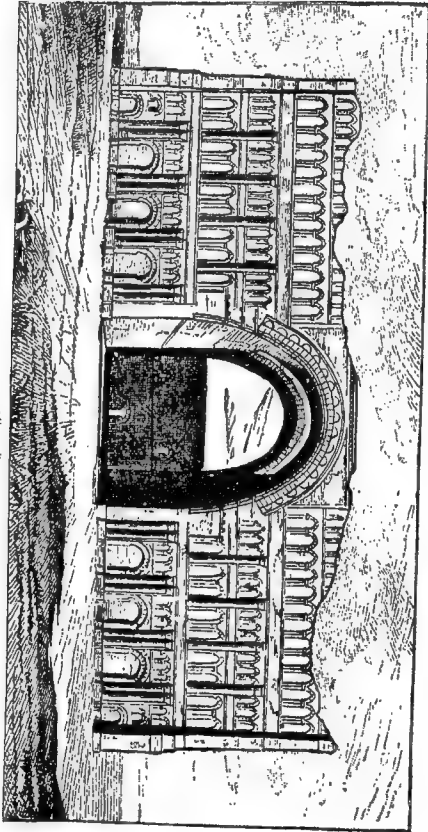
(٣) اليقاع المكان المرتفع وأعرف به على اليقاع أى رفعه وأنهضه .

وقد أنصفهم التاريخ فوق كلاً منهم ما يستحقه، وذكره بما هو أهل له، وسلط على الظالمين من انتقم منهم حتى جعلهم سلفاً ومثلاً للآخرين، وما كان ربك ليهلك القرى يظلم وأهلها مصلحون .

وكانت المدائن حاضرة ملكهم، ومحل عزهم ومجدهم، وقد كان كل واحد منهم إذا صار الأمر إليه بنى لنفسه مدينة إلى جنب التي قبلها وسمّاها باسم مخصوص حتى اجتمع من ذلك سبع مدن كبيرة يقرب بعضها من بعض، ثم غلب لفظ المدائن على واحدة عظيمة من تلك المدن وهي المشهورة الآن بهذا الاسم أو باسم «طيسفون» وكان يقال لها «رومية المدائن» وأما بقية المدن فكانت كأنها ضواحيها وتابعة لها وهي على نهر دجلة وتبعد عن مدينة بغداد جنوباً بنحو ستة فراسخ .

وقد جاء الإسلام وهذه المدينة حاضرة ملك الفرس وبها ذلك الإيوان المشهور الذي كان مقراً لأعظم الملوك وعرف القصر الذي فيه ذلك الإيوان بالقصر الأبيض قصر الأكاسرة وكان يعدّ من عجائب الدنيا وأحسن قصورها وأمنع مبانيها وأدملها على العظمة والفخار .

(١) الضاحية ما تحي عن المساكن وبعد عنها وكان بارزاً (٢) الإيوان بيت كبير مستطيل بأوله عقد ذو باب واسع ويقال فيه إيران وجمعه أون أو أوارين وقد يقال فيه لوان وبه تنطق العامة .
وعقود البناء طاقات معطوفة كالأبراب وبناء معقود ومعقد جعل عقوداً (ولول العقود ترادف كلمة براكي) .



القصر الأبيض

ويبلغ طول الإيوان نحو ١٠٠ ذراع وعرضه نحو ٥٠ ذراعاً وارتفاعه ٨٠ ذراعاً تحيط به أروقة كثيرة تزيد حسناً وبهاءً، وتخلع عليه عظمة وجلالا، ويبلغ من إحكام عمارته، وبديع صناعته، وعظيم متانتها، أنه لم يكن له مثل يضاهيه في أرض فارس كلها مع كثرة ما كان فيها من المباني الشاهقة، والقصور المشيدة، وقبلما نجد فيه موضعاً غفلاً من رسم أو نقش أو كتابة فكان نزهة للعيون، وقوة للنواظر، وشاهد لما اقتدر عليه الفرس في عصر الأكاسرة.

وقد كان ذلك الإيوان معداً لجلوس الملك مع أرباب مملكته وخاصته لتدبير ملكه فكانت دار ندوة الفرس أو مجلسهم النبأ^(٢).

وقيل إن مسجد السلطان حسن بالقاهرة بنى على شكل إيوان كسرى وقدره وصورته. واختلف المؤرخون فيمن بنى الإيوان وجهودهم يرجح أن بانيه كسرى أنوشروان. ويقال إن سابور بدأ بنيانه ومات قبل أن يتمه فلما آل الملك إلى كسرى أنوشروان^(٣) أتمه ورفع وأتمه حتى صار من عجائب الدنيا وزينتها ولهذا نسب الإيوان إليه وعرف لدى العالم به.

قال الشاعر يستحث عظيمي على قضاء حاجته ليستوجب شكره.
قلت لما رأيته في قصور * مشرفات الأركان والبنيان^(٤)
هيك كسرى كسرى الملوك أنوشر * وإن باني القصور والإيوان
أي شكر ترجوه متى إذا لم * تقض لي حاجتي ولم تعلم شاني

(١) جمع رواق وهو مقدم البيت أو سقف في مقدمه (٢) من ندا القوم ندوا اجتمعوا والندوة الجماع (٣) من ملوك الفرس المشهورين قبل كسرى أنوشروان (٤) عاليات مرتفعات.

ويقال إن كسرى لما أراد أن يبنى إيوانه كان بجواره دؤيرة لعجوز لا يكمل
تربيع الإيوان إلا بها، فعرض عليها الشراء فأبت أن تخرج عن دارها وقالت: لا أبيع
جوار الملك بملئها ذهباً ولا أنخرج عن جواره طائفة فإن غضبني إياها فهو قادر على
ذلك وشأنه وما يريد، فأعلم كسرى أمرها فقال: تترك الدار ويبني الإيوان فقليل له:
إنه لا ينجى مستحكم التربيع فقال: ليبن على ما اتفق فكان فيه شيء من العوج وربما
راه بعض الناقدین فقال: ما أحسن بناء هذا الإيوان لولا هذا العوج! فبدة عليهم
كسرى قائلاً: بهذا العوج استقام أمره وتم حسنه.

ويقول بعض مؤرخي الأجانب إن تلك الدؤيرة كانت يجانب حديقة القصر
لا في الإيوان وكلا الأمرين دليل على عدل هذا الملك وبعد نظره.

ويمكن أن ذلك الملك العادل طلق في وسط الإيوان جرساً متصلاً بطرفه سلسلة
من الذهب وطرفها الآخر خارج الإيوان حتى إذا قصد الملك أحد حرك السلسلة
فاستدعاه هو بنفسه ونظر في شأنه وأنصفه. وهذا هو الأصل في المثل العربي المنقول
عن الفارسي «حرك فلان على فلان السلسلة» إذا وثى به وكشف لمن يقدر عليه^(١)
عن حاله لأن كسرى كان قد أمر بأن كل من كان مظلوماً ينبغي له أن يأتي إلى قصره
فيحرك السلسلة ليعلم به الملك فيزيل ظلامته وينصفه ممن بنى عليه.

ولما جاء كسرى أبرويز «المنظفر» وسع الإيوان كثيراً، وعمر ما كان قد تهتم
منه، وجعله مقر سلطانه، وسرير ملكه، وفروش أرضه ببساط ثمين من الحرير
يبلغ طوله نحو ٦٠ ذراعاً في مثلها عرضاً.

(١) وثى به إلى الأمير ثم طيه وسى وثياً ووشاية.

وقد أبدع في تهوشه وزخرفته حتى كان سطحه يحكي بستانا ناضرا قد دبحه^(١)
الريبع بوشيه^(٢)، وخلق عليه حلة رائعة من نسجه^(٣)، فكان في حافات ذلك البساط ما هو
كالأرض المزروعة^(٤)، وما هو كالأرض المبقلة^(٥)، وكل هذا من الحرير الموشى بالذهب
والفضة^(٥)، والمطرز بالجواهر الثمينة .

وقد كانوا يعدّون هذا البساط للشتاء حين تذهب الرياحين فيدعوه الملك
في مجالس أنسه^(٦)، وحفل سروره^(٦)، فيكون به كانه في رياض غناء^(٧)، موشاة بالأزهار،
قد أخذت الأرض بها زخرفها وأزيت وأثبتت من كل زوج بهيج^(٨)، فكان ذلك البساط
في وسط هذا الإيوان حافلا ببديع الصناعة وعجيب النقش والتصوير بحيث تقفاد
محاسنه أنة العيون^(٩)، وتحسّر في روعته الظنون، وفوقه كسرى في خواص أهل مملكته
يأمر وينهى ويمطى ويمنع .

بساط ترى التيجان تهوى للثمة * فما هو إلا قبلة أو مقبل
إذا نشرت من نقشه لك صورة * بدا فوقها من كفه لك جدول

(١) الديج النقش ، ديج المطر الأرض يدبجها زينها بالرياحين ودبج النبت الأرض يدبجها
إذا سقاها فأثبتت أزهارا مخففة وهو من (الدياج) مربعة وممتاها ثوب منقوش سدها ولحمه إبريم
(٢) وشى الثوب دقعه ونقشه وحسه وزينه كوشاه (٣) حاة الشيء جانبه وناحيته وحافته الروادى جانباه
(٤) بقت الأرض وأبقت ظهور نباتها (٥) طرز الثوب أحله وحسه والطراز علم الثوب (مرب) (٦) الحفل
المجتمع (٧) كثيرة العشب تمر الريح فيها غير خافية الصوت لكثافة عشبها وغز الوادى يغز كثر هجره فهو
أغن ومؤنه غناء (٨) زخرف الشيء كال حسسه وزخرف الأرض أيضا ألوان نباتها (٩) حصر كفجر
وضرب أعيا وتسب .

وكذلك صَاقَ بِأَبْوَابِ الْإِيوَانِ وَشُرَفَاتِهِ سِتَارَ جَمِيلَةٍ مِنَ الْحَرِيرِ الْأَخْضَرِ مَرْمُوعَةٍ ^(٢)
بِالْيَاقُوتِ وَالذَّرَّ ، وَاتَّخَذَ فِيهِ مَوْضِعًا لِعَصَانَةِ الْجَوْاهِرِ الْكَرِيمَةِ وَالْحُلِيِّ النَّفِيسَةِ وَجَعَلَ
فِيهِ غُزْنَاً لِلْأَدْوِيَةِ وَالْمَوَادِّ الْعَطْرِِيَّةِ الْغَالِيَةِ .

هَذَا وَيُرْوَى ثَقَاتُ الْمُؤَرِّخِينَ مِنَ الْعَرَبِ أَنَّهُ فِي اللَّيْلَةِ الَّتِي وَلَدَ فِيهَا النَّبِيُّ صَلَّى اللَّهُ
عَلَيْهِ وَسَلَّمَ «فِي عَصْرِ كَسْرَى أَنْوَشِرَوَان» ارْتَجَسَ إِيوَانُ كَسْرَى وَانْشَقَّ شَقًّا بَيْنًا وَسَقَطَتْ
مِنْهُ أَرْبَعُ عَشْرَةِ شُرَافَةٍ فَهَالِ ذَلِكَ كَسْرَى وَأَفْزَعَهُ . وَرَبَّمَا كَانَ الْقَصْدُ مِنْ ذَلِكَ
هَذَا الْحَادِثُ الْعَظِيمِ الْإِشَارَةُ إِلَى بَعْثَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ ، وَالِدَلَالَةِ عَلَى أَنَّ
مَلِكَ فَارَسَ أَصْبَحَ عَلَى وَشَيْكَ الزَّوَالِ ، وَأَنَّ مَوْلَدَ النَّبِيِّ مُؤَذَّنٌ بِغَنَاءِ الْمَلِكِ الْكَسْرِيِّ ،
مَهْتَدٌ بِسُقُوطِ عَرْشِهِ وَتَدَاعَى بِنَاءُ عَرْزِهِ وَجَعْدَهُ ، وَأَنَّ مَلِكَ الْعَرَبِ سَمِعَ مَا كَانَ
لِلْفَرَسِ مِنْ مَجْدِ أَثِيلٍ وَعَظْمَةٍ سَالِفَةٍ ، فَكَتَفَى الْمُؤَرِّخُونَ عَنْ كُلِّ ذَلِكَ بَارْتِجَاسَ
الْإِيوَانِ وَسُقُوطِ بَعْضِ شُرَفَاتِهِ ، وَقَدْ صَدَّقَ الْحَدِيثُ ^(٣) وَلَمْ يُمْكِنَنَّ الشَّوَاهِدُ فَإِنَّ
الشَّرَافَاتِ الْأَرْبَعَ عَشْرَةَ دَلَّتْ عَلَى صِدْقِ الْمَوْلُوكِ الَّذِينَ مَلَكَوا بَعْدَ مَوْلَدِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ
وَسَلَّمَ ، فَمَلَكَ عَشْرَةٌ مِنْهُمْ فِي أَرْبَعِ سِنِينَ وَمَلَكَ الْآخَرُونَ الْمُدَّةَ الْبَاقِيَةَ وَكَانَ آخِرُهُمْ
«يَزْدَجَرْدُ» ، سَلَبَ اللَّهُ مَلِكَهُ وَزَوَّجَهُ مِنْ فَوْقِ سَرِيرِهِ فَضَاقَتْ عَلَيْهِ الْأَرْضُ بِمَا رَحِبَتْ
فَلَمْ يَزَلْ يَفْتَرِّقُ مِنْ مَدِينَةٍ إِلَى أُخْرَى حَتَّى لَحِقَتْهُ مُنَيَّبَتُهُ فِي سَنَةِ ٣١ هِجْرِيَّةً فِي خِلَافَةِ
سَيِّدِنَا عُمَانَ بْنِ عِفَّانَ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ .

(١) جَمْعُ شُرُوعٍ وَهِيَ مَا يُبْنَى عَلَى أَعْلَى الْحَائِطِ مِنَ الْقَمَرِ مُفَصَّلًا بَعْضُهُ عَنْ بَعْضٍ وَيُقَالُ فِيهَا
أَيْضًا شُرَافَةٌ (٢) حِمْلَةٌ مَزْدَانَةٌ (٣) ارْتَجَسَ الْبِنَاءُ رَجَفَ وَاضْطَرَبَ وَرَجَسَتْ السَّمَاءُ وَارْتَجَسَتْ
تَصَفَّتْ بِالزَّعْدِ (٤) تَدَاعَى الْبِنَاءُ أَرَادَ أَنْ يَقْبُضَ (٥) الْفَنُّ وَالْتَحَيْنُ وَالتَّوَهُمُ فِي مَعْنَى الْكَلَامِ وَالْأُمُورِ
وَفِعْلُهُ كَفَرَبَ .

ولا يبعد أن يكون ارتجاس الإيوان وسقوط تلك الشرفات في تلك الليلة أمراً حقيقياً لسبب طبيعي صادف حدوثه تلك الليلة الميمونة الطالع لإرهاصاً لنبوته صلى الله عليه وسلم .

وكم للطبيعة من عجائب والله في خلقه شؤون ، وله أن يكرم من شاء بما شاء . قال الإمام شرف الدين أبو عبد الله محمد بن سعيد البوصيري المصري في قصيدته الشهيرة المسماة بالبردة عند الكلام فيها على مولده صلى الله عليه وسلم .
وبات إيوان كسرى وهو منصع * كشمل أصحاب كسرى خير ملتئم
وقال في هذا المعنى أيضاً في قصيدته الحمزية .

وتداعى إيوان كسرى ولولا * آية منك ما تداعى البناء

ويقول أمير الشعراء أحمد بك شوقي في قصيدته التي نحا فيها نحو قصيدة البوصيري وسمّاها نهج البردة في مديحه صلى الله عليه وسلم .

سرت بشائر بالهادى ومولده * في الشرق والغرب مسرى النور في الظلم
تخطفت مهج الطافين من عرب * وطيرت أنفاس الباطين من عجم
ريعت لها شرف الإيوان فانصدعت * من صدمة الحق لا من صدمة القدم

يعنى أن شرفات الإيوان وهو مثوى سلطان الأكاسرة ، ومظهر سطوتهم وبأسهم ، ومقر عزهم ومجدهم ، قد ارتجت وهوت لم تعمل فيها المعاول ولم تهدمها القدم ولا غيرها من الأدوات الهادمة ، بل تداعت وسقطت من روعها وزعزع الحق الذي

(١) الإرهاص الاتيات وأرهص الشيء أثبته رأسه (٢) الصدع الشق في شيء صلب وانصدع وتعصدع انشق (٣) جمع مهجة وهى الروح ، الدم أودم القلب خاصة (٤) راعه أقرعه (٥) جمع قدم وهى آلة للنجر وجمع أيضاً على قدائم (٦) جمع معول الحديدية متقرباً الجبال ونحوها (٧) زعزعه حركة تحريكاً شديداً .

جاء به ذلك النبي الصادق بناء الباطل الذي كان عليه أهل ذلك الإيوان «بَلْ تَقِلُّفُ بِالْحَقِّ عَلَى الْبَاطِلِ فَيَدْمَغُهُ فَإِذَا هُوَ زَاهِقٌ» .^(١)^(٢)

فلما انتقل ملك فارس إلى كسرى أبرويز عمر ما تهتم منه وزاد فيه ما شاء أن يزيد حتى فتحت العرب بلاد الفرس والمدائن .

ثم تناولت الأيام القصر الأبيض وإيوانه وعُيِّنَتْ به أيدي الدهر حتى قَلَبَتْ معظمه رأسا على عقب ، وسمت بهجته ، وأزالت نصرته ، وأهوى عليه الزمان بمحول الفناء حتى لم يبق منه إلّا ما يشبه الأثر الدارس ، والرسم الطامس .^(٣)^(٤)
وأبدى البلى فيه سطورا مبينة * عابراتها أَنَّ كُلَّ بَيْتٍ سَيَذَرُ^(٥)

ذلك أَنَّهُ بَقِيَ قائما ما تلا إلى أيام الخليفة العباسي المكنى في حدود سنة ٢٩٠ هجرية فامر بنقصه وبني بشرافته قصرا فخما سماه قصر التاج وبني بأساسه شرفات ذلك القصر فكان ذلك الانقلاب الغريب عبرة للناس وموضع عجب وعظة لهم .

جاء الإسلام ودعا النبي صلى الله عليه وسلم كمرى إليه فصعد عنه ^{لترلم} هتوا وأصر على عناده واستكبر استكبارا ، فشنت الله ملكة وصرفه عنه ولم يبارك لخلفه من بعده فيه ؛ فلم يزل أمرهم في اختلال ، وملكهم في اعتلال ، حتى كان خاتمة ملوكهم «يَذَرُ جُذْءٌ» فاقترعت العرب منه الملك وانتظمت بلاد فارس في سلك المملكة العربية التي كانت

(١) دمه يدمغه بهجه حتى بلغت الشجة دماغه ودمغ الحق الباطل اذا علاه ونهزه (٢) زحق الباطل اضعل وزحق الشيء يطل وهلك (٣) درس الزم حفا وزال أثره ودرسه الريح وبابه نصريتهى ويلزم (٤) الطموس الدروس والاحياء وقد طمس الطريق من باب دخل وطمسه فيه من باب ضرب فهو معد ولازم (٥) ذر المكان وانذر حفا وذهبت معالمه والذات الهالك ويقول : فلان جده حائر وروحه دائر (٦) حفا هتوا ، وعيا استكبر وجاوز الحد .

واسعة الإتفاق، ممتدة الآفاق تُحَقِّقُ عليها أعلام العدل حتى هَرَمَ ملكهم بعد شبابه وأذن الدهر بانصرامه . « إِنْ اللَّهَ لَا يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ وَإِذَا أَرَادَ اللَّهُ بِقَوْمٍ سُوءًا فَلَا مَرَدَّ لَهُ وَمَا لَهُمْ مِنْ دُونِهِ مِنْ آلٍ » .

فُصِّحَتِ المَدَائِنُ فِي سَنَةِ ١٦ هَجْرِيَّةً فِي زَمَنِ الخَلِيفَةِ العَادِلِ سَيِّدِنَا عُمَرَ بْنِ الخَطَّابِ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ عَلَى يَدِ القَائِدِ العَظِيمِ، وَالْفَاتِحِ الشَّهِيرِ، سَيِّدِنَا سَعْدِ بْنِ أَبِي وَقَّاصٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ، وَتَمَّتْ لِلْعَرَبِ الْعَلْبَةُ عَلَيْهَا بِغِلَا مِنْ بَنِي مِنْ أَهْلِهَا عَنْهَا وَفَارَقُوهَا بِأَجْيَادٍ مُتَفَتَّةٍ، وَأَعْنَاقٍ لَهَا مَائِلَةٌ مُنْعَطِفَةٌ . وَزَلَّ سَعْدُ القَصْرِ الأَبْيَضِ وَاتَّخَذَ الإِيوَانَ مُصَلًّى وَجَعَلَهُ مَسْجِدًا وَنَصَبَ فِيهِ مِثْرًا فَكَانَ يَقِيمُ الصَّلَاةَ بِهِ وَفِيهِ التَّمَاثِيلُ لَمْ يَجِدْ فِي ذَلِكَ مِنْ حَرَجٍ .

وَكَانَتْ فِيهِ آثَارٌ جَلِيلَةٌ مِنْ صُورِ آلِهِ جَبَابِرَةٍ، وَسَبَاعِ ضَارِيَةٍ، وَمَشَاهِدِ حَزُوبٍ ظَافِرَةٍ كَانِ يَنْتَصِرُ فِيهَا كَسْرَى الْخَيْرَانُ شُرَوَانٌ وَقَدْ بَقِيَتْ هَذِهِ الْآثَارُ بَعْدَ الْفَتْحِ زَمَانًا . وَلَقَدْ أَفَاءَ اللَّهُ عَلَى الْمُسْلِمِينَ مِنْ مَدَائِنِ كَسْرَى غَنَائِمَ كَثِيرَةً وَذَخَائِرَ نَفِيسَةً، وَاسْتَوْلُوا عَلَى تَاجِ كَسْرَى وَثِيَابِهِ وَهِيَ مِنَ الدِّيَاجِ الْمَسْلُوجِ بِالذَّهَبِ الْمَنْظُومِ بِالْجَوَاهِرِ، وَجَمَعُوا كُلَّ مَا فِي القَصْرِ الأَبْيَضِ وَمَنَازِلِ كَسْرَى وَسَائِرِ الدُّوَرِ المَدَائِنِ مِنْ جَوَاهِرٍ ثَمِينَةٍ، وَأَحْجَارٍ كَرِيمَةٍ، وَأَنْيَةِ مِنْ ذَهَبٍ وَفِصَّةٍ، وَأَمْتَلَاثٍ أَيْدِيهِمْ مِنْ خِيَرَاتِ هَذَا الْفَتْحِ الَّذِي مَكَّنَ اللَّهُ بِهِ لِلْعَرَبِ مَا لَمْ يُمْكِّنْ لَغَيْرِهِمْ وَأَوْرَثَهُمْ أَرْضَ الْفَرَسِ وَدِيَارَهُمْ، وَأَصْغَاهُمْ بِأَمْوَالِهِمْ وَنَفَاسَ ذَخَائِرِهِمْ وَكُلَّ مَضْنُونٍ بِهِ مِنْ طَارِفِهِمْ وَتَالِدِهِمْ .

(١) أَفَاءَ اللَّهُ عَلَيْهِمُ الْغَنَائِمَ سَاقَاتِهَا إِلَيْهِمْ وَرَدَّهَا عَلَيْهِمْ (٢) أَصْبَغَاهُ بِكَذَا أَثَرَهُ وَاعْتَارَهُ عَلَى شَيْءٍ

(٣) الطَّرِيفُ وَالطَّارِفُ الْمَالَ الْمُسْتَحْدَثُ (٤) التَّالِدُ وَالتَّالِدُ مَا وَلَدَ خَلْقَهُ مِنْ نَازِلَةٍ أَوْ نَتِجَ وَتَلَدَ الْمَالَ

يَتَلَدُ تَلَوْدًا قَدَمَ وَالتَّالِدُ وَالتَّالِدُ كُلُّ مَالٍ قَدِيمٍ ضِدُّ الطَّارِفِ .

وكان من جملة ما وقع غنيمة في أيديهم ذلك البساط الثمين الذي لم تكن أعينهم قد رأت مثله ، ويقال إنهم قطعوه قطعاً واقتسموه بينهم فقال سيّدنا عليّ بن أبي طالب ^(١) قطعةً منه صغيرة باعها بثمانية آلاف دينار أو درهم أنفقها على المعوزين وذوى الحاجة .

وأما آنية القصر وزخارفه المنقولة وما كان فيه من المتاع الثمين والرياش ^(٢) الفاخر ونضائد الديباج وستور الحرير فقد ^(٣) فقدت بعد الفتح . وقيل إن الذي ^(٤) حُمل منها إلى بيت المال بلغت قيمته زهاء ألف ألف دينار من الذهب . ويقال إن ستر الإيوان أحرق فأخرج منه ما يقدره أقل المؤرخين بمائة ألف مثقال من الذهب .

ومهما يكن في هذه الروايات من الأخبار التي لا تخلو من غلو في التقدير فإنها تملّ على عظمة شأن المدائن والإيوان وعلى كثرة ما كان في القصر الأبيض الكسرى من الأثاث الثمين ، وعلى ما سيق إلى العرب من الخيرات والغنائم بذلك الفتح المبين . وهذه المغائم الكثيرة الثمينة التي تفتن النفوس وتطّي الأفئدة ^(٥) وتتطلع إليها العيون قد أوصلها الجيش العربي المحارب إلى سيّدنا عمر بالمدينة موفورة لم تمتد إلى شيء منها يد ، ولم تطعم فيه نفس ، وكان كلّ من ظفرت يده بشيء من تلك النفائس الثمينة أتى به إلى سجد كاملاً يصنّعه عنه الحياء والعفة والدين حتى مسيق إلى سيّدنا عمر من ذلك ما لا يقدر بثمن فقال عمر : إن أقواماً أدوا مثل هذا لدنوا أمانة . فقال

(١) المعوز الفقير لا شيء له . (٢) الرياش الأثاث والملابس الفاخرة (٣) جمع فضيدة وهي الوسادة

(٤) وما سوى من المتاع (٥) زهاء مائة وألف وعصروها أي قدره وحذره (٥) أطباء استماله وظلان لا يطيعه الله (٦) تامة كاملة .

له سيدنا علي بن أبي طالب : إِنَّكَ قَدْ عَقَقْتَ فَعَقَّتِ الرِّعْيَةُ . وروى عن سيدنا عمر أَنَّهُ لَمَّا رَأَى هَذِهِ الْغَنَائِمَ بَكَى فَقَالَ لَهُ سَيِّدُنَا عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ : « مَا يَبْكُكَ يَا أَمِيرَ الْمُؤْمِنِينَ فَوَاقَهُ إِنَّ هَذَا لِمَقَامٍ شَكَرَ » فَقَالَ لَهُ عُمَرُ : وَاللَّهِ مَا ذَاكَ يَكْنِيهِ وَتَاللَّهِ مَا أَعْطَى اللَّهُ هَذَا قَوْمًا إِلَّا تَحَاسَدُوا وَتَبَاغَضُوا وَتَبَاغَضُوا ^(١) إِلَّا كَانَ بِأَسْهَمٍ مِنْهُمْ شَدِيدًا .

ولمَّا أتَى سَيِّدُنَا عُمَرُ بِحَلَى كَسْرَى وَزِيَّهِ فِي الْمِبَاهَاةِ وَزِيَّهِ فِي غَيْرِ ذَلِكَ — وَكَانَ لِكَسْرَى عِدَّةٌ أَزْيَاءٌ لِكُلِّ حَالَةٍ زِيٍّ يَلْبَسُ لَهَا لِبُوسَهَا ^(٢) — قَالَ : عَلِيٌّ بِمَحَلِّهِ . وَكَانَ مُحَلِّمٌ هَذَا عَرَبِيًّا بَادِنًا بِلِ كَلْبٍ أَجْصَمَ صَرَبِيٍّ بِالْمَدِينَةِ ، فَالْبَسَ تَاجَ كَسْرَى وَصُهِبَتْ عَلَيْهِ أَوْشَعَتُهُ وَقِلَائِدُهُ وَثِيَابُهُ وَاجْلَسَ لِلنَّاسِ ، فَنَظَرُوا إِلَيْهِ عُمَرُ وَنَظَرُوا إِلَيْهِ النَّاسُ فَرَأَوْا أَمْرًا عَظِيمًا ^(٣) مِنْ أُمُورِ الدُّنْيَا وَمَا مَتَّعَ اللَّهُ بِهِ الْفَرَسَ مِنْ زَهْرَتِهَا وَزَيْلَتِهَا لِيَقْتَنِمَهُ فِيهِ . ثُمَّ خَلَعَ عَنْ مُحَلِّمٍ ذَلِكَ وَالْبَسَ الزِّيَّ الَّذِي يَلْبَسُهُ فَنَظَرُوا إِلَى مِثْلِ الْأَوَّلِ أَهْبَةً وَجَلَالًا . وَهَكَذَا ظَهَرَ لَهُمْ مُحَلِّمٌ فِي أَزْيَاءٍ مُخْتَلِفَةٍ حَتَّى أَتَى عَلَيْهَا كُلُّهَا . ثُمَّ الْبَسَهُ عُمَرُ سِلَاحَهُ وَقَلَدَهُ سَيْفَهُ فَنَظَرُوا إِلَيْهِ فِي ذَلِكَ . ثُمَّ وَضَعَهُ عَنْهُ وَقَالَ : إِنَّ أَقْوَامًا أَتَوْا مِثْلَ هَذَا لَنُذَوِّ أَمَانَةً .

ثُمَّ قَتَلَ عُمَرُ مُحَلِّمًا سَيْفَ كَسْرَى وَقَالَ : أَحَقُّ بِأَمْرِئٍ مِنَ الْمُسْلِمِينَ غَرَّتْهُ الدُّنْيَا ! هَلْ يَبْلُغُنَّ مَغْرُورٌ مِنْهَا إِلَّا دُونَ هَذَا أَوْ مِثْلَهُ ؟ وَمَا خَيْرُ أَمْرِئٍ مُسْلِمٍ سَبَقَهُ كَسْرَى فِيمَا يَضُرُّهُ وَلَا يَنْفَعُهُ ؟ إِنَّ كَسْرَى لَمْ يَزِدْ عَلَى أَنْ تَشَاغَلَ بِمَا أَوْقَى عَنْ آخِرَتِهِ بِجَمْعِ زُوجِ أَمْرَأَتِهِ أَوْ زُوجِ ابْنَتِهِ أَوْ أَمْرَأَةِ ابْنِهِ وَلَمْ يَقْدَمْ لِنَفْسِهِ . فَلْيَقْدَمْ أَمْرُؤٌ لِنَفْسِهِ وَيُضَعِ

(١) الْبَاسُ الْمَذَابُ وَالشَّدَّةُ فِي الْحَرْبِ (٢) اللَّبُوسُ مَا يَلْبَسُ (٣) جَمْعُ وَشَاحٍ ، هُوَ أَدِيمٌ مَرِيضٌ مَرَصَحٌ بِالْجَوْهَرِ شَدَّةُ الْمَرْأَةِ بَيْنَ عَاتِقَيْهَا وَكَشْحُهَا (جَانِبَيْهَا) (٤) قَتَلَ الشَّيْءَ وَقَتْلُهُ وَأَقْبَلَهُ وَهَبَهُ لَهُ وَأَعْطَاهُ إِيَّاهُ ، الْقَتْلُ الْهَبَةُ وَالْفَنِيَّةُ ، قَتَلَ الْأَمَامَ الْجَلَدَ جَعَلَ لَهُمْ مَا غَنَمُوا .

الفضول مواضعها تحصل له وإلا حصل للثلاثة من بعده وأحق بن جمع لم أولعق جارف^(١) .

وتذاكر سيدنا حذيفة بن اليمان الأنصاري وسيدنا سلمان الفارسي رضي الله عنهما أمر الدنيا فقال سلمان : ومن أعجب ما تذاكرنا صعود غنيات الغامدي سرير كسرى وهو أعرابي^(٢) من بني فامد كان يرى شويهاث له فإذا جن عليه الليل صيرها إلى فناء إيوان كسرى وكان فيه سرير من رخام فتصعد غنياته إلى ذلك السرير وكان كسرى كثيرا ما يجلس فوقه فسمعان من يرث الأرض ومن عليها وهو خير الوارثين .
إن المقادير إذا ساعدت * ألحقت العاجز بالقادر

ولما ملكت العرب ديار الفرس تزح إليها كثير منهم وسكنوا مدنها وأقام منهم بالمدائن من الجند والأهلين عدد جم . غير أنهم ما لبثوا أن استوطنوا سكنائها لأنها^(٣) ما كانت تلائم حياتهم البدوية فأمر سيدنا عمر في سنة ١٧ هجرية أن تحتط للجند مدينة الكوفة وأذن للناس في البناء بها فقلوا أبوابهم من المدائن إليها وعلقوها على ما بنوا واستوطنوا الكوفة وفارقوا المدائن فأخذت تضرتها في الذبول ، وشمس بهجتها في الأفول^(٤) ، وآثرت العرب عليها سكنى الكوفة والبصرة وانتقل الناس إليهما من سائر مدن العراق .

ثم اختط الحجاج في عهد بني أمية مدينة واسط فصارت دار الإمارة بالعراق فلما زال ملك بني أمية وابتنى المنصور مدينة بغداد انتقل الناس إليها وصارت هي

(١) جوف الشيء ذهب به كله (٢) استوخم البلد إذا وجدته غير موافق للسكنى فهو وخم ،
وخم البلد فهو وخيم مستويل ثقيل غير ملائم (٣) أقل الشيء أقلأ وأقولا من باى ضرب وقعد ظاب
ومع قيل أقل غلان عن البلد إذا ظاب عنه (٤) مدينة بالعراق بين البصرة والكوفة .

يجتمع الوافد، وكعبة القاصد، وحاضرة الخلافة العربية. ثم اختط الخليفة المعتصم مدينة «سُر من رأى» وأقام الخلفاء بها مدة ثم عادوا إلى مدينة بغداد. ولما شرع المنصور في بناء مدينة السلام «بغداد» أراد أن ينقض إيوان كسرى ويستعمل أنقاضه في بناء مدينته فاستشار وزيره خالد بن برمك في ذلك فنهاء عن تقضيه وقال يرغبه في حفظ هذا الأثر: يا أمير المؤمنين إنه آية الإسلام وإذا رآه الناس صلوا أت من هذا بناؤه لا يزيل أمره إلا الأنبياء وهو مع هذا مصلى على بن أبي طالب وغيره من أجلاء الصحابة فاتركه ما تلا يستدل به على اقتدار آباءك الذين سلبوا ملك أهل هذا الإيوان على أن المئونة في هدمه وتقضيه أكثر من الارتفاق به فاتهمه الخليفة في النصيحة. وقال: أخذته النمرة للفرس وأبى إلا التعصب لقومه، ثم شرع في هدمه فهلمت منه ثلثة^(١) وحمل إلى بغداد من أجرو قدر عظيم على بعد الشقة وعظم النفقة فلما رأى المنصور كثرة ما أنفقته على هدم ثلثة من الإيوان وكان المنصور حازما مدبرا مقتصدا وخشى أن يتركه العجز عن هدمه كله بعث إلى خالد يستشيريه في التجافي عن الهدم وقال له: يا خالد قد صرنا إلى رأيك فيه فقال له خالد: يا أمير المؤمنين قد كنت أرى ألا تهدمه فأتما إذ فعلت فإني أرى أن تستمر على ذلك لثلاث^(٢) يقال: عجز سلطان العرب عن هدم مصنع من مصانع العجم والهدم أيسر من البناء فعرفها له المنصور وأسرّها في نفسه ولم يقبل قوله وترك الإيوان على حاله وأقصر عن هدمه ولكن بعد أن قوّض جانباً من هذا الأثر بالجليل.

(١) ارتفق بالشيء انتفع به (٢) المراد بها العصبية لقومه والجليل الهم والغضب لم (٣) الثلثة في الحائط وغيره الخلل والشق وظلم الأتاء من باب ضرب كسره من حافه قاتلم وتسلم (٤) الأكبر اللين المصنوع من العايف وكان بناء الإيوان من الأكبر الأحمر العظيم (٥) السفر البعيد والطريق النازح (٦) المصانع الأبنية العظيمة من القصور والحصون ونحوها.

وكان الخليفة المأمون يقول : لقد حُبِّبَ إلى هذا الخبر ألا أبني إلا ببناء جليلا يصعب هدمه . هذا وقد رَجَّح بعض المؤرخين من الفرس أن الذى نخر به المنصور هو قصر آخر كان بمدينة طَيْسَفُون أيضا غير إيوان كسرى .

وفى سنة ١٥٨ هجرية أمر المنصور بمرمة ^(١) القصر الأبيض وأمر أن يُقَرَّم كل من وجد عنده شيء من الآجر الذى نقضه من بناء الأكاسرة وقال : هذا في المسامحة فلم يتم له ذلك ولا ما أمر من مرمة القصر .
إذ الزمان إذا أنحى ^(٢) على بلد * لم تُفْنِ عنه مراعاة ولا حرس

ولما مات الخليفة المعتضد بالله العباسي سنة ٢٩٨ وتولى الخلافة ابنه المكتفي بالله أتم عمارة القصر المسمى قصر التاج الذى كان أبوه قد شرع في بناءه ووضع أساسه فنقض بعض جدران القصر الأبيض فكان الآجر ينقض من شرف القصر الكسرى وحيطانه فيوضع في أساس قصر التاج . ثم حمل ما كان منه في أساس قصور كسرى فبنى به أعلى التاج وشرفاته وفى هذا يقول بعض من تولى عمارته :
إذ فيما نراه لمعتبرا نقضنا شرفات القصر الأبيض فوضعناها في أساس قصر التاج ، ونقضنا أساسه فجعلناه شرفات قصر آخر فسبحان من بيده كل شيء حتى الآجر .
هذا ولم يزل شأن المدائن يتناقص حتى كان هذا الاسم في أواخر عصر الدولة العباسية يطلق على بلدة شبيحة بالقروية يشتغل أهلها بالفلاحة .

وبهذه المدينة قرب الإيوان قبر سيدنا سلمان الفارسي رضى الله عنه وكان سعد ابن أبي وقاص قد نصبه حاكما عليها بعد الفتح فبقى بها إلى أن مات .

(١) دم البناء ويجوه به وبا ومرمة أصله (٢) غنية (٣) أنحى عليه خربا وطوما أى أبل

وبهذه المدينة أيضا دفن سيدنا حذيفة بن اليمان الأنصاري المتوفى سنة ٣٦ هجرية .

أما الإيوان لما زالت السنون والحوادث تال منه فتغير من معالمه وتحتون^(١) من محاسنه حتى أتى عليه حين من الدهر كان معهدا للأوكار التي تأوى إليها طيور الخراب ، ونفق في ساحاته بعد العز البوم والغراب .

وعهدى به والسعد في جنباته * وثر نعم الخفض بيدي تبسما^(٢)

ثم أسلمته يد الحدثان والإهمال إلى عبث المفسدين من الناس والزمان حتى لم يبق منه سوى وجه البناء الأمامي كأنه من الجلد العائر^(٣) ، طلل دائر^(٤) ، تعرفه العين ثم تكره وتبته النفس ثم تنفيه .

كأن ارتجاس الريح في جنباته * إذاعة شكوى أو سرار تعائب

ومع هذا يرى الناظر إليه من خلال بنائه المتصدع أثر المجد القديم ويتفرس فيه سمة العزة الكسروية وينطق بلسان الحال أنه كان من الهياكل الملكية التي يدل باقيا على أصلها ويعبر شاهدها عن غائبا .

وكأن الدهر أبى هذا الرسم القليل من ذلك الأثر الجليل ليكون عبرة ناطقة بتقلب الأيام وأنها لا ينجو منها بنيان مشيد ولا ملك موطن مؤيد^(٥) ، فكم أزلت على حكمها من ظلت حيننا نازلة على حكمه ، وأزالت ملكا لم تبق منه سوى رسمه .

(١) تنقص ، تحزن فلان حتى إذا تنقصه كأنه خانه شيئا فشيئا وكل ما غير الشيء عن حاله فقد تحزنه

(٢) جمع جنة بمعنى ناحية مثل جنب وجانب (٣) الخفض الدعة والسعة والراحة وخفض عيشه مهل

رومى . وفلان في خفض من العيش ، ذو عيش خافض (٤) حدثان الدهر أحداثه وصروفه (٥) الجدل الخلف

والبخت وجد حائر وحزور من عز يثر إذا زل وسقط (٦) الطلل ما شمس من آثار الدار (٧) الهيكل

البناء العظيم (٨) وطن الشيء أثبته وعز أو ملك موطن ومولد ووطد أى ثابت ومنه الوطادة أى

الدعامة والاسطوانة .

وإن من ينعم النظر إلى هذا الجزء الباقي من الإيوان تتجلى أمامه العبة ماثلة وترجع^(١)
به الذكرى إلى قوة بانيه ، وعظمة من كان يؤويه ، ثم تتفجر من عيونه العبرات ،
وترسم على مجاه أمارات التأسف والحسرات ، ويقف أمامه وقفة الخاشع الخائر ،
ملشدا قول الشاعر •

يا من يقيه بشاهق البنيان * أنسيت صنع الدهر بالإيوان^(٢)

كتب الزمان على ثراه أسطرا * بيد البلى وأنامل الحداث

إن الحوادث والخطوب إذا سطت * أودت بكل موتي الأركان^(٣)

ولقد كان أهله بدور جموع ، وجمال مجالس وربوع . فصارت منازلهم معتصر
الدموع ، جرت بها الرياح أذيالها ، وحطت بها الغيوث أثقالها ، وسلبتها الأيام جمالها ،
واتترعت عظمها وجلالها •

منازل لم تنظر بها العين نفرة * فتطلع إلا من دموع هواطيل^(٤)

فكم آنس بذكر من بنافر * وحالى الشوى بذكر من بعاطيل^(٥)

هذا وأحسن ما ورد في وصف إيوان كسرى قصيدة البحتري السبئية المشهورة
لأنه كان حين يصفه ملائح الجوانح مقيم القلب من إحساس مستغرق قد استولى

(١) العبة اسم من الاخبار بمعنى الاتعاط والعبرة أيضا العجب واعتبر منه تصب (٢) جمع صرة
وهى الدعة وعبر مرأ واستعبر جرت صرته وحن ، (٣) التيه الصلف والكبر والاعجاب تاه يقيه تكبر
(٤) أودى به أهلكه وأودى الرجل هلك (٥) محكم ثابت (٦) الربع المنزل (٧) جمع هاطل
وعطل المطر والسمع اذا تسامع صيحه وجريانه (٨) من معانى الشوى اليبسان والرحلان والأطراف
والحالى منه العاطل وحلت المرأة فهى حال إذا كانت ذات حل (٩) الجوانح الأضلاع التى تحت
الترائب وهى مما على الصدر كالضلوع مما على الظهر ومفرده جانحة •

(١) على نفسه ، وملك كل شعوره وحسّه ، فانطلق لسانه بما يحول في صدره ، ويحس في خاطره ، حتى إنك ترى روحه يرف على كل بيت ، وتحس أنفاسه متصاعدة من كل لفظ ، وتشعر بما كان يتردد في نفسه من التأثر والعبء ، وما للشعر إلا مرآة القلب يطلعك على خطراته ، ومظهر من مظاهر النفس يتجلى لك فيه ما تشعر به ، بل هو صورة تمثل لك ما ارتسم على لوح الصدر ، وانتش فوق صحيفة الذهن ، ومثال ما ظهر لعالم

الحس ، وبذلشهد المشاعر . قال البحتري من قصيدة طويلة مطلعها :

صُنْتُ نَفْسِي عَمَّا يَدُنْ نَفْسِي * وَتَوَقَّعْتُ مِنْ جَدَا كُلِّ جَيْشٍ ^(٢) ^(٤)

حَضَرْتُ رَحْلَ الْمَعْمُومِ فَوَجَّهْتُ * إِلَى أُنْيُسِ الْمَدَائِنِ قَلْبِي ^(٥) ^(٦) ^(٧)

أَتَمَّلْتُ مِنَ الْخُطُوبِ وَأَتَنَّى * لِمَحَلِّ مِنْ آلِ سَاسَانَ دَرَسِ ^(٨) ^(٩) ^(١٠)

ذَكَرْتُ لَهُمُ الْخُطُوبَ التَّوَالِي * وَلَقَدْ تُذَكِّرُ الْخُطُوبُ وَنَفْسِي ^(١١) ^(١٢) ^(١٣)

وَهُمْ خَافِضُونَ فِي ظِلِّ عَالِي * مُشْرِفٍ يَحْمِرُ الْعَيُونَ وَيُحْمِي ^(١٤)

(١) يتحرك وجاش البحر بالموج وجاش صدر فلان بالدل والحدق (٢) يتحرك ويخطر ويقول دخلت عليه فرفق ل ريفنا إذا هش لك وأهز ارتبسا ودف غزادي لحديته ودف حجابيه اغتاج وما زالت حتى ترف حتى رأيتك (٣) الجدا اللطاء كالجدوى وفعله جدا عليه يجدر ، أجدى يجدي (٤) الجيش الجاسد الثقيل الروح والجنان والقيم والدفع (٥) رجل الرجل مثله وماواه (٦) يريد بأبيض المدائن القصر الأبيض الذي بناه كسرى في المدائن وفيه الايوان (٧) العنس الناقة الصلبة الشديدة (٨) أسيت عليه أمي حزن والأسوة القدوة وما يأتي به الحزين (٩) آل ساسان هم الفرس (١٠) الفرس الطريق الخفي الدارس والثوب الخلق (١١) جمع قال أى التي يتسلو بعضها بعضا متتابعة لا تنقطع (١٢) حمر البصر يحمر حصورا كل واقطع من طول مدى فهو حمر وحسود وحمر كضرب وفرح أعيا كاستحمر وأحمره أتمه وأهياه وحمر كضرب يستعمل متعديا تقول حمر طول النظر حمره حمره بالكم لا يكون إلا لازما ١٧٤ تخفف من يحسب بالهز أى يضمف و بكل وعضا البصر كل رأيا (ينقلب اليك البصر خاسئا وهو حسير) .

حَلَّ لَمْ تَكُنْ كَأَطْلَالٍ سُدِّدِي * فِي فِصَالٍ مِنَ الْبَسَائِسِ مُسْ^(٢)
 نَقْلَ الدَّهْرِ عَهْدَهُنَّ عَنِ الْحَدِّ * قَ حَتَّى غَدُونَ أَفْضَاءَ لَيْسَ^(٣)
 فَكَأَنَّ الْحُرْمَازِينَ مَدَمَ الْأَنْد * مِنَ وَإِخْلَاقِهِ بَلِيَّةَ رَمَسِ^(٤)
 لَوْ تَرَاهُ عَلِمْتَ أَنَّ الْبَلِيَّالِي * جَعَلَتْ فِيهِ مَا تَمَّا بَعْدَ عَرَسِ^(٥)
 وَهُوَ يُنَبِّئُكَ عَنْ عَجَائِبِ قَوْمِ * لَا يَنْشَابُ الْبَيَانُ فِيهِمْ يَلْبَسِ^(٦)
 فَإِذَا مَا رَأَيْتَ صُورَةَ أَنْطَا * كَيْفَ ارْتَمَتْ بَيْنَ رُومٍ وَفُرْسِ^(٧)
 وَالْمَنْشَا وَمَوَائِلَ وَأَنْوَشِرِ * وَأَنْ يَزِيحَ الصَّفُوفُ تَحْتَ الدَّرَاسِ^(٨)
 فِي اخْضِرَارٍ مِنَ الْبَلْبَاسِ عَلَى أَحْمَرِ * فَرِ يَخْتَالُ فِي صَدِيفَةِ وَرْسِ^(٩)
 وَعِزَّائِكَ الرِّجَالِ بَيْنَ يَدَيْهِ * فِي خُفُوفٍ مِنْهُمْ وَأَغْمَاضِ جَوْسِ^(١٠)
 مِنْ مُشِيحٍ يَهْوِي بِعَامِلٍ رَمَحِ * وَمُلِيحٍ مِنَ السَّنَانِ يَتَرَسِ^(١١)
 تَصِفُ الْعَيْنُ أَنْتَهُمْ جَدُّ أَحْيَا * لَمْ يَنْهَمِ لِمَاشَاةِ تُعَرَسِ^(١٢)
 يَفْتَلِي فِيهِمْ أَرْتِيَابِي حَتَّى * تَقْرَاهُمْ يَدَايَ يَلْبَسِ^(١٣)

(١) جمع حلة وهي البيوت يحمل بها أهلها (٢) البسيس الغفر الخالي وباس جمع أمس أي
 لا نبات به ولا ماء (٣) الجدة مصدر جد الشيء عند قدم (٤) جمع فضومعناه هنا الثوب الذي أخلقته
 كثرة الاستعمال (٥) اللبس بالضم المصدر والكسر ما يلبس (٦) الاوان (٧) مصدر أخلق وهو
 مثل خلق الثوب وغيره بل (٨) تصغير بقة بمعنى بناء (٩) قبر (١٠) اختلاط واشتباة واللباس
 (١١) يدفع ويسوق (١٢) العلم الكبير (١٣) الورس نبات يصنع به فيكون لونه إلى حمرة ومقررة
 (١٤) مسكون الصوت وإساراه (١٥) اغفاء وعدم وضوح (١٦) الجرس الصوت (١٧) المشيح الحار
 الجاف في الأمور والمقبل عليك والملاح لما وراء ظهره وطامل مشيح جاد مواظب على عمله (١٨) يسقط
 ويقض ويقبل (١٩) حامل الرمح ما يلى السنان منه (٢٠) ألحح بسيفه لمح به ولقح (٢١) يتلألأ
 ويجاوز الحد ويسرع (٢٢) تقرأ الشيء قصده وتقبه •

وَكَاثَ الْإِيوَانِ مِنْ تَجَبِّ الصَّنَةِ * مَةِ جَوْبٍ فِي جَنْبِ أَرْضِ جَلَسٍ ^(١) ^(٢) ^(٣)
يُتَظَنَّى مِنَ الْكَابَةِ أَنْ يَرَى * لَوْ لَعِينِي مَصْبَحٌ أَوْ مُمْسَى ^(٤)
عَكَسَتْ حَقْلَهُ اللَّيَالِي وَبَاتَ الْ * مَشْتَرَى فِيهِ وَهُوَ كَوَكَبٍ نَحِيسٍ
فَهُوَ يَبْدَى تَجَلُّدًا وَعَلَيْهِ * كَلْكَلٍ مِنْ كَلَاكِلِ الدَّهْرِ مُرَبِّى ^(٥) ^(٦)
لَمْ يَعْصِهِ أَنْ بَزِينَ بِسَطِ الدِّيدِ * بَاجٍ وَاسْتَلَّ مِنْ سَتُورِ الدَّمَقِيسِ ^(٧) ^(٨)
مَشْمُوحٌ تَعْلُو لَهُ شُرَفَاتُ * رَفَعَتْ فِي رَعْوِ رَضْوَى وَقُدْسِ ^(٩) ^(١٠) ^(١١)
لَا بَسَاتٍ مِنَ الْبَيَاضِ لَسَاتِ * حَرٍّ مِنْهَا إِلَّا غَلَاظِلُ رُيُوسِ ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤)
لَيْسَ يَدْرَى أَصْنَعُ أُنَيْسٍ يَلْحَنُ * سَكَنُوهُ أَمْ صَنَعُ جَنَّ لِأُنَيْسِ
غَيْرَ أَنِّي أَرَاهُ يَشْهَدُ أَنْ لَمْ * يَكْ بَانِيهِ فِي الْمُلُوكِ يَنْكِيسِ ^(١٥)
فَكَأَنِّي أَرَى الْمَرَاتِبَ وَالْقُوسَ * مَ إِذَا مَا بَلَنْتَ آخِرَ حُسْنِ

(١) الجيوب القرفى الجبل والصخر ونحوه والخرق والقطع والجوية المحفرة والمكان الوطى.
في جلد (٢) الأرض الجبل ذو الرعن وهو أخف يتقدم الجبل ويجبل أرض ذو رطاب طوال
(٣) المجلس الفليظ من الأرض والوثيق الصلب المتين والجبل العالي (يريد أن الإيوان من حبيب صنعه
واحكامه ووثيق بناه واتقانه كأنه قرفى جبل عظيم (٤) يظن وأصله يتظن (٥) الصدر وكلكل القوس
ما بين حمزته إلى ما مس الأرض منه إذا رضى وألقى عليه الدهر كله فقل طبه بوطأته واشتد (٦) رسا أرضى
رسوا ورسوا وثبت (٧) البز الزرع وأخذ الشيء بجفاه وقهر وبز الشيء سلبه كاهزه وبز من ثيابه وأهزه
بترد منها (٨) الأبريسم والديباج والقرز (٩) حال مرتفع (١٠) جبل بالمدينة (١١) جبل عظيم بجبل
(١٢) جمع غلالة وهى شعار يلبس تحت الثوب (١٣) القطن أو شبيه به (١٤) الكس الضعيف والمقصود
من غاية الكرم والعدل

وَكَاثُ الْوَفُودِ ضَاحِكِينَ حَسْرَى * مِنْ وَقُوفٍ خَلْفَ الزَّحَامِ وَخُسَى ^(١) ^(٢)
وَكَاثُ الْقِيَانِ وَسُطُ الْمَقَاصِي * يَرْجِعُونَ بَيْنَ حَقٍّ ^(٣) ^(٤) ^(٥) ^(٦) ^(٧) ^(٨) وَلُغْسٍ
وَكَاثُ الْلِقَاءِ أَوَّلَ مِنْ أَمٍّ * يَسِ وَوَشَكُ الْفِرَاقِ أَوَّلَ أَمِسٍ
عَمِرَتْ لِلسُّرُورِ دَهْرًا فَصَارَتْ * لِلتَّعْزَى رِبَاعَهُمْ ^(٩) ^(١٠) ^(١١) وَالتَّأَسَّى
فَلَهَا أَنْتَ أُعِينَهَا بِدُمُوعٍ * مُوقَفَاتٍ عَلَى الْعَبَابَةِ ^(١٢) ^(١٣) حَسِيسٍ
ذَاكَ عِنْدِي وَلَيْسَتْ الدَّارُ دَارِي * بِاقْتِرَابٍ مِنْهَا وَلَا الْجُلُوسُ جُلُوسِي
غَيْرَ نَعْمَى لِأَهْلِهَا عِنْدَ أَهْلِي * قَرَّ سِوَا مِنْ زَكَاتِهَا ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦) غَيْرَ غَرَسِ
وَطَنُوهَا مَلَكًا وَشَتُّوهَا بِنَاءً * بِكُجَاةٍ ^(١٧) ^(١٨) تَحْتَ السَّنُورِ ^(١٩) حُسْنِ
وَأَعَانُوا عَلَى كِتَابِ أَرِيَا * طَّ بَضْرِبِ تَحْتَ النُّحُورِ ^(٢٠) ^(٢١) وَدَعِيسٍ
وَأَرَانِي مِنْ بَعْدِ أَكْلَفٍ بِالْأَشْءِ * رَافٍ طُرًّا مِنْ كُلِّ سِنَخٍ ^(٢٢) ^(٢٣) وَجُنِسِ

(١) ضاحكوا وضحوا وضحيا يمزق الشمس وكسى ورضى أصابته الشمس فهو ضاح (٢) جمع
حسبر من حسر كضرب وفرح أحياء وتمب (٣) خنس عنه يخنس خنسا وخنوسا تأخر واختفى وأخنس خلفه
ومضى عنه وزواه (٤) جمع قبة وهي الأكمة المغنية هنا (٥) مقصورة الدار الحجرية منها (٦) ترجيع الصوت
ترديده وتكريره (٧) جمع حواء مؤنث أخرى من الحوة وهي حرة تضرب إلى السواد ومرة الشفة مشربة
مرة (٨) اللبس لون الشفة إذا كانت حمرتها تضرب إلى السواد قليلا وهم يستلمونه وبابه طرب يقال
شفة وامرأة لسان وجهه لسان (٩) وشك الين والفراق سرعه (١٠) رفة الشوق وحرارة (١١) الحبس
ما حبس على الشيء ووقف ويجوز أن يكون مخففا من حبس جمع حبس بمعنى محبوس وموقوف (١٢) جمع
كفى وهو الشجاع يتكى في سلاحه أى يتغطى ويستتر (١٣) جملة السلاح أو كل سلاح من حديد (١٤) جمع
أحمس وأحمس كفتح اشتد وصحب في القتال فهو حمس وأحمس والحماسة الشجاعة والأحمس والحمس
والحمس الشجاع (١٥) جمع كتيبة وهي الجيش (١٦) أرباط هو ملك الحبشة الذى غزا الكعبة يشير إلى
قصد الحبشة مكة لغزوها واستنصار العرب للفرس فأمدتهم كبرى بجيش حتى ودوا الحبشة (١٧) الدعس
العلن الشديد ورجل مدعس ودعوس طمان مقدام (١٨) كلف به كفتح أرفع (١٩) السنخ الأصل .

لئن فانتا رسم الإيوان في أول عهده، وعزّ علينا أن نرى صوربه في عصر البصريّ
حين كان طليقا من أيدي المنصور ومحروسا من أيدي المغيرين لقد ظفرنا من هذه
الآيات الأبيات بصورة لا يعوز المفكر الذي يطيل تأمله فيها، ويدقق في فهم معانيها،
أن يرى صورة الإيوان مرقومة ببيان أبلغ شاعر، فكانها مرسومة ببتان مصوّر ماهر،
قد حفظها الأوائل للأوامر.

نزه الدنيا وشعب بوان

كان المتقدمون يعدّون نزه الدنيا وجنّاتها أربعة وهي : غوطة دمشق ونهر الأبلّة
وصُغد سمرقند وشعب بوان . ويضربون بكلّ منها المثل في الحسن والطيب
وجمال المنظر . وقال أبو بكر الخوارزمي : قد رأيتها كلّها فكانت غوطة دمشق
أطيبها وأحسنها ولم أميز بين رياضها المنزوعة بالأزهار والأزهار ، وغدرانها المغمورة
بطيور المساء التي هي أحسن من الداريج والطواويس .

والغوطة معناها الكورة أي الناحية التي قصبتها مدينة دمشق وتشتمل على عدة
قرى مشبكة الأشجار ، متدفقة الأنهار ، متجاوبة الأطيّار .

وأما نهر الأبلّة فهو بالبصرة وحواليه ميادين النخل والأترج والتارج وسائر الأشجار
وقد كان في هذه البقعة من أصناف الزرع وأنواع الخضّر ما لا ينظر أحسن منه
وطيبها من القصور المتناظرة، والأبنية الرائعة، ما تحار فيه العيون، وتهش له النفوس .

(١) جمع دراج واحد دراجة (٢) راحه الشيء أحبه لحسه ومظرو راح يروح الرأى بحاله

(٣) هش له وبه هش هشاشة إذا خف إليه وشربه وأرتاح له ودخل هش هش لك إخوانه وقلان

ذو هشاش إلى الخير . وزدته فاهزّ لي واهتش بي .

وفي نهر الأبلّة يقول الشاعر «محمد بن أبي عُمَيْنة» .

ويا حَبَسْنا نهر الأبلّة منظرا * إذا مد في أشائه الماء أو جَرَّ

والأبلّة مدينة صغيرة قرب البصرة كانت حَسنة طامرة طيبة البقعة نظرة الأنهار
جارية الأنهار .

وأما صِغْد مِمْرَقَنْد فكان أحسن ما وصف به قول قُتَيْبَةَ بن مُسْلِم الباهلي^(٢) :

كأنه السماء في الخضره ، وكأن قصوره النجوم الزاهرة ، وكأن أنهاره المعجزة^(٣) .

وقد كان منزهًا ناضرا ذا أنهار جارية ، وبساتين زُرْهه ، وأما كن مثمرة .

وأما شعب بَوَان فهو بالقرب من مدينة شيراز التي كان الفرس يتغزلون في هوائها
ويترنمون بذكرها ولا سيما إذا أقبل فصل الربيع شباب الزمان . وقد عرفت العرب
لما مكاتبتها فعنيت بها ، وذلك أنها ظلت قبل الفتح عرضة لاختلاف الأيام وصروفها
متزدة بين الحياة والموت إلى أن جاء زمن الخليفة الأموي عبد الملك بن مروان
فسمت رائحة العمران وأخذت تسير في طريق التقدم والحضارة . وفي عصر الدولة
العباسية وحين قبض بنو بُوَيْه على ناصية الخلافة كانت مدينة شيراز من أرقى مدن
فارس روقا وبهاء ، وأكثرها عمارة وسكّانا ، وأصبحت مزارا لكل قاصد ، وزُرْهه
لكل راجب ، يفسد إليها الناس من كل صوب^(٤) ، ويتسلسلون إليها من كل حدب^(٥)
لكثرة خيراتها ، وطيب جانبها .

(١) جزر الماء من بابي ضرب وقتل انحصر وهو دجوه الى الخلف ومه الجزيرة لانحصار الماء ضبا

(٢) هو الذي فتح ميمرقند وهذه الجهات وكان أميراً عليها في عصر بني أمية (٣) ما يرى في البناء كأنه
طريق مستطيل يشبه آثار المجر وقد سماها العامة «سكة التابة» (٤) جهة (٥) نسل الماشي ينسل نسلا
ونسلا نا أصرع كايئسل ريش الطائر (٦) الحدب ما ارتفع من الأرض وجمعه حداب .

وفي تلك الأيام كانت شهرة شعب بؤان قد طبقت^(١) الخافقين^(٢) ولهب الشعراء بذكره،
وأولعوا بقصده ، فإن منظره مما يجد فيه الشاعر راحة ويمددا لشعره إذ يوحى إلى نفسه
ما يفتق^(٣) اللسان ، ويحيد^(٤) الذهن ، ويخلو صبدأ النفس ، ويذكر^(٥) نار القريحة . بل إنه ليطاق
اللسان من المقال ، وينطقه بفصيح المقال ، لما به من حداثي غناء ، واسعة الأرجاء ،
فسحة الإنشاء ، تحار فيها الأبصار ، وتقصر عن وصفها الأفكار .

يقع ذلك الشعب بالقرب من هذه المدينة في بقعة خضرة الجنان ، ملتفة الأغصان ،
لا تكاد الشمس تقع على كثير من أرضها ، لكثرة أشجارها المتكاثفة ، وأغصانها المتهدلة^(٦) .
سما غصون تحجب الشمس أن ترى * على الأرض ألا مثل ثمر الدراهم
قد ألحقتها^(٧) الأشجار ظلها ، وبجاست^(٨) الأنهار خلالها .

تقنعها^(٩) الرياض بكل نور * وتضحكها مطالع كل شمس
كثيرة المياه نضرة^(١٠) الأشجار ، متجاوبة الأطياف ، مؤنقة الرياض والأزهار .
كساها من الأنوار أبيض ناصع * وأصفر فقاع^(١١) وأحمر ساطع

(١) طبق عم (٢) المشرق والمغرب (٣) يقال رجل فتق اللسان أى حديد اللسان (٤) يشعل
ومع الذكاء وهو حدة القلب وسرعة الفهم (٥) الكثيرة المترابطة المتلفة وكثف الشيء كثر مع الالتفاف
(٦) تهذلت أغصان الشجرة تدلت وهزل الشيء يهزل إلى أسفل وأرذاه وهذال ما تهذل من
الأغصان (٧) غطتها بها وجعلتها لها كالحفاف والصحف بالشيء تغطي به (٨) جاس خلال النهار تحتها
ودار فيها « ويستعمل كثيرا في البيت والفساد » (٩) تنظيها به ويجعله لها كالقناع يقع به الرأس وهو مقنع
بالسلاح مستتر به وقنع عمله غزيا وطارا غلاه بها وغشه فيها (١٠) أحمر فاقع وقناع شديد الصفرة
وقد قنع لونه من باب خضع ودخل .

قد اخضرت منها التلاع^(١) والوهاد^(٢) ، وألهمها الربيع حيرة تحسدها عليها البلاد ،
إذا فازلت ريح الشمال رياضها * عقيب مداها خلتها جنة الخلد
تجرى بالماء الزلال أنهارها ، وتفوح كالسك أزهارها .
يجرى اللسيم بغصنها وغديرها * فيهب ريح أو يسئل مهند^(٥)
فلا تبصر العين فيها إلا ماء وخضرة ، وبهاء ونصرة ، وشجرا ألى ظل وأرفه^(٦) ،
وأغصانا متهدلة متكاثفة ، وحدائق ذات بهجة ، وجنات تسعش المهجة ، قد اشتبكت
أغصانها ، واحتفت أفتانها^(٨) .

نثر الغيث در دمع عليها * فتحت بمثل در العقود

ومياها فضية الأديم ، علية اللسيم .
تظن بها ذوب الجين^(٩) فإن بدت * لها الشمس أجت فوقها ذوب عسجد^(١٠)
وطيورا تغدو وتروح ، في الفضاء الفسيح ، بين الماء ، ورقيق الهواء . مغردة
بالحان ، من دونها عزف^(١١) القيان ، يقطعها الإنسان أن كانت لها تلك البقعة سكا ،
وصارت لها مقاما ووطنا .

-
- (١) جمع تلة ما ارتفع من الأرض وقد يطلق على ما المنخفض من الأرض أيضا فهو من الأضداد
(٢) جمع ودة وهو المكان المظلم المنخفض (٣) البرد الموشى والثوب الجديد (٤) ماء زلال
سريع المرور في الحلق بارد عذب صاف سهل سلس (٥) السيف المنسوب إلى الهشد (٦) ظل ألى
كثيف وشجر ألى كثيف الظل وأصل الى ممرة في الشفة (٧) ظل وأرف متسع طويل تمتد وضعه
ورف يرف كوعد رفا ووريف ووروا (٨) جمع فن وهو الفن (٩) القضة (١٠) ذهب
(١١) عزف كضرب غنى والمعازف الملاهي كالعود والطنبور واحدا معزف أو معزقة والمعازف الاصب
بها والغنى .

فإذا احتدم حرّ الهبّاج^(١) أوى القائل منها إلى أطيب مقي^(٢) ، والتجأ من جنانها
إلى ظلّ ظليل ، فطابت نفسه بتلك الخمائل^(٣) الرائقة التي كانت الأيام تزدها جدة^(٤)
ونضارة ، وتلبسها من الخضرة حلة مطارة .

تصدت الشمس^(٥) إاقى واجهته * فتحجبها وتأذن للنسيم
ومتع الطرف بأحسن مناظر الطبيعة وأبهاها من ماء قد جرت بين الأعشاب
أراقه^(٦) ، وروض قد أجاد وشبه راقه^(٧) .

تجلبب الريح منه أذكى من المس * سك إذا مرّت الصبا بمكانه
وأزهار شتى الألوان مختلفة الأشكال ، قد تمّ عليها شذا عرفها ووشى بها طيب^(٨)
أريجها^(٩) .

فإذا الريح تنسّمت في روضها * ثرت به مسكا عليك وعبثا
وقل ما شئت في واد يحى نسيمه ميت الأحياء ، وينعش النفوس منه طيب^(١٠)
الهواء ، حتى هذا قيد النواظر ، وشرك الخواطر ، يطمع الطرف إليه ، ولا يطرف عنه .
مصّعة أبدان وزهه أعين * وطوف نفوس دائم وسرورها^(١١)

(١) اشتد واقتد واحتدمت النار اشتد اقتادها (٢) نصف التباهتد اشتداد الحز (٣) اسم
مكان من قال يتجلى قبولة إذا تم في الظهيرة مستريحا من حرها ، القائلة الظهيرة (٤) ظل ظليل ومكان
ظليل دائم الظل (٥) جمع نخيلة وهي الشجر الكثير اللثف (٦) جمع أرقم وهي الحية التي فيها سواد وبياض
شبه بها الماء الجاري المتوى (٧) رقم الثوب والكتاب نقشه ووشاه والرقم كل ثوب رقم أى وشى برقم
معلوم حتى صار عليها (٨) الشذا حدة ذكاء الراحة (٩) العرف الرائحة (١٠) الأريج والأريج تويج
ريح اللهب وأريج الطيب فاح (١١) يرتفع ويمتد (١٢) طرفه عنه يطرفه صرفه وردّه ويقال شخص إليه
بصره لما يطرف عنه .

يقصده المرء وقد ضاق صدره، وعيل من الهموم صبره، فيسرى عنه ما يراه ثم
تطيب به النفس، وتقر العين ويشرح الصدر.

يرى شعباً يشعب كل هم * وملهى مغنيا عن كل شان^(١)
بروض موق وحرير ماء * ألد من المثلث والمثاني^(٢)
وتغريد المزار على ثمار * تراها كالعقيق وكالجمان^(٣)

لهذا حد ذلك الشعب بحق من جنان الدنيا وأطيب نزهها، ذلك إلى ما كان
به من أنواع الفواكه المختلفة لا مقطوعة ولا ممنوعة كشجر الجوز والزيتون وجميع
الفواكه النابتة في الصخر، ومن أنواع الحيوان المتفاوتة والطيور المختلفة المنتوعة
حتى كان مصيدا لسلطين فارس. ولم يزل إلى الآن معرضا لكل قسم من أقسام
الحيوان والطيور، فكانته حديقة حيوان أنشأتها الطبيعة، وجبالها مكللة دائماً
بتاج من الثلج، وسفوحها مزينة بحلل من الخضرة قد دجها الفيث وطوزها من
الأنوار بكل ذات لون بهيج، وعن المبرد أنه قال: قرأت على شجرة بشعب يؤان:
إذا أشرف المحزون من رأس تلعة * على شعب يؤان استراح من الكرب
وألهاه بطن كالحريرة مسه * ومطرده يجرى من البارد العذب
وطيب ثمار في رياض أريضة * على قرب أغصان جناها على قرب
فبالله يا ريح الجنوب تمحلى * إلى أهل بغداد سلام فتي صب

- (١) غلب وقال المتن: فلانا ظبه وتقل عليه وأمه (٢) سرى عنه انكشف فذال (٣) يفرق ويشقت
(٤) المثاني من أوتار العود ما بعد الأول واحد حتى (٥) طارح حسن الصوت أو هو التديب
(٦) الدوزاجماعة أيضاً حبة تعمل من الفضة كالذرة (٧) صفح الجبل أسفل وجهه وعرضه المضطجع
(٨) يارضت الأرض فهي أريضة أى زكية سجيبة للعين.

ولإننا في أسفل ذلك مكتوب :

ليت شعري عن الذين تركنا * خلفنا بالعراق هل يذكروننا
أم لعل المدى تطاول حتى * قدم العهد بعسداً ففسدنا
وقال بعض الأدباء قرأت على شجرة دُلب^(١) تظلل عينا جارية بشعب يؤان
ما يأتي :

مضى تبغني في شعب يؤان^(٢) تلقني * لدى العين مشدود الركاب إلى الدلب
وأعطى وأخواني الفتوة حقها * فما شئت من جد وما شئت من لعب
ولما نزل عضد الدولة بن بويه^(٣) شعب يؤان متوجّها إلى العراق ومعه أبو الحسن
السّلاميّ الشاعر المشهور قال له : قل في الشعب فقد حرفت ما قاله المتبغني فيه
فعاد إلى خيمته وكتب قصيدة طويلة منها :

امرر على الشعب وأترل روضه الأنثا^(٤) * قد زاد في حسنه فازدده شخفا
إذ ألبس الهيف من أغصانه حللا^(٥) * ولقن العجم من أطياره^(٦) تنثفا
وانظر إليه ترالأغصان مثمرة * من نازع قوطاً أو لابس شثفا^(٧)
والماء يئسني على أعطافها أُرزا * والريح تعقد في أطرافها شرفا

(١) الدلب شجر ينمط ويتسع ولا نور له ولا ثمر وهو مفرد الورق واسمه شبيه بورق الكرم واحده
دلبة ويسمى شجر الصنار وكانوا يخطون منه التواقيس (٢) الفتوة الكرم والفتى السخى الكريم (٣) من
ملوك بني بويه وهو أعظمهم وأرسمهم ملكاً وأقوام وأبدهم شهرة في القرن الرابع الهجري (٤) روضة
أخف أي لم يرعها أحد فكانت استترت رعيها (٥) الهيف في الأصل ضمير البطن ورقة الخاصرة وفعله هيف
كفريح فهو أخيف وهي هيفاء وجمعها هيف شبه النصفين بالمرأة الحيفاء لدقته (٦) جمع تنفة وهي القطعة
من الشيء يريد قطعاً من الغناء (٧) القوط الحلق الملقق في شحمة الأذن (٨) الشف القوط الأمل .

أما أبيات المتنبي التي هي أشهر ما وصف به شعب بؤان وأحسن ما قيل فيه فهي من قصيدة قالها وهو قاصد عضد الدولة بن بويه بشيراز فاجتاز شعب بؤان فراقه ما رأى وحرك منه قول الشعر فقال :

مغاني الشعب طيبا في المغاني * بمثلة الريح من الزمان^(١)
ولكن الفتي العرب فيها * غريب الوجه واليد واللسان^(٢)
ملاعب جنة لو سار فيها * سليمان لسار بترجمان^(٣)
طبت قوسنا وانخليل حتى * خشيت وإن كرم من الحيران^(٤)
خذلونا تنقض الأغصان فيها * على أعرافها مثل الجمان^(٥)
فسرت وقد حجب الشمس غنى * وجئن من الضياء بما كفاني
وألقي الشرق منها في ثيابي * دنانيرا تفتر من البنان^(٦)
لها ممر تشير إليك منها * بأشربة وقف بلا أولى^(٧)
وأمواء يصل بها حصاها * صليل الحلى في أيدي القواني^(٨)
منازل لم يزل منها خيال * يشيعني إلى النوبندجان^(٩)

(١) المغني المتزل من غنى بالمكان أقام به وعاش فيه (٢) غريب الوجه لقلته وجوده وندرته ورأيه وغريب اليد لا يملك بها شيئا وغريب اللسان لا يسمع بها لغة لأن هذه الجهات في ذلك العصر كانت قد استمدت لغتها الأصلية وكادت لغة العرب تحي منها بعد تغلب الأماجم على الدولة وهم أهل هذه النواحي (٣) استأملت (٤) فرس حرون لا يتقاد وإذا اشتد به الجري وقف وقد حزن بحزن كعصر (٥) جمع صرف وهو شعر رقة الفرس (٦) يريد بها ما يسقط من أشعة الشمس على الأغصان ويحلقها فهو يرف عليها ويسقط منها كتثور الدرهم (٧) جمع شراب (٨) جمع آنية جمع إناه (٩) حل يصل صايلا صوت كصاصل (١٠) النوبندجان : مدينة قريبة من الشعب إلى أترجان كدرستين فرسحا وشعب بؤان بينهما وأرجان كانت مدينة كبيرة كثيرة الأشجار حسنة المكان .

إذا غنى الحمام الورق فيها ^(١) * أجابتها أغاني القيان
ومن بالشعب أحوج من حمام * إذا غنى وتناح إلى البيان
وقد يتقارب الوصفان جدًا * وموصوفاهما متباعدان
يقول بشيب بؤان حصاني * أعن هذا يسار إلى الطعان ؟

وكتب أحمد بن الضحاك الفلكي في أواخر العصر العباسي إلى صديق له يصف
شعب بؤان :

بسم الله الرحمن الرحيم كتبت إليك من شعب بؤان وله عندي يد بيضاء مذكورة ^(٢)
ومئة فزاة مشهورة ، بما أولانيه من منظر أعدى على الأحران ، وأقل من صرف ^(٣)
الزمان ، وشرح طرفي في جداول تطرد في ماء معين منسكب ، كأنها حين جرى أذيها ^(٤)
يتفرق ، وتذافع تيارها يتدفق ، وارتجج حبابها يتكسر في خلال زهر ورياض ، ^(٥)
ترو بحدق مراض ، قصب لجين في صفائح عقيان ، ومموط ذو بين زرجدمرجان ، ^(٦)
^(٧) ^(٨) ^(٩) ^(١٠) ^(١١) ^(١٢) ^(١٣) ^(١٤) ^(١٥) ^(١٦)

(١) جمع ورقاء وهي الحماة في لونها بياض إلى سواد (٢) يد بيضاء نعمة عظيمة مشهورة
(٣) أعداء عليه نصره وأمانه وقواه واستعداده استغاثه واستنصره يقول استعيت الأمير على فلان فأعداني
أي استنصرته فنصرني (٤) أقال الله ضربة إذا رفضه من سقوطه وأغاثه من كربته (٥) حادث (٦) أوصل
(٧) أنهار ورجار (٨) تجري متتابعة (٩) سكب الماء صبه وبابه نصر وماء مسكوب ومنسكب أي منصب
جار على وجه الأرض من غير سخر (١٠) الأذى الموج (١١) يلحزك ويتلاأ ويلعب وكل شيء له ثلاثو
فهو وقراق وتفرق الماء جاء وذهب وهذا السمع إذا دار في الحلاق (١٢) ينصب (١٣) حباب الماء
مستطمة وطرافته أو نفاذاته التي تملؤه (١٤) رنا إليه يرنو رنوا رام النظر إليه يسكون الطرف (١٥) العقيان
الذهب الخالص (١٦) جمع سميط وهو غيط النظم ما دام فيه انخرز ولا فهو سلك والسميط القلادة .

أثر على حكمة صانعه شهيداً ، وعلم على لطف خالقه دليل ، إلى ظل يتجسج أحوى ،
 وتخييل إلى ، قد غنت عليه أغصان فينانة ، وقُضِب غيدانة ، يستقيدها النسيم^(١)
 فتبتاد ، ويعتدل بها فتعتدل ، فمن متوِّد يروق منظره ، ومرتج يتهلل منوره ، مشتركة^(٢)
 فيه حمرة نُضج الثمار ، ينفحة نسيم النوار ، وقد ألفت به يوماً وأنا نخلالك مسامر ،
 ولشوقك منادم ، وإذا تفضل الله بإتمام السلامة إلى أن أوافي شيراز كهت إليك^(٣)
 من خبري بما تقف عليه إن شاء الله تعالى .

الحمراء

على ربوة عالية من ربا "سيرافادة" مشرفة على مدينة غرناطة قلعة فخمة تعرف^(١)
 بالحمراء أو "القصر الأحمر" أسسها ابن الأحمر في القرن الثامن الهجري لتسع^(٢)
 وأربعين ألف جندي ولا غرو في ذلك لمساحتها خمسة وثلاثون فدانا .
 وهي الآن مدينة فسيحة ذات شوارع وديروكنيسة .

(١) يوم مجسج لاحول ولا قر وكذلك الهواء والظل ونحوهما (٢) التخل والتخل كل شيء تد
 يرتشف نداء ، غخل كفرح واغخل واغخل واغخل به (٣) القين الحسن الثمر الطويل وهي
 فينانة (٤) الأغيد من النباتات الناعم المثلث والفيضان الشجرة النفضة (٥) يقودها (٦) قح الطيب
 طاح ، وله نقعة طيبة ونفحة الريح هبت ، وقال الأصبهي : ما كان من الرياح له قح فهو يرد وما كان له
 قح فهو حر (٧) النوار نور الشجر واحد نواره (٨) السمر والمسامرة الحديث باليل والمسامر والسمر
 للمصعد يأمن المرء بمجديته (٩) المنادم والتدعيم المشارك في الشراب وتادمه جلوسه (١٠) مدينة بالأندلس
 ومعناها بالغة الأندلسية الزمالة سميت بذلك لحسها .

وفى داخلها بنى القصر الأحمر، قصرُ العظيمة ، وبيت الجلال، ومعجزة الفن،
والمثل الأعلى للصناعة العربية ، وقصارى ما أبدعته يد الفنان ، ومنتهى ما وصلت
إليه صناعة الإنسان، فى ظبر الأزمان ، أطلت منه الحضارة العربية ، وقد أخذت
زخرفها وأزيّنت على أوزنه ، وهى إذ ذاك موحشة مقفرة ، فكان ذلك أسطع
دليل ، وأعدل شاهد على أنّ الحضارة الغربية ، وليدة الحضارة الشرقية .

يرى السائر إلى ذلك القصر ، شبه أبراج مربعة، تكاد تتأطع السماء ، تكنفها
قباب دكّاء ،^(١) كوّتها الأشجار المحيطة بها، حتى إذا أتى على مدخله ، أثنى قواعده
تظللها مماش جمّة ، وساحات فسيحات، يغطى تربتها بساط أخضر من النبات ،
فإذا ما تقدّمت به قدماء ، رأى نفسه فى القاعة المسماة بيت القضاء ، وهى حجرة
فسيحة الأرجاء ، كان يجلس فيها الخلفاء ، مع ذوى الرأى من رجال^(٢) الدولة ،
للنظر فى الدعاوى والظلمات ، أرضها من الرخام ، ونقوشها غاية فى الإتقان ،
وسقفها مكوّن من ثلاثة آلاف قطعة ، وصل بعضها ببعض بمهارة عجيبة ، يخالها
الزأى قطعة واحدة ، وآثر من جلس فيها ابن السراج ، وإليه تنسب هذه الحجرة ،
وفىها قتل غيلة ، وعلى أرضها بقعة حمراء ، يقال إنّها من دمه ، وقد ذهب بعض
المتأثرين إلى أنّها ليست بدم ، وإنّما نشأت من اتّحاد الماء بالحديد ، وإليك
صورة هذه الحجرة البديعة :

(١) الدكة : لون بين السواد والحمرة (٢) رجال الدولة أشرافها (٣) قتله غيلة خلدته
وذهب به إلى موضع قتله .

بيت القضاء



فإذا ما غادرت هذه الحجرة ، ألفت فناء رحبا على أحد جانبيه قصر «شرلكان» الخامس ، غير تام البناء ، ولهذا القصر قصة خلاصتها : أن الحكام المسيحيين بعد خروج العرب من الأندلس ، اتخذوا القصر الأحمر مقرا لهم ، فسوّلت لشرلكان نفسه أن يهدم جانبها منه ، ويقم عليه قصرا يكشف ضوءه نور الصناعة العربية ، فلم يتم له ما أراد ، لأن الطراز العربي^(١) بذ الطراز الإسباني ، هذا إلى أن القصر المسيحي زال طلاؤه ، ولبت خشبه ، وتفككت أحجار قبابه ، أما القصر العربي

(١) بذ فلان أصحابه ظلمهم .

فلم يطرأ عليه تغيير إلا ما أحدثته الإسبانيون بأيديهم من تشويه وتخریب ، ولا زال لون طلائه زاهيا لامعا ، مع أن البحث العلمى أثبت أن هذا الطلاء لم يدخله زيت ، وما برحت أبوابه ونوافذه وسقفه لا يجد الليل إليها سبيلا .

وعلى الجانب الآخر من هذا الفناء ، البقية الباقية من الحمراء ، وفيها قاعة الأس^(١) التي تأخذ بالألباب ، وهى توصلك إلى حجرة تعرف بصحن البركة فيها بحيرة جميلة احتوت أنواع السمك ، وفى وسطها تماثيل أسود ، تنذف المياه من أفواهها قذفا يسر الناظرين .

ولا يفادر الزائر هذه الحجرة حتى يرى قاعة الخلافة يملؤها الوقار ، وتكسوها المهابة ، قد زينت بمختلف القُباب ، وزخرفت بأبدع النقوش الموهبة بالذهب .

وقرب هذه الحجرة غرفة زوج الخليفة ، وهى غرفة بديعة ، جنة النواظر ، وشرك الخواطر ، أرضها من الرخام الأبيض ، وسقفها منقوب ، أحرق فيها من الطيب ، ما جعل بعض الغالين ، يزعمون أن الروائح الذكية ، لا تزال تنبعث من أرضها الفضية ، وتشرف نوافذها على روضة ليس فى استطاعة الإنسان أن يزجى^(٢) وصفها إلى ذهن القارئ ، ولو أوقى فصاحة سبحانه .

ولعل أبداع مافى هذا القصر ذلك البهو المسمى بمقصورة السباع فلأنك تمخلاه غابة بديعة من الأعمدة الدقيقة يتناثر خلالها رشاش الماء من فؤارة السباع تناثر الشرر ، إذا اندلع به لسان اللهب ، وعلى حافة هذه الفؤارة تماثيل السباع التي لم تحكم عرا الشبه بينها وبين السباع الحقيقية ، لأن صانعها راعى مانهى عنه الدين من إقامة التماثيل المحسمة للكائنات الحية وهاك صورتها :

(١) الأس شجر معروف واحدة آسة (٢) يسوق .

مقصورة السباع



دع ما بهذه الغرفة من قباب مختلفة ، وقوش غاية في الإبداع ، وزخارف آية في الأحكام ، واسلك سبيلك من ذلك الباب المصنوع من الشبه تجدد حجرة أبدعت فيها ريشة المصور ، فلا ترى إلا معجزات في الفن متشابهة ، وبهائم في الصناعة متماثلة .

أليس من حقه أن تعجب إذا علمت أن المجمع الفرنسي أثبت أن كل الزخارف صهت صبا ، ثم أحكم اتصالها إحكاما جعل الراى يعتقد أنها قطعة واحدة لا يرى فيها عوجا ولا أمثا .^(٢)

ولقد بلغ من إعجاب الإنجليز بهذا القصر أن أرادوا محاكاته فأقاموا مثيله بمدينة "سينهام" حتى كان يحيل لزاره أنه في مدينة غرناطة يتمتع ناظريه بالقصر الأحمر شكلا ، وإن كان أقل منه أنسا ، ومما يؤسف عليه أن نارا التهمت قدس دمه .

سرى رياض الحمراء ذات الأربع^(٣) ، والزهرة البهيج ، وانظر كيف ذوى نبتها ، بعد أن أقل نحبها ، وتجهمها الدهر ، وتكرت لها الأيام ، فأقبل الإسبانيون على جنة العرب الفيحاء ، فأتوا كل ما أمكنهم اقتراعه من الحمراء ، وباعوه بمن بخس دراهم معدودات ، وظنوا أن هذا يسفى غليل صدورهم ، ويذهب آثار من كانوا سببا في تمدنهم .

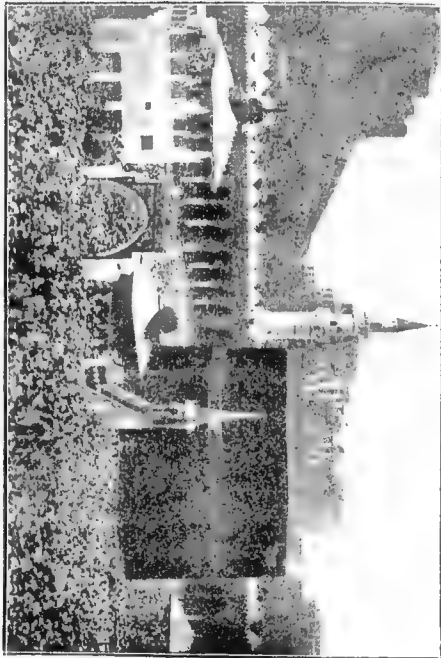
ولولا هوة من أهل الفن تحت أصواتهم في نداء الغرناطيين وأعلامهم أن في مدنتهم أعجوبة من أعاجيب الزمان ، وتحفة من أجل التحف يجب حفظها من الحداث^(٤) . لأنوا على بنيانها من القواعد .

(١) الشبه : الدير (٢) الاختلاف في الشيء . (٣) تويج ربح الطيب (٤) تحجيمه وله قابله

بوجه كرية أرغفة في القول (٥) حدثان الدهر : نوبه كحوادثه وأحداثه .

المسجد الحرام

(١)



صورة المسجد الحرام بمكة

هو أول المساجد الثلاثة المقدسة ، وثانيها مسجد المدينة المنورة ، وثالثها المسجد الأقصى بالشام ، تلك هي المساجد التي تشد إليها الرحال ، وتحفز زيارتها لهم ، وتساق إليها الهدايا ، وتتضاعف أمام مجدها القصور الشاذخة ، والصروح العالية . والمسجد الحرام أعلاها وأفضلها ، فإنه دار الكعبة المعظمة : توسط مكة فأضحت للإسلام متارا ، ولأهله مزارا ، ولجده دارا .

يراه القادم عليه فيروحه منظره : إذ يرى بناء كبيرا يتلأأ بهاء وقيض نورا . ويشاهد أشرف البيوت التي أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه . وتراعى له مناراته العالية ، تضرب في جو السماء فتلقى على مكة الجلال والرؤاء . ثم يدخله فيرى منظرا مهيبا . وقضاء رحبيا . وأعمدة قائمة . وقبابا طالية . وطرقا منسقة . وقروش منمقة . ويشاهد الكعبة المشرفة . ماثلة وسط البيت . يحيط بها المطاف والحطيم ، وزمزم ومقام إبراهيم . فهناك يخرج بنفسه القرح والخشوع . فيحقق قلبه رهبة وجورا . ويقيض إيمانا ونورا . فلأبدعه منظرا ! وما أروعه مشهدا !

والمسجد الحرام أدوار تخرج فيها في مدارج العمارات . حتى بلغ ما بلغه من الجمال والإتقان ، فلم يكن مسورا إلى زمن عمر بن الخطاب ، فهاهنا أن رأى الناس يزحفون بمتازلم على الكعبة فهدم ديارا كثيرة وأدخلها في المسجد الحرام ونهج منهجه عثمان بن عفان . ثم تناولته أيدي الخلفاء والأمراء بالتوسعة والإبداع حتى صار آية في الجمال . وتمرر ^(٥) فضلوا غيرهم في ذلك العمل الجليل «الوليد ابن عبد الملك» فقد نقل إليه أساطين الرخام وسقفه بالساج وحلأ أعالى الأساطين

(١) تدفع (٢) تصغر (٣) تبدو (٤) حسنة مزينة (٥) الأعمدة والسورى الواحد أسطوانة .

بصفائح من الشبه مموجة بالذهب الخالص . فأصبح منظرها يأخذ بالألباب . وجعل الحرم إزارا من الرُخام وشُرُفات كثيرة . وزاد المنصور في سحته ، واشترى في ذلك عتة منازل . ورأى المهدي أن الكعبة ليست في وسط الحرم الشريف فوسّع في عمارته حتى صارت في الوسط وجلب من الشام أساطين الرخام حملت إلى «جُدّة» وحملت من «جُدّة» إلى مكّة على عجل وفي سنة «٩٧٩ هـ» حشد السلطان «سليم» مهرة الصناع وحذّاقهم للإصلاح ما يحتاج إلى الإصلاح من بناء المسجد وأقام عليه القباب الفخمة واستعاضها عن السقف . وأتم السلطان «مراد» ما فات سلفه السلطان «سليمان» من ضروب الإحسان والإبداع . ومن ذوى الأثر الصالح في عمارته سلطانا مصر «برقوق وقايتباي» . وبالحرم الآن أروقة أربعة تمتد بجوانب جدره على أعمدة تعدّ بالمئات : بعضها من حجر أحمر أجيد نحته وصقله ، وبين الأعمدة عقود كثيرة رائمة المنظر تبلغ المئات قننا . أما أرضه فذات بهجة ورواء ، ترتبها طرق من الرُخام بين أقسام مزدانة بالحصباء . وله اثنان وعشرون بابا في جهاته الأربع منها في الجهة الشرقية «باب السلام» و«باب النبي» و«باب العباس» وقد يكون للباب الواحد عدة ملاخل . وبه منبر من الرخام يمتاز بدقّة الصنعة . وعظيم الإحكام ، أهدها إلى المسجد السلطان «سليمان» وكتب عليه (أنّه من سليمان وأنّه بسم الله الرحمن الرحيم) . ومن عجائب الحرم حَمَامُ الخي الكثير فهو في رحابه يأنس بالناس وهم يسطون إليه أكفهم بالحب فيقع عليه آمنة مطمئنا ، ويمتشد بالأبواب

(١) البرز (٢) الخليفة العباسي أبو جعفر المنصور ثاني خلفاء الدولة العباسية ول الخلافة

سنة ١٣٦ هـ (٣) الخليفة العباسي محمد المهدي أبو الرشيد تولى سنة ١٥٨ هـ (٤) جمع

(٥) صغار الحصى (٦) يجمع .

مئات من البائسين عيشهم من الصدقات ، ويجدون ربيعهم في موسم الحج .
 والمسجد بين الأروقة صحن فسح غير مسقوف . وسعة المسجد تزيد على أربعة أفدنة
 وربع فدان ، ويكاد يكون مربع الشكل ، وله ست مآذن نخمة عجيبة بنى إحداها
 السلطان (قايتباي) من ملوك دولة المماليك بمصر . ولكل إمام من أئمة المذاهب الأربعة
 مصلى خاص يصلى فيه ، ولقب «خادم الحرم» مما يتشرف به الملوك والسلاطين
 وعدد خدمه زهاء سبعمائة ، والخطباء منهم يلقون على المائة وأقرب المساجد في مصر
 شها بالمسجد الحرام جامع «ابن طولون» وجامع «عمرو بن العاص» بالقسطنطينية .
 وفي جداره الشرقي من الخارج عمودان بينهما مسافة سبعين مترا اسمهما الميلاق
 الأخضران يهزول الاحتجاج بينهما في أثناء السعي بين الصفا والمروة . والمسجد ومكة
 وما حولها حرم من دخله كان آمنا ، فهو ملاذ العائدين . ومأمن الخائفين . لا يُباح
 طيره ، ولا يُصاد وحشه ، ولا يُحتل ^(٣) خلاه . فقد جعل حى الإنسان والحيوان
 والنبات .

(٤) أما الكعبة ففي وسط المسجد الحرام . يراها الإنسان ماثلة فيه تقبل في برود
 من الحرير قشبية ، أهداها إليها الملوك والأمراء ، وثياب من الجلال رهيب . أسبغها
 عليها رب الأرض والسماء . وتليه بتاريخها المجيد ، وشرفها التليد ، وعمرها المديد ،
 على قصور الملوك الصبيد ، وتمزجها الحوادث تباعا ، وتجتازها دولات الزمان سراعا
 فتقوم دول لأتدول وهى رفيع قدرها . عظيم خطرها . جليل شأنها . تعفو القصور
 (٥) جديدة (٦) أئمتها (٧) تنكروا زهر (٨) جمع أميد وهو من يميل رأسه كبرا (٩) شرفها ومنزلتها

(١) يزيدون (٢) نوع من السير بين المشى والعدو (٣) يحرق حشيشه (٤) ثياب جمع برد كقفل

(٥) جديدة (٦) أئمتها (٧) تنكروا زهر (٨) جمع أميد وهو من يميل رأسه كبرا (٩) شرفها ومنزلتها

(١٠) عفا المنزل يعفو عفا درس واعى .

العالية . وهى على البحر باقية ، فأين منها (الخورق^(١)) الطائر الصيت بل أين ما شاده « شداد » فى إرم^(٢) ، آتى على الكل حادث الزمان ، والكعبة تزداد على الأيام مجدا ، وتسمو فى معارج الشرف والجلال وجدير بها ذلك . فشتان بين مسكن الإنسان . ومعبد الرحمن ، ولن تزال كذلك ما عُبِد الله فى الأرض .

رفع قواعدها سيِّدنا إبراهيم الخليل وولده إسماعيل ، فكانت أوَّل بيت وضع للناس وأُجمعت الأمم على احترامها ، يستوى فى ذلك العرب والعجم . فقد كان الفرس يصحبونها فى الجاهلية ويعبدون ذلك من مفاهيمهم .

ولقد كان اليهود والنصارى يبالغون فى احترامها وكانت سَيِّدَاتِهَا^(٣) ولا تزال مطمح أنظار القبائل . وملتقى آمالهم وهم يتفاخرون بولاية البيت ويعبدون فقدها أشدَّ الكوارث فقد كانت « جرهم » تلى أمر البيت ثم طاحت بمرزها الطوائج فقال أحد شعرائها بعد ما ذهب منهم ولاية البيت يندب مجدا ضائعا . وشرفا بائدا :

وَكَمَا وَلَاةُ الْبَيْتِ مِنْ عَهْدٍ ثَابِتٍ * نَطُوفُ بِذَلِكَ الْبَيْتِ وَالْأَمْرُ ظَاهِرٌ
كَانَ لَمْ يَكُنْ يَنْجُو مِنَ الْمَجْهُولِ إِلَى الصَّفَا * أُنَيْسٌ وَلَمْ يَسْمُرْ بِمَكَّةَ سَاهِرٌ
بَلَى نَحْنُ كَمَا أَهْلُهُا فَأَبَادَنَا * صُرُوفُ اللَّيَالِي وَالْجُدُودِ الْعَوَارِثُ^(٤)

(١) الخورق قصر كان لثيمان بن المنذر ملك الحيرة (٢) من ملوك اليمن (٣) هى إرم ذات البهادر التى بالغ المؤرخون فى وصف ما كانت عليه من السعة والدران ونخاعة الأبنية ببلاد اليمن فهى حل هذا مدينة يزعم بعض المفسرين أنها كانت بجهة عدن وديح ابن خلدون أنها اسم قبيلة وأن عادا فصيلة منها (٤) جمع معراج وهو السلم (٥) غدتبا (٦) ذهبت (٧) ولد اسمعيل (٨) جيلان بمكة (٩) المخطوط .

وقد كساها أحد التبايع^(١)ة قبل الهجرة بعشرين عاما ثيابا يمانية وجعل لها بابا ومفتاحا وانقصر بذلك إذ يقول :

وكسونا البيت الذي حرم الله * ملاء مَقَصِّبا وبرودا
وأقنا به من الشهر عسرا * وجعلنا لبابه إقليدا^(٢)

وكانت العرب تتخالف عندها . وتتقاسم بها . وكانت في الجاهلية تفتح يومى الاثنين والخميس ويدخلها من يؤذن له فيخلع عليه احتراما لها ، وقد تهيبوا أن يهدموها لتجديد بنائها حينما تدأعت جذرها قبيل البعثة النبوية وحسبوا أن في هدمها حلول العذاب الأليم . فلما اجترأ على هدمها أحد كبارهم توقعوا أن تصيبه صاعقة أو يحل عليه عذاب مقيم ، ثم بنوها وتنازعوا في وضع الحجر الأسود وكادت نار الحرب تضطرم بينهم لولا أن من بهم النبي صلى الله عليه وسلم وكان غلاما ناشئا وكانوا يسمونه الأمين لصدقه وأمانته ، فرأى لهم أن يشتركوا جميعا في وضعه ثم بسط رداءه وألقى الحجر فوقه فحملت كل قبيلة طرفا من أطراف الرداء ووضعوه حيث هو الآن على يمين باب الكعبة ، ولكنهم تركوا منها جزءا في الجهة الشمالية فلم يدخلوه في بنائها وسموه «الحجر أو الحطيم» وأقاموا عليه جدارا حتى يعلم الناس أنه كان داخلها في الكعبة المبنية على قواعد إبراهيم .

(١) ملوك اليمن جمع تبع (٢) مفتاح (٣) نحاس البنيان تصدع من جوانبه وأذن بالانهدام والسقوط .

المسجد الحرام

(٢)

تلك حال الكعبة في الجاهلية وقد زادها الإسلام مجدا إلى مجدها فاتخذها المسلمون قبلتهم وصار حججها ركنًا من أركان دينهم فهي من الإسلام كالقلب من البدن أو الإنسان من العين . وقد كساها النبي عليه الصلاة والسلام وتبعه الخلفاء من بعده ، وصمخها « معاوية » بالطيب وتبارى الملوك والسلاطين في إصلاح بنائها وزيادة زخرفها وإلباسها أنغر الثياب . وبلغ من احترام الناس لها أنهم ينهضون على ما يملح من كسوتها فيشترون أجزاءها بكل ما تصل إليه طاقتهم وصار أقصى آمال كل عظيم أن يقوم بشيء من عمارة البيت وبقرب به اسمه منقوشا على الجدران فيخلذه ذلك ويسمو به قدره . ويفخر به أعقابهم . وقد كانت في الجاهلية بمثابة دار تحف تجعل بها مفانهم وعهودهم . وما سميت المعلقة بهذا الاسم إلا لأنها كانت معلقة فيها وكذلك كانت شأنها في الإسلام . فقد ساق فيها « الرشيد » هذه بالخلافة « للأمين » ثم « للأمون » . وقد حج المهدي العباسي سنة ستين ومائة للهجرة فرأى فوقها من الثياب شيئا كثيرا لا حاجة إليه فأمر بتجريدتها منها وطيبها بالغالية وصعد بنفسه فوقها وصب عليها قوارير من الطيب وكساها ثلاثة أثواب من القباطي وانحز والسياج . وقد لبست مصر رداء الشرف العظيم بما ترسله كل عام إلى البيت الحرام من الأكسية الفاخرة ، فيقام لذلك مهرجان عظيم تتجلى فيه العظمة والجلال ويحضره

(١) لطخها (٢) يزدهون (٣) الغالية أخلاط من الطيب يقال تغليت بالغالية أي تغليت بها

(٤) الثياب المصنوعة في مصر الواحد قبلى يضم القاف نسبة على غير قياس وهو ثوب من تخان رقيق .

صاحب الجلالة ملك البلاد وكبار رجال الدولة وأشراف الأئمة . والكعبة الآن تكاد تكون مربعة الشكل مبنية بالحجارة الزرقاء . ارتفاعها خمسة عشر مترا ، وطول كل من ضلعها الشرق والغربي اثنا عشر مترا وطول كل من الضلعين الآخرين يزيد قليلا على عشرة أمتار . والباب في جدارها الشرقى ، وعلى يمينه الحجر الأسود الذى يعظمه المسلمون ويتراحمون لاستلامه يرتفع عن الأرض ذراعين وثلاثي ذراع وقطره ثلاثون سنتيمترا وعليه إطار من الفضة . والباب مرتفع عن الأرض نحو قامة فلا يدخل أحد الكعبة إلا بعد أن يرتقى سلما مغطى بصفائح الفضة . وقابها تفتح الكعبة إلا لفصل داخلها أو للزيارة . ومن أركانها الأربعة ما ينسب إلى ما يقابله من الأقطار فمنها الركن اليماني المتجه نحو اليمن . والركن الشامي والعراقي . أما الركن الذي فيه الحجر الأسود فاسمه الركن الأسود . وبها من الداخل نَصَد توضع فوقه مفاتيحها وتكسوه الحكومة المصرية كل عام مع الكعبة . ويحيط بها من الداخل إزاز من الرخام ارتفاعه نحو قامة . بها محراب كان يصلى فيه النبي عليه الصلاة والسلام . وتكسى الكعبة الثياب السوداء جريا على عادة بنى العباس الذين كان شعارهم السواد وفي جدارها الغربى كتابات كثيرة رائعة المنظر منها « أمر بتجديد داخل البيت السلطان الملك أبو النصر قايتباى خلد الله ملكه يارب العالمين عام أربع وثمانمائة من الهجرة » وحلقنا باب الكعبة ومساميره من الذهب الخالص . والجزء الذى بين بابها والحجر الأسود من جدارها الشرقى يسمى « الملتزم » يلتزمه الحجاج بصلورهم وأيديهم ويدعون ربهم ، وذَرَعُهُ^(٢) أربع أذرع وسدس ذراع ، والمطاف دائر حول الكعبة وطوله مائة متر وأرضه من الرخام وطول قطره من الشمال إلى

(١) تقيله (٢) مساحته .

الجنوب واحد وخمسون مترا ، ومن الشرق الى الغربى واحد وأربعون مترا . وتجاه باب الكعبة خارج المطاف مقام إبراهيم وهو حجر قام عليه إبراهيم عليه السلام حين بنى الكعبة ومكعبه ذراع وهو كالحجر الأسود موضع إجلال المسلمين واحترامهم وطيه صندوق من الساج . « وزمزم » فى خارج المطاف إلى الجنوبى الشرقى من المقام عليها قبة ترتفع عن الأرض نحو قامة وسعة فم بئر « زمزم » نحو أربع أذرع . هذا ولم تَج الكعبة فى تاريخها الماضى من العابثين الذين حاولوا صرف الناس عنها . فمن أولئك « النجاشي » الذى تغلب على اليمن وساق الكنائس لهدمها عام الفيل فأهلكهم الله بالطير الأبايل ، وجعل كيدهم فى تضليل . ومنهم « طاهر القريملى » الذى شق عصا الطاعة على « المقتدر » العباسى . فقد بنى دارا سماها دار الهجرة « يهجر » من بلاد البحرين وقطع سبل الحج واتهك حرمة المسجد الحرام فأعمل السيف فى رقاب المجيع وزرع الحجر الأسود وأخذه ، وحسب أن الأمر قد تم له ولكن خاب فأله ، وطاش مهمه ، وقضى نحبه ، خائبا مدحورا ، ثم ردّ الحجر إلى الكعبة المشرفة ، وظلّ المحتاج يهرعون إليها أفواجا .

وليس روعة المسجد الحرام مقصورة على ما به من الأبنية الضخمة ، والرحاب الفسيحة ، والقباب العالية والأساطين الجميلة ، والنقوش البديعة ، ولكن له عدا ذلك روعة تملأ النفوس وتحقق لها القلوب ، وتفيض لها من خشية الله الدموع ، فأتى شئ أبلغ فى النفس وأروع منظرا من رؤية الجموع الحاشدة تدخل المسجد الحرام ، يهللون ويكبرون خاشعة أبصارهم ، منهلة مدامعهم ، صاعدة

(١) المجتمة (٢) انتهت الباء واستهلت مع صوت مطر فالحزاد شدة البكاء وانهمال

إلى السماء دعواتهم ، وقد تجردوا عن كل زينة إلا لباس التقوى ، وفيهم الملك
والسوقة يطوفون بالبيت ويتعلقون بأستاره ، ويستلمون الحجر ، ويلتزمون الملتزم ،
وتلوح على وجوههم سيما الرهبة والخشوع ؟ ؛ وأتى شيء أجمع للغبطة والخشوع
من صوت المؤذنين على منابر المسجد الحرام ؟ يرسلون بالأذان أصواتهم ، فتتجاوب^(١)
بها الأصداء ، في جو السماء ، وتُصَيِّت لجمالها الأذان ، وتخضع الأصوات للرحمن ،
وتجيش بين الضلوع زفريات الضراعة^(٢)

وأتى شيء أوقع في النفوس ، وأوعظ للره ، وأدل على ثبات العقيدة ، وأملأ
للعين ، وأبين لحكمة الحج ، من رؤية الجميع وقد أتموا مناسكهم فأشرقت وجوههم
وقزت عيونهم وتأججت نفوسهم^(٤) . وطابت منهم السرائر ، وخلصت لله الضمائر ،
واختلط خنثهم بفقيرهم ، فعارفوا وتآلفوا . ووقف بعضهم على أحوال بعض فازدادوا
ألفة واتحادا . وأصبحوا بنعمة الله إخوانا ؟

(١) يجاور بعضها بعضا (٢) جمع صدى وهو ما يجيبك بمثل صوتك في الجبل ونحوه (٣) جاشت

القدر فقلت والمراد شدة الزفريات التي يمتلأ بها خشية الله وروعة الموقف الجليل (٤) تلبت نفسه بكذا بردت

ومرت واطمأنت وبأبه قد وطرب .

مكة المكرمة

(١)

هي ذلك البلد الأمين الذي يعظمه المسلمون في مشارق الأرض ومغاربها ،
وتنوي إليه أفئدتهم وعجبي لأهله خيرائهم ويأتون إليه كل عام رجالاً وركبانا ليشهدوا
منافع لهم وليذكروا اسم الله في أيام معلومات وليطوفوا بالبيت العتيق .

عظمها العرب في الجاهلية لأنها قرارة مجدهم ، ودار عظمتهم ، ومنتدى حكمتهم ،
ومضارب بلغائهم ، ومحل كبريتهم التي كانت مأمن الخائف وملاذ العائد ومناط مأثور
القصاصد ومحائف اليهود كما كانت دار أوثانهم التي يعبدون ، وأعظم أيمانهم التي
بها يقسمون .

ويعظمها المسلمون لأنها دار القبلة التي يولون وجوههم في الصلاة شطرها
ويهرعون كل عام إليها آمين البيت الحرام لأداء فريضة الحج إحدى قواعد الإسلام .
ثم هي مولد نبيهم عليه الصلاة والسلام ، ومبزع شمس دينهم ومهيكل وحى كتابهم
ومضجع كثير من صالحى أسلافهم .

يقرع اسمها أسماعهم فتخفق له قلوبهم ، ويذكرون إذ قام النبي بأعباء الرسالة
وصبر على أذى أهل مكة وجاهد في الله حق جهاده ، وظل يدعوهم إلى الحق وهم
منه نافرون ، ويحرص على إسماعدهم وهم له كارهون ، ويحاول إغرائهم من الظلمات
إلى النور فنهزم من آمن به ومنهم من صد عنه .

(١) جمع من مفردته راجل ورجلان حتى من ليس له ظهر يركبه ضد القارص (٢) بالقدم والكرم

(٣) ما يقر فيه (٤) البيت المرتفع أو المربع (٥) موضع تطبيقها (٦) بنحوها (٧) قامحين . . .

وإذ نخرج من مكة مهاجرا إلى الله ثابت العقيدة صادق العزيمة لا يشنيه عن الحق وعد ولا وعيد في عصبية من قريش صدقوا ما عاهدوا الله عليه وآثروا فراق الأهل والإخوان على عبادة الأوثان .

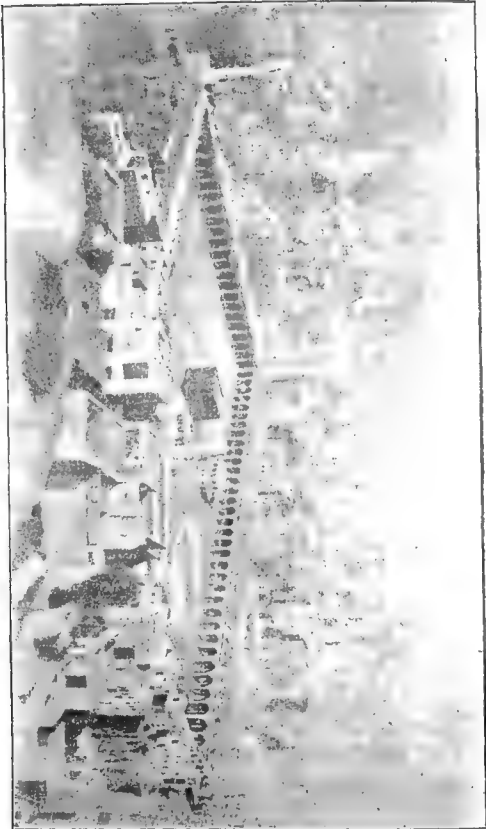
وإذ طال به الحنين إلى مكة ثم حشد عاقبة صبره وتبجلى للناس فضل حلمه وسعة صفوه يوم أدال الله له من أهل مكة ، ففتح له فتحا مبيتا ونصره نصرا عزيزا ودخل المسجد الحرام مع صحبه آمنين ، فعامل القوم معاملة أخ كريم وابن أخ كريم ، وعفا عن أعدى عدوه «أبي سفيان بن حرب» وجعل داره مثابة للناس وأمنا ، وذلك أفعى مكارم الأخلاق .

يذكر المسلمون كل ذلك فتدفعهم الذكري إلى نهج منهجه واقتراف أثره ، فتعتاد نفوسهم الصبر والمثابرة واحتمال الأذى رغبة في الخير ، وتتصل بالوفاء وحب الوطن ويعملون شعارهم الحلم والصفح عن المصء إذا أتاب .

(١) 'أأخذ من الدولة وهى انقلاب الزمان أى نصره طبعه بعد أن أخرجه من ديار قومه

(٢) مجتمع الناس بعد تفرقهم .

انشاء مكة ووصفها



مكة مما على الحرم

لمكة أسماء كثيرة منها بكة وأتم القرى، ويرتق عهد إنسانها إلى إبراهيم عليه السلام حين نزل بزوجه هاجر وإينهما لإسحاق بمكة المكرمة قبل الميلاد بنحو تسعة عشر قرناً «سنة ١٨٩٢ ق.م». وأذنح الله لها بئر «زمرم» فالتحتوا مكانها مستقراً ومقاماً، ثم نزل بهم جملة من ^(١)جرهم ثم رفع لإبراهيم القواعد من البيت وإسحاق، وقالوا: «ربنا قَبِّلْ مِنَّا إِنَّكَ أَنْتَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ»، ثم أقف إبراهيم في الناس بالحج فأتوه من كل فج عميق ^(٢)، ثم صالوا لبيت متلة سامية في القوس فأصبح حملاً آمناً جنب الناس إليه فتولوا ^(٣)عنده وأخذوا ألبانهم حتى تله بالبيت «فُصِّيَ بَنُ كَلَاب» فابنق البيوت وأخذت مكة في التهاء فأنقسمت وقسمها وزادت عملاتها وما زالت موضع الإجلال إلى اليوم .

وهي في وادي قفر ببلاد الحجاز من جزيرة العرب شرق جقة التي على البحر الأحمر وبنيها ثلاثون ألف متروهي على الخط الأربعين من خطوط الطول الشرقية، وشمالاً الخط الحادي والعشرين من خطوط العرض الشمالية بنحو نصف درجة، وجنوباً مدار السرطان وفي المنطقة الحارة، وهوائها حار لا يخف وقت القيظ على أنه بالليل طيل تروح إلى القوس ويكتفي من الشمال إلى الجنوب سلسلة جبال تحجيان مياها فلا يراها القادم إليها إلا حين يدخل من أحد أبوابها الثلاثة . ومن الجبال الشمالية كداء وقبطن والجحون، ومن الجنوبية أبو قيس وفي ^(٤)لحفه انصفاً وقد أثرت الجبال المحيطة بها في هوائها فجعلته كثيراً للهاب. ومكة تمتد من الشرق إلى الغرب نحو ثلاثة آلاف متر، ومن الشمال إلى الجنوب نصف هذه المسافة ومبانيها منتشرة على سفوح الجبال

(١) حتى من ابن تروج فهم لإسحاق عليه السلام (٢) طوقه واسع (٣) اجتمعوا (٤) من أجداد التي عليه السلام (٥) لأهل .

وفي بطن الرادى ، والمسجد الحرام يتوسطها مع ميل إلى جهة الجنوب . وبيتها
كثيرة ولكنها قليلة الرءاء والأفنية إلا البيوت التي في حى «أجساد» حيث يقعان
الحكام والأشراف في الجهة الجنوبية للمسجد الحرام فلها آية في الروضة وحسن
التطبيق ، على أن مكة في ضفى بالبيت وعظمته عن شايخ البناء وزينته ، وليس بها ميادين
متسعة ، غير أن الناس آتفخوا رطاب المسجد الفسيح بمثابة الميدان فهم يذهبون إليه
للمسلاة والطواف ويكتظ بهم زمن الحج فيضيق بهم على أنساعه . وشوارع مكة
كثيرة وأوسعها وأطولها شارعها الذى يشقها من الشرق إلى الغرب تحتلف أسماؤه
باختلاف الجهات . والقوم يعتمدون في شربهم على مياه الآبار وقليل غناؤها ، وجل
اعتمادهم على مياه عين «زبيدة» التي أنشأها السيدة الكريمة «زبيدة بنت جعفر»
زوج الرشيد وجرت إليها الماء من جبال تبعد عن مكة زهاء خمسة وثلاثين ألف حذره
نظف عن الناس صبء ثقيل وحفظ التاريخ لزبيدة ذلك الجليل وفضل مياه تلك
العين تسمى به بساتين عظماء مكة المكرمة . أما عدد سكانها فغيرى على مائة ألف نسمة
يتضاعف في موسم الحاج فتضيق به المساكن على كثرتها .

مكة المكرمة

(٢)

أهل مكة خليط من أجناس شتى فمنهم العربى والتركى والهندى والمصرى إلى
غير أولئك من طوائف المسلمين . وقد تباينت أزيائهم وتعددت لهجاتهم وطبايعهم

(١) حسن المنظر (٢) يحصله (٣) ما يفضى به أى واليلة فأمته (٤) قدر (٥) يزيد

(٦) انزلت واختلقت

على أنهم امتزجوا بالمصاهرة وطول المعاشرة . ولقد ترى الرجل لابسا عمامة هندية
وقباً مصرياً ^(١) ومنطقة تركية ^(٢) فيها خنجر على عادة الأتراك ولكن أشراف مكة رفعوا
عن مصاهرة غيرهم فلا تزال سماتهم وأزيائهم عربية خالصة . ومن عادة أهل مكة
الاصطياف بالطائف وهو مكان طليق الهواء غزير الماء جم الرواء تكثر فيه الفاكهة
وأخصها الخوخ والعنب وتعرف في وجوه أهله نضرة النعيم وأجمل مصطاف فيه
مكان يسمى «شبرى» أنشأه أحد أشراف مكة وسماه باسم «شبرى مصر» . والطائف
في الجنوب الشرقي من مكة وعلى بعد ثمانى عشرة ساعة للراكب وليس أطف منه
هواء إلا جبل الهدى الذى بينه وبين الطائف مسيرة ثلاث ساعات إلى جهة مكة .
ولأهل مكة ولوع بالإنكثار من الأثاث والرياش في بيوتهم كما أن لهم ميلا شديدا
للإكرام الضيف . وإنك لتعرف في وجوههم وداعة من جاور البيت وتقرأ في صفحاتها
شهامة العرب وعزة النفس وهم يتأقنون في الملابس مع عفة وحياء . وقد تخرج
نسائهم إلى الأسواق محجبات مؤتررات . وهم لا يسرفون في نفقات الأفراح والمآتم .
وأسواق مكة شرقية في مظاهرها ومتاجرها فهي مسقوفة تكان انطليل بمصر وفيها تباع
السبح والبسط والروائح العطرية والأنسجة الحريرية والهندية . وزمام التجارة في يد
الهنود وهى أعظم وسائل العيش في مكة وإن ما ينفقه المحتاج في الموسم لكفيل بترفيه ^(٣)
عيش أهلها وكثير منهم يكسبون عيشهم من إرشاد الحجيج ^(٤) في الطواف وهم المطوفون ،
ومنهم من يتكسبون بنقل الناس وأمتعتهم على الإبل ، ومن يعيشون من صدقات
المحسين في الملاجئ وفي المسجد الحرام . ويحمل إلى مكة كل عام شيء كثير من غلة

(١) قفطان (٢) حزام (٣) حسن (٤) أولع بالشيء . ولو ما تعلق به (٥) اللباس الفاخر

(٦) يجعله لنا رزقا (٧) الحاج .

أرض مصر مع المحمل الشريف إطاعة للعُوزين من فقرائها . ونقودها شق الأنواع والأشكال فمنها النقود المصرية والتركية والهندية والإنجليزية . والتعليم في الحرم الشريف مقصور على العلوم الدينية واللغوية . وبها مدارس أخرى تدرس مختلف العلوم ولكن لا يزال التعليم ضيق النطاق . أما الحالة الصحية فتسوء أيام الموسم وتنشئ الأوبئة وتكثر الوفيات والحكومة تبذل عظيم الجهد في مكافحة الأمراض بكل ما تستطيع من وسائل العلم والإصلاح . وفي الجهة الشمالية الشرقية لمكة جبانة «المعلاة» وبها قبر السيدة خديجة وقبر أبي جعفر المنصور الذي قدم حاجاً فمات بمكة^(١١) ودفن بها وتلك غاية تصبو إليها نفوس كثير من الحجاج .

يقرب مكة على أبعاد مختلفة أسواق العرب في الجاهلية التي كانوا يجتمعون فيها كل عام للفانحة والمتاجرة والمحاكمة وهي عكاظ والمجنة وذو الحجاز ومن أرباضها المقدسة «منى» وهي شرق مكة على بعد نحو ثمانية أميال يجتمع بها الحجاج ليقفوا بجبل صرقات اليوم التاسع من ذي الحجة وبعض ليلة العاشر حيث ترى فوق ذلك الجبل جموعاً شتى من المسلمين تباينت لهجاتهم واختلفت سماتهم ، يدعون ربهم ويرجون رحمته ، ويرفعون بالتلبية أصواتهم ، فتشقى أجواز الفضاء ، وتبلغ عنان السماء ، وتدوى كأنها الرمد صدرت عن قلوب واجفة ونفوس خائفة ترجو رحمة الله وتمشى عذابه ، والكل متساوون بين يدي الله الواحد القهار ، فلا سيد ولا مسود «هُنَالِكَ الْوَلَايَةُ لِلَّهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَابًا وَخَيْرٌ عُقْبًا» . ويقرب «منى» «المزدلفة» وهي من مناسك الحج

(١١) تميل (٢) جمع ربهض وهو ما حول المدينة «الضواحي» (٣) جمع جوزه وهو الوسط

(٤) السلطان (٥) مواضع عبادات الحج .

ومن الأماق المقدسة «المروة» وهي أكمة جميلة المنظر يغرب لونها إلى الحمرة تعلمو
منازل أهل مكة وبينها وبين الصفط طريق يسمى فيه الحجّاج سبعة أشواط اسمه
«المسعى» وطوله نحو ٣٠ متراً ومنها «فاو حراء» الذي كان يتعبد فيه النبي عليه
الصلاة والسلام قبل الرسالة على حلة سيلنا إبراهيم وهو في طريق الذهاب من «مكة»
إلى «معي» على مسافة ثلاثة آلاف متراً من مكة على جبل النور ومنها ظر «تور»
التي اختبأ فيه النبي عليه السلام مع أبي بكر ليلة الهجرة .

وأهل مكة على قلة ماثها ولفح هوائها وقول أرضها لا يعدلون بها بلدا غيرها
لأنهم يرون السعادة كلها في مجاورة البيت الحرام وبين ربوع بلدهم وفي بطن واديه
وعلى سفوح جباله ، وأقصى أماني أحدهم أن يعيش تحت سماء مكة ناعما في جوار
بيتها حتى إذا مات ضمه ترى أرضها ولقد بالغ المشركون في أدنى النبي ومحبيه فهجرت
مكة أجسامهم وظلّت بها قلوبهم فذهبوا إلى المدينة المنورة فوجدوا بها أهلا بأهل
وسجراتا بغيران ، ولكن لم يفهم ذلك مكة المكرمة بل ظنوا إليها حنينهم فكانوا يتنسّمون
أخبارها ويسألون كل قادم عن أحوالها فقد قدم «أبان» على المدينة من مكة فساله
رسول الله صلى الله عليه وسلم عنها فوصف له إتحرها وتماشها فخر ووقت حينئذ رسول
الله بالعمير ، وكانت السيرة طائفة تقول : «لولا الهجرة لسكنت مكة فإني لم أوالسمة
بكان أقرب إلى الأرض منها إلى مكة ولم يظن قلبي بمكان ما احلّ لك بمكة ولم أر
القصم بمكان قط أحسن منه بمكة» .

(١) لفح النار والسموم إلحاحهما مجزها والضعف كالضعف إلا أنه أشد منه (٢) منها (٣) و (٤) بطن
طيبا الراحة بمكة .

وكان بلال رضى الله عنه إذا احتاج به الشوق إليها يرفع عَظِيرَتَهُ ^(١) قائلا :
 ألا ليت شعرى هل أبیتَ ليلة * بمكة ^(٢) عندي لأذخر وجليل
 وهل أريدنَ يوما مياه مجنّة * ^(٣) ويسدولعني شامة ^(٤) وطفيل
 ولا عجب فالنفس إلى وطنها مشتاقة وإلى أهلها تواقّة ^(٥) .
 كم متيل في الأرض يالفه الفتى * وحينئذ أبدا لأقول متدل

الورق

تسوق الإنسان مطالب الحياة ودواعى الرقّ والتقمم فيعمل ويفكر فيما خلق الله
 من الخيرات ، ويسخر موارد الطبيعة مما تبنت الأرض ، وما يكنّ في جوفها ،
 وما تجود به السماء ، وما يسبح في جوفها ، ليظفر بقسط مما تطعم إليه نفسه ، حتى
 إذا وصل إلى غاية من المدنية والاختراع ابتنى وراءها غايات ، وإذا ما اهتدى إلى
 صناعة سار في إتقانها مسترشدا بالتجربة ، وهي خير أستاذ ، مستعينا بالمثابرة ، وهي
 أعموم وسائل النجاح .

وإذا كان الإنسان قد فكّر في الطباعة ، وأسلس قيادها ، وذلل صعبيها ، وعمل
 على ترفيتها ، فمن قبل فكّر في صنع الورق الذى لا غنى للطباعة عنه ، هو عمادها ،
 وناشر فضلها ، وبجلّها الذى فيه يدقّ ماتخنى صدورها ، وما تكن سريرتها ^(٦) .

وقد عمّت فوائده وشملت كثيرا من مطالب الحياة في شتى الأغراض والمقاصد
 العلمية والدراسية والتجارية ووسائل الزخرف وغير ذلك مما لا نكاد نحصى عددا .

(١) صاح (٢) الورد أبيضه وأصفره وأحمره واليامين (٣) جبل بمكة (٤) جبل أيضا (٥) رشتاقّة

(٦) مهل (٧) أكله : ستره .

وأية أمة متقدمة الآن ترى أنها في غنى عن الورق واستخدامه في الكتب والمراسلات وغيرها؟ ومن ذا الذي ينكر فضله؟ وقد أصبح من أقوى الدعام في نشر العلم وتعميم فوائده وتقييم الشارد والوارد من فنون وآداب ، ولزم المدنية والحياة العلمية والعقلية لزوم الغذاء للأجسام ، وهو والطباعة كالجناحين للعلوم والمعارف بهما تنهض وتحقق في سماء الشعوب والممالك .

وأول من عمل الورق واستخدمه في الكتابة المصريون القدماء الذين نهضوا من قبل أن تغادر الشعوب الأخرى مهدها ، واستيقظوا والأُمم في سُبات ^(١) ، ووضعوا للدينية أساسا كالرواسي .

وكانوا يصنعون الورق من البردى ، وهونبات ينمو في أعالي النيل ، ويبلغ ارتفاع سيقانه فوق سطح الماء ثلاثة أمتار، وتحت السطح أكثر من نصف متر، وساقه كذراع الإنسان مضامة ، فيأخذون لبابه ويشقونه أجزاء يصفونها قطعاً متجاورات، وطبقات بعضها فوق بعض، ويصفونها بقطع من العاج أو بالأصداق ^(٢) حتى تصبح صالحة للكتابة ، فينقشون عليها بلفتهم ما يريدون أن يؤثر عنهم ، ولا يزال بعض هذه الصحف محفوظا في دور التحف ينطق بحمد المصريين ويشهد بعظمتهم ، وسبقهم إلى وضع دعام المدنية ، وتعيد طريقها لمن أعقبهم من الممالك والشعوب .

والصينيين في هذه الصناعة فضل لا يحصى ، فقد كانوا يكتبون على الخوص وقشور الأشجار ، ثم اهتموا إلى صنع الورق من النبات وحاء ^(٣) الأشجار في القرن الأول الميلادي .

(١) النوم (٢) ينقل (٣) قشر الشجرة .

نبات البردی



وكان العرب في صدر الإسلام يكتبون على حسب النخل وصل الحجارة ونحوها ، ولما وصلوا في فتوحاتهم إلى مدينة سمرقند بالتركستان وإلى الصين في خلافة هشام ابن عبد الملك نقلوا هذه الصناعة من الصينيين وأنشؤا في سمرقند أول معمل للورق سنة ٧٠٦ م ، وعملوا على نشر هذه الصناعة في أنحاء المملكة الإسلامية ، ومنهم انتقلت إلى أوربا وفاضت في جميع بقاع الأرض ، فمنهم تعلم الفرس وغيرهم ، ثم وصلت هذه الصناعة إلى بغداد ، وفي سنة ٧٩٥ م كانت المصانع بها مجهزة تسحق من همتها وتزبد ماتتجه ، وظلت على نشاطها والاهتمام بصنع الورق حتى القرن الخامس عشر الميلادي .

ومن بغداد انتقلت صناعة الورق إلى دمشق ومصر ، وكان يرسل منها إلى أوربا .

ولما دخل العرب الأندلس أدخلوا فيها صناعة الورق وكانوا يصنعونه فيها من الخرق البالية ، ومنها امتدت إلى فرنسا وإيطاليا وألمانيا وهولندا وإنكلترا وسمت بمالك أوروبا وأمريكا ، وقد أمدها المفكرون والباحثون بفيض عقولهم وفضل مهمهم وتمهدوها بالإجادة والرقية حتى أصبحت في أعظم درجات الجودة والإتقان .

والطريقة التي كانت متبعة قديما في عمل الورق هي أن الخرق تمزق قطعاً صغيرة وتمزق في الماء عدة أيام ، ثم تفصل وتوضع في أحواض من الخشب أو الحجر وتبقى بمُدقات باليد أو بدواليب مائية حتى تصير كالعجينة ، ثم تصب على شبكة معدنية كالمنخل لها إطار رقيق وتهز بعناية ومهارة حتى ترسب العجينة رسواً

(١١) جمع عيب وهو الذي لم يثبت طيه الخوص من السف .

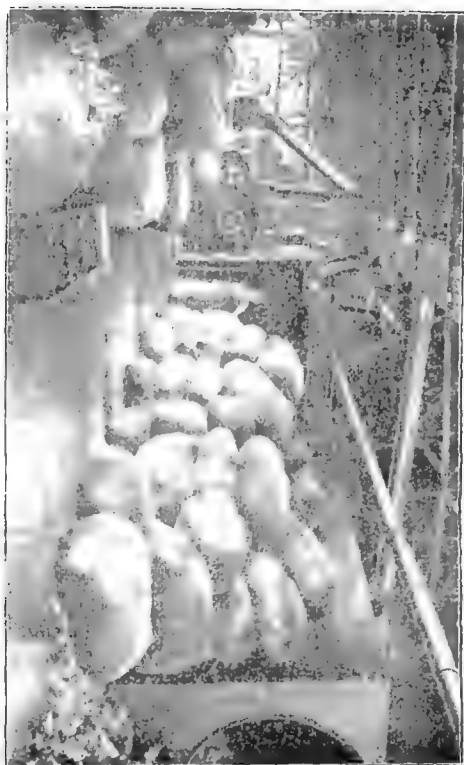
منظما ويصقّى ما فيها من الماء ، ثمّ توضع بين قطع من اللبد وتضغط في مكبس ، ثمّ يصقل الورق ويهذب فيصير معدّا للاستعمال .

وإنّ في هذه الطريقة لدليلا على ما كانت عليه الصناعة ووسائلها وآلاتها من سذاجة ، فصناعة الورق لم تكن سوى تحويل المواد الأولية إلى عجينة ترقيق وتبسط بالأيدى ، وما أشبه عمل الورق إذ ذاك بعمل الرقاق فيه أيضا يحول الدقيق إلى عجينة ثمّ تدحى وترقق بيد الخبّاز الماهر الذى وصفه ابن الرومى^(٢) في قوله :

ما أنس لآنس خبّازا مررت به * يدحو الرقاقة مثل الحج بالبصر
ما بين رؤيتها في كفّه كره * وبين رؤيتها قوراء كالقمر^(٣)
لأ بمقدار ما تشدح دائرة^(٤) * في بلعة الماء يلقي فيه بالجر

ولكنّ صناعة الورق لم تقف عند هذا الحدّ من السذاجة فالمُدقّات بطيئة في عملها ولم يكن يدّ من التفكير في غيرها فساخت المفكّر من الحاجة — وهى أساس الاختراع — إلى اتخاذ المُدقّات من الحديد وصنعت لها حروف حادة لتزريق الخرق ، وفي منتصف القرن السادس عشر اخترع الهولنديون آلة لتزريق الخرق ودقّها تتركّب من حوض حديدى في أسفله سكاكين ناتئة وفيه أسطوانة تدور على محيطها سكاكين تتلاقى مع الأولى ، فإذا أدبرت الأسطوانة مَرَّقَتْ الخرق في وقت قصير . وقد نمت صناعة الورق كما ينمو الإنسان ، وتقدّمت على مرور الزمن ، وساعد على تقدّمها استخدام المواد الكيميائية التى تنظف عجينة الورق وتذيب المواد الغريبة أو تجعل لإزالتها بالغسل سهلة .

(١) تبسط (٢) شاعر من شعراء الدولة العباسية (٣) واسعة (٤) تعظم .



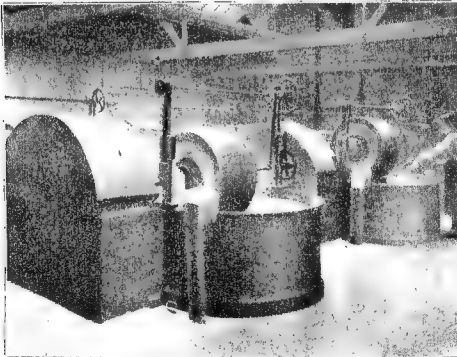
بسات الرعم

وازداد تقدمها بعد استخدام الآلات البخارية التي كفت الإنسان كثير البطء وكبير العناء ، وبمكنت الصانعين من الاقتناء والإتقان حتى أظهروا من دقة الصنع ما يعد من خير أمثلة الجودة والإحكام .

ويصنع الورق الآن من مواد كثيرة نباتية كاللّكّان والقنب ومن تبن القمح والشعير ومن أصناف كثيرة من الخشب ومن الرّم ، والرّم نبات يأتي من إسبانيا وفيه جزء عظيم من المواد الخشبية وأليافه متينة ، ويصنع الورق الصيني والياباني المين من قشر أشجار التوت ، وما ترى من تباين في أنواع الورق من متانة ورخاوة راجع إلى المواد المصنوع منها ، فالمواد التي تكون أليافها طويلة تينة يصنع منها ورق متين لين ، والتي تكون أليافها قصيرة يصنع منها ورق سهل التمزيق .

وصناعة الورق الآن تتضمن عمليتين : الأولى إعداد المواد الأولية وتحويلها إلى عجينة ويدخل في هذا التنظيف والإغلاء وإزالة المواد الملوثة وغيرها لتصير بيضاء نقية ، والثاني تحويل العجينة إلى ورق وفي هذا تحديد سطح الورق وصلقه وغير ذلك .

مراحل الإغلاء



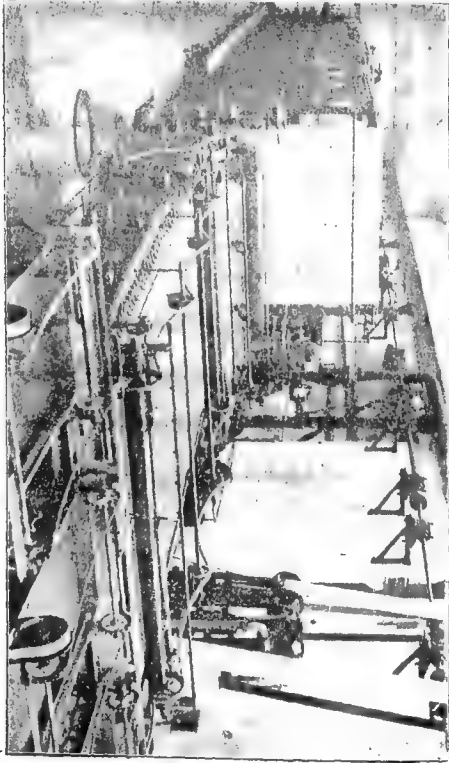
مراحل الإغلاء



الورق بعد عمله



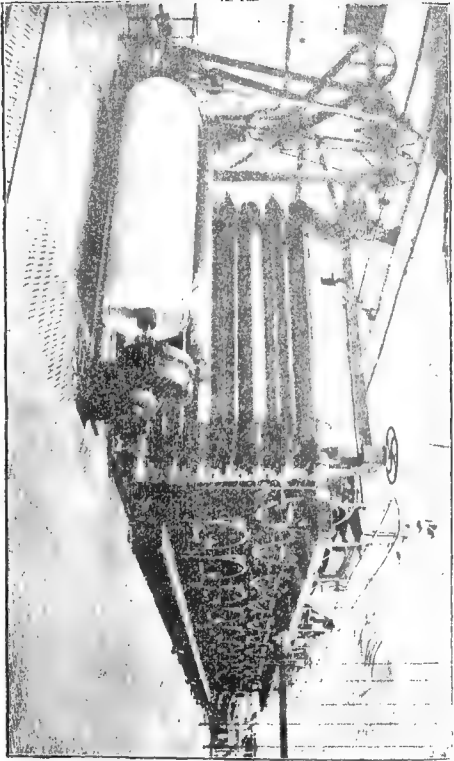
ويستعمل للإغلاء مراحل كبيرة يوضع فيها بعض المواد الكيميائية كالصودا
أو الجير الكاوي لتنظيف المواد الأولية، ثم يزال السائل من أسفل المراحل ويتركز



يعمل الورق

ذلك حتى يتم التنظيف ، وجميع أنواع الورق يضاف إلى عجيتها مادة صمغية ماعدا ورق التجفيف ، ويضاف إلى بعض الأنواع مواد ترابية كتراب الخرف وكبريتات الكلس ونحو ذلك لئلاّ مسام الورق فيسهل صقله ولكن الورق الجيد لا يضاف إليه شيء من هذا .

وأكثر ما يستحق الإعجاب في صناعة الورق ما يستخدم لصنعه من الآلات فهي في عملها مثال من أمثلة الإقنان الفائق والإحكام البديع ، تسير بنفسها كأنها لإنسان ماهر يحكم أمره ويفهم دقائق عمله ويتممه بعناية وتدير ، فإن المواد الأولية بعد إعدادها وتحويلها إلى عجينة تصبّ بقدر معلوم فوق شبكة من المعدن تدور حول أساطين ، وتمتدّ دورانها فوق أنابيب كثيرة كي يبقى سطحها منتظماً ، ثم تنتقل العجينة فوق سطح من اللباد إلى عدد كبير من الأساطين بعضها لتنظيم سطح الورق وبعضها لتجفيفه وأخرى لصقله وإزالة ما على سطحه من آثار الشبكة أو قطع اللباد وفي بعض هذه الأساطين مراوح تتحرك لإتمام التجفيف .



: اساطين لتنظيم سطح الورق ولتجفيفه ولصقله

ورق الكتابة المصقول يمتاز في سيره بإناء فيه مواد غرائية تكسبه نعومة ولعانا ،
أما ورق الصحف اليومية ونحوها فلا يصقل بالفراء ولذا ترى سطحه خشنا .
والكتابة الشافة التي تراها في الورق تصنع بأسطوانة خفيفة من السلك عليها
الكتابة أو النقش المطلوب ويضغط بها على عجينة الورق قرب نهاية الشبكة المعدنية ،
فيستمر هذا النقش حتى يخرج الورق تام الصنع في لفائف يبلغ طولها أميالا كثيرة ،
ثم يسطرو ويقطع أدراجا كما نريد .^(١)

وجميع أصناف الورق تصنع بالآلات إلا في أحوال خاصة يصنع فيها باليد
كأوراق النقد وورق الرسم وغير ذلك من الأنواع الدقيقة الصنع .

أما الورق الشاف المستعمل في الرسم فهو نوع من الورق اللسيحي المتين يهين
بمواد دهنية معدة إعدادا خاصا ثم يجفف فيصير كما تراه .

ويستعمل الورق الآن في أغراض شتى ، والنوع المتين منه لا يقل عن الخشب
صلابة وقوة ، وتتخذ منه أطر المجلات ، ويصنع من الورق أيضا كثير من اللعب
وأدوات الزينة والمناديل وأكياس الدقيق وغيره والأواني المتينة والأطباق ونحوها ،
وقد اتخذ منه سكان النمسا وغيرها في السنوات الأخيرة حلالا تلبس مدة غير قصيرة ،
وتفضل الحلل النسجية برخص ثمنها ،

(١) جمع درج وهو الذي يكتب فيه ونسبه الآن "فرغ ورق" .

تقرير

لجنة التجارة والصناعة عن صناعة الورق في مصر

أنشئت هذه اللجنة بقرار من مجلس الوزراء مؤرخ ٨ من مارس سنة ١٩١٦ ميلادية للنظر في التدابير التي تؤدي إلى إيجاد أسواق جديدة لتصريف الحاصلات المصرية وللبحث في ترقية الصناعة والتجارة في مصر .

وقد ضمنت اللجنة تقريرها بمعلومات ذات قيمة واقتراحات نافعة . وإننا هنا نلخص بتصريف يسير ما جاء في هذا التقرير عن صناعة الورق في مصر .

بدأ التقرير مذكّره عن صناعة الورق بموجز تاريخي "يذكر القارئ بأن مصر التي طالما افتتحت قريحتها سُبُل الابتكار في مجاهل الصناعة كانت أيضا مهد صناعة الورق . فلا غرو إذا اتجهت الأنظار إلى هذه المسألة كلما قامت في القطر نهضة صادقة ترمي إلى إيجاد حركة صناعية تستغل موارد البلاد وتغني بمطالب السكّان" .

ثم جاء في المذكرة بعد ذلك ما يأتي :

إن العوامل اللازمة لنجاح كل صناعة كبيرة هي :

(أ) المواد الأولية (الخامات) .

(ب) العمال .

(ج) الوقود .

(د) التصريف .

(هـ) رأس المال .

(١) المواد الأولية - وهى على أنواع . فإما أن تكون أليافا نباتية (كالبردى والحلفاء الخ) . وإما أن تكون قشاً من جميع الأنواع (كقش الأرز وفضلات قصب السكر وتبن الحبوب الخ) . وإما أن تكون منسوجات (كالخرق والقطن الخ) . وقد اقترح المسيو "تادل" الانتفاع بالبردى لصنع رُبّ الورق بعد ما قضى زمناً طويلاً في معالجة هذا النبات المسائق للغرض المذكور . ومن البردى نومان يكثران في بحيرات الوجه البحريّ ويغطيان مساحات واسعة منها . ويقدر ما يُفسله الفردان الواحد منه كلّ سنة ٩٥ طنّاً من البردى الأخضر ، فإذا جفّف هذا المقدار في الشمس أصبح نحو ٧٥ طنّاً من البردى النافى . ويمكن الحصول بلا عناء على ٦٥ ألف طنّ من البردى الأخضر أى ٥٠ ألف طنّ من البردى النافى يستخرج منها ٢٥٠٠ طنّ من ربّ الورق باعتبار أنّ نسبة الإنتاج ٨٥٪ .

ولما كانت الاختراعات والكشوف في مصر غير محمّية كتم المسيو "تادل" طريقته أشدّ الكتمان فلا يسعنا إبداء الحكم فيها . ولكنّ النماذج التى عرضها على لجنة التجارة والصناعة أرسلت إلى أوروبا وفحصها الخبيرون فقالوا إنّها من أحسن ما يفي بالغرض .

وقد وضعت مشروعات عدّة لعمل ورق اللّف وغيره من أنواع الورق وكلّها مبنية على الطريقة القديمة وهى تقطيع القشّ ثمّ طبعه في مراحل كرية ، ثمّ طحنه بطواحين مخروطية .

وارتأى المسيو "وير" صاحب أحد هذه المشروعات أن يصنع ورق اللّف من فضلات قصب السكر . واقترح المسيو "راديس" صنعه من قشّ الأرز . واقترح

المرحوم الحاج خليل عفيفى أن تصنع أنواع الورق كافة من قش الأرز أيضا وليس لهذه المواد ثمن يذكر في أيام السلم .

وإذا استعملت فضلات قصب السكر في صنع الورق فإن المصانع اللازمة تنشأ في الوجه القبلى حيث تنتشر زراعة قصب السكر وهى تشغل نحو ٥٥٠٠ فدان يخرج الفدان منها في المتوسط أربعة أطنان من الفضلات فيكون المجموع ٢٢٠٠٠٠ طن تكفى عمل ١٧٠٠٠٠ طن من الورق باعتبار أن كل ١٥٧ كيلو من القش كافية لإنتاج ١٠٠ كيلو من الورق .

وتوافر المواد الأولية بهذه الكثرة يجعل الأمل عظيما في أنه متى وفّت صناعة الورق بحاجة القطر وحاجة البلاد المجاورة أمكن توسيع نطاقها توسعا عظيما بتصدير الرب إلى البلاد التى تستنفد منه كمية كبيرة كفرنسا وإنجلترا اللتين تستجلبان الرب من السويد والنرويج .

(ب) العمال — إن أجور العمال في مصر أرخص منها في سائر البلدان ولا يصعب تعليم العمال المصريين صناعة الورق لأنها لا تقتضى اعتمادا خاصا كصناعة الغزل مثلا وقد عرف العامل المصرى بأنه من خير العمال .

أما المستخدمون اللازمون للسيطرة والمراقبة فهؤلاء لا يشترط فيهم أن يتجاوزوا معارفهم الفنية الحدة الذى يكتسب من التجربة المقرونة بالذكاء وحسن الإدارة . وإننا نرجو ألا تجد صعوبة في اختيارهم من المصريين ولا سيما بعد ما أخذ التعليم الفنى يذكى الآمال ويبشر بالنجاح .

إن هذا القول لا ينطبق على كبار الرؤساء والمديرين فهؤلاء يشترط فيهم أن يكونوا محيطين أتم الإحاطة بأسرار الصناعة في فروعها كافة نظريتها وعملها حتى

يكون في طاعتهم على الدوام الرق بها في معارج التقدم إما بفضل مبتكرات قرائعهم وإما أخذاً بما يتبدعه غيرهم من ضروب التحسين .

ونحن في هذا المقام لا يسعنا إلا أن نكرر الأمانة التي أصريت عنها لجنة التجارة والصناعة إذ أشارت على الحكومة أن تتوسع في تعليم الكيمياء بمدارسها العالية وأن تجعل لهذه المادة مثلة أرفع مما هي عليه الآن .

ومن البدائنه المقتزدة أت أجدر الصناعات بالنجاح في بلد زراعى كصرهى الصناعات القائمة بنوع خاص على الاستفادة من حاصلات الأرض . ولما كان معظم هذه الحاصلات يتكون من مواد عضوية متنوعة الأجزاء فلا حرج إذا قلنا أننا إذا استثنينا صناعات القطن «الحلاجة والكبشي والغزل والنساجة» التي هي من النوع الآلى بجميع الصناعات المصرية «كصناعات السكر والعسل والصبايون والأدهان والقول ورُبّ الورق والسماد والأسمت الخ» كلها من النوع الكيميائى المحض .

لهذا كان من الضروري أن نذكر في صلور النابذة المصرية حبّ الاستقلال بإدارة مشروعاتهم الصناعية ، وأن نزودهم بأكبر قسط من المعارف الكيميائية .

(ج) الوقود — إذا كان سعر الفحم كسعره قبل الحرب فإنه لا يكون عبثاً فادحاً على صناعة الورق فإن الكيلو من ورق اللّف يقتضى كيلو من الفحم والكيلو من أنواع الورق الأخرى يقتضى كيلودين من الفحم . أما إذا ظلّ سعر الفحم غالباً من الممكن استعمال جانب من قشّ الأرز أو فضلات قصب السكر فمن ذلك بمصر ما يكفى الورق والوقود . وفي هذه الحال تستعمل أفران خاصة ليس في استخدامها أدنى صعوبة .

وإذا أنشئت مصانع في الوجه القبلى أمكن الانتفاع بالقوة الناجمة عن انحدار الماء في نجران أسوان وهى مسألة معروضة للنظر على الحكومة المصرية .

(د) التصريف — هذا أمر مضمون في القطر نفسه فقد بلغت واردات الورق إلى مصر مبلغا يزيد على ما يستطيع مصنع واحد أن ينتجه كما يعلم من إحصاءات المكوس "المحرك" .

فيرى مما تقدم أن أركان النجاح الكبرى اللازمة لصناعة الورق وهى المواد الأولية والعمال والوقود والتصريف متوافرة في مصر . وهذا ما حمل لجنة التجارة والصناعة على الإشارة بتلخيص هذه الصناعة لما يربى لها من النجاح .

تبقى مسألة تدير رأس المال وهى العقبة الكبرى في سبيل كل مشروع صناعى في مصر فإن الغالب أن أصحاب القرائح وذوى الابتكار لا يملكون المال اللازم لإخراج مشروعاتهم من حيز القول إلى حيز الفعل . وهذا ظاهر من المباحث التى عرضت على لجنة التجارة والصناعة فإنها مفعمة بالأدلة على حسن النية والرغبة في بذل قصارى الجهد، وحافلة بالبيئات على المعرفة والعلم ، ولكن ليس فيها مشروع واحد مؤيد بالمال الذى يكفل لها النجاح مع أن أصحابها لم يتركوا بابا إلا قرعوه طعما في إحراز النجاح وتحقيق الأمانى في هذه السبيل .

وهذا هو منبع الضرر الجوهريّ النازل بتجارتنا وصناعتنا أى سوء نظام الثقة المالية . ومنشأ الصعوبة هو أن الثروة المصرية تكاد تكون كلها مستترقة في الأرض والعقار . واستغلال هذه الأملاك لعمل الفرد يوافق مقدرة أهل البلاد موافقة خاصة .

فالصناعة التى تستمد قوتها من التعاون والاشتراك لا تجد لها من الاهتمام متسا ولا يعنى بها سوى أفراد يصدون على الأصابع . فالذين يطلبون التعاون المالى لا يستطيعون الاعتماد على أموال مصرية بحجة بل لا مناص لهم من الاتجاه إلى أصحاب الأموال الأجنبية ، وهؤلاء يشترطون لاستخدام أموالهم فى بلدان أجنبية بعيدة عن أوطانهم أن تأتيهم بريح وافر يزيد على ما يحثونه منها أو استخدموها فى بلادهم .

هذا ولا يخفى أن رموس الأموال المطلوبة للصناعة المعتدلة يمكن تديرها فى الاسواق المحلية .

ويمكن القول بأن مسألة رأس المال فى صناعة الورق قليلة الأهمية بالنسبة الى سائر الصناعات ، ولا سيما إذا ذكرنا أن ارتفاع هذه الصناعة فى مصر لا يكون إلا تدريجيا ، فيبدأ بصنع ربّ الورق ثم ورق اللّف ثم سائر أنواع الورق ، ولا يخفى على ما ينفق من الأموال فى هذا المشروع إذا جرى العمل على هذه الوتيرة لأنّ الحركة الصناعيّة تسير بخطوات مأمونة وإن تكن بطيئة نحو الصناعة الكبرى التى نرجو أن تصل إليها الأجيال المقبلة متى تمّ إعدادها بفضل التعليم الفنى الحديث العهد فى مصر ، ومتى تشبعت أفكارها بروح التعاون الذى ظهرت باكوته فى الأيام الأخيرة بفضل القنابات الزراعيّة ، ومتى أدرك القوم حق الإدراك أن رقى البلاد لا يتم إلا بتأزّد العوامل الثلاثة العظمى وهى الزراعة والصناعة والتجارة . وهذا ما يرجوه كلّ وطنيّ مخلص من صميم قلبه لرشاء مصر وعظمتها .

المطابع

(١)

لم تصل الممالك إلى ما نرى من رفعة وتقدم إلا بعد أن كدّت وتعبت وقطعت
أشواطاً بعيدة ومرّاحل طويلةً وسلكت مفاوز وبجاهل قضت فيها السنين وسارت
تكبو وتنهض وتحبو وتدرج . وأنا لنجنى ثمار ما غرس الماضون ونبنى على أساس
وضعه السابقون ونقخذ من نافع المختبرات مراكب ذللاً نصل بها إلى جليل الغايات
والمقاصد .

ولئن نظرنا لنعلم أية الاختراعات أعظم أثراً في نشر العلم وتذليل صعباته وجعل
منه صافياً وجناه دانياً لنجدت^(٢) للطابع من جليل الفوائد ما تشهد به الآلاف من
الكتب القيّمة والصحف النافعة والمؤلفات الكثيرة في متنوع العلوم والفنون
وناصح المباحث والآراء ولا يكاد المفكر يخطّ شيئاً مما تجود به قريحته ويمليه عليه
ضميره حتى تنشر الطباعة نفعه وتذيع فضله في أقاصي الممالك وبقطف الباحثون
والمتعلمون من ثماره ما ينفعون به ويتفعمون . وما ظنك باختراع خفف عن المتعلمين
والمثقفين عناء يلتهم من وقتهم القدر الكبير ويستنفد من مصتهم وقوتهم ما لا يقدر
بمال . وماذا نكّنا نعمل لو لم تُشَدَّ المطابع أزر العلم وتعن على إقامة دعام التعليم
في المدارس وغيرها ؟ إذاً لعانينا من المشاق جسيماً ، وللاقينا ما لا قبل لنا باحتياله ،

(١) كما : انكب على وجهه (٢) درج الصبي من باب قد : مشى قليلاً في أول ما يمضي (٣) دَلَّت

الدابة : مهلت واتقادت فهي ذلول (٤) الجنى : ما يجنى من الشجر ما دام غصاً (٥) الأزر :

ولأصبحنا لانجد من الكتب ما نفدّي به العقول ، ولا من الصحف ما نتعرف منه الآراء والأفكار ، ولا من الروايات والكتب الفكاهية ما نروح به النفس ونجنى منه خلقا وأدبا وطبا ، ولكانت الفوائد العلمية محصورة في دائرة صغيرة لا يصل إليها إلا القليل .

وقد اتخذت المطابع في تقدمها وارتقاها طريق سواها من المخترعات ، فلم يكن رقيقاً طفرة ولم تولد ^(١) يافعة ، بل نشأت وليدة ثم شبت وترعرعت بعناية المخترعين والمفكرين الذين لا يألون جهداً في أعمال العقل وكبد القرائح وتلك سنة الله في خلقه .
وإننا لنداكرون مجمل المراحل التي قطعتها في نموها وتدرجها :

فكر الصينيون والعرب في الطباعة قبل أن تعرفها أوربا بعدة قرون . وقد كان الصينيون ينقشون الحروف بارزة معكوسة على قطع من الخشب على قدر ما يريدون من مساحة الصفحات . وهذا شبيه بما يصنع الآن من نقش الكتابة على الرخام . ثم يهن السطح بالخبر ويوضع الورق فوقه فتطبع الحروف كما تنطبع أختام مصلحة البرد وغيرها من الأسماء المنقوشة على قطع المعادن المستعملة الآن .

وقد ترسّمت أوربا هذه الخطا ونسجت على هذا المنوال فاستعملت هذا النوع من الطباعة ، وظلّت الحال بها كذلك حيناً من الدهر لم يكن العلم بين ربوعها شيئاً مذكوراً ، وما كانت تجدد إلى تعميم المعارف وتبادل الآراء ونشر الأفكار وسيلة غير هذا النوع البلى من الطباعة ، فقد كانت كل صفحة يراد طبعها تتطلب نقشا جديدا في الخشب لإيجاد قالب جديد لا يصلح للاستعمال إلا في حال واحدة .

(١) الوثب في ارتخاع (٢) اتقى قارب العشرين (٣) لا يدعون جهدا .

. ولو استمرت الحال على ذلك ما كنا لنصل إلى مدى بعيد في التعليم والتعلم والارتقاء .
ولكن العالم الآن شأن آخر في المدنية والحياة العلمية والعقلية . بيد أن الله قد قيض^(١)
للناس من وضع أساس الطباعة بحروف متفرقة فقد جاء "حنّا غوتنبيرغ"^(٢) فكان له
الفضل في اختراع هذا النوع من الطباعة .

ولد غوتنبيرغ في مدينة ميونخ في ألمانيا سنة ١٣٩٧ م ثم ذهب حين شب إلى
مدينة استراسبرغ وعاش بها ردها من الزمن وقد كانت تلوح عليه مخايل المهارة في علوم^(٣)
الآلات والنقش على الأحجار وصقل المرايا ونحو ذلك من العلوم والفنون . ثم عاد
إلى مدينة ميونخ واشترك مع صانع غني يسمى فوست^(٤) فأمده بالمال لإبراز اختراعه
في عالم الطباعة . وبعد مدة انفصلا سنة ١٤٤٥ م وأنشأ غوتنبيرغ مطبعة أخرى
وظل يعمل حتى آخر حياته سنة ١٤٦٨ م . وقد عم اختراعه كثيراً من مدن ألمانيا
التي لا تزال إلى الآن مشهورة بالطباعة وتجارة الكتب . ثم انتشر في كثير من ممالك
أوروبا وتناولته الأيدي بالاهتمام والعقول بالتهذيب والتحسين . وكانت مطبعة
غوتنبيرغ وحروفها مصنوعتين من الخشب وهي أشبه شيء بالمكابس الضاغطة التي
تستعمل الآن .

وقد وصلت المطابع الخشبية أرقى درجاتها في الإتقان والدقة بفضل بلايو من^(٥)
مدينة امستردام . وقد ظلت مستعملة إلى أواخر القرن الثامن عشر حتى جاء الإرل
ستنبوب الإنكليزي فأدخل على المطبعة تغييراً كبيراً حين أراد طبع كتاب له في علم^(٦)

(١) سبب (٢) Gutenberg. (٣) مدة طويلة (٤) جمع غبيلة وهي المنزلة

أي ظهرت عليه علامات المهارة (٥) Fust. (٦) Blaen. (٧) Stanhope. (٨٦٣ — ١٥٧١)

. Stanhope. (٧)

الطبعة فاستعاض الحديد عن الخشب . ثم جاء بعد ذلك أمريكي يسمى "كليم"^(١) من مدينة فيلادلفيا فاخترع مطبعة تمتاز عن غيرها بالحققة والسهولة والسرعة . وفي كل هذه الأنواع كانت السطوح الأسفل الذي تصف عليه الحروف والأعلى الذي يستخدم للضغط مستويين حتى جاء «فردريك كونز»^(٢) الألماني سنة ١٨١٢ لجعل السطح العلوي أسطوانياً . وقد استرعى هذا الاختراع نظر المستر «ولتر»^(٣) صاحب صحيفة «التيمنس» فطلب إلى فردريك أن يصنع له مطبعة ذات أسطوانتين تطبع صفحتين في وقت واحد فأتم له ذلك سنة ١٨١٤ م .

وقد حتمت منافع المطابع وعظم شأنها وازدادت فوائدها حين استخدم البخار في إدارتها . ففي ٢٨ من نوفمبر سنة ١٨١٤ م ظهرت صحيفة التيمنس في مطبعة يديرها البخار وقد اضطر المستر «ولتر» المتقدم أن ينقلها سراً مخافة أن يعلم بها عمال مطبعته فيتذسروا أو يمتدوا فيحدثوا ما لا يحمد مغيبته . وفي الساعة السادسة صباحاً كان العمال ينتظرون الشروع في عملهم فجاءهم صاحب «التيمنس» وقال إن الصحيفة قد طبعت بالبخار وأنذروهم بما أعد لهم من وسائل القمع إذا جئوا إلى العنف ووعدهم أن يقيمهم إذا أدخلوا إلى السكنية فلم يسمح لهم إلا الإذعان . وقد استمرت هذه المطبعة مدة سنين وكانت تطبع في الساعة ألفاً وثمانمائة صفحة .

وفي سنة ١٨٤٨ م صنع «الميرالاي هو»^(٤) الأمريكي مطبعته المشهورة باسمه ، يوضع فيها الورق لفائف كبيرة فتخرج الصحف مطبوعة مقطوعة . وقد كانت

(١) Clymer. (٢) Friedrich. Konig (٣) Walter. (٤) فم من باب

فتح قهره وذلك (٥) مالوا (٦) أدخلوا إلى السكنية لزموها وأطاعوا لها (٧) Colonel Hoe.

هذه المطبعة تخرج خمسة عشر ألف نسخة في الساعة وقد تقدّمت الآن وزيدت
أساطينها حتى أصبحت تطبع في الساعة مائة وخمسين ألف نسخة من صحيفة فيها
ثمانى صفحات .

وهناك من المطابع الآن أنواع شتى تتراحم في الإجابة وتتسابق في الاقتتان ،
وتتبارى في خدمة بنى الإنسان .

المطابع

(٢)

أشرفت الطباعة في سماء مصر في أواخر القرن الثامن عشر . وأول مطبعة عربية
دخلت هذه الديار هي التي كانت مع اللجنة العلمية التي حضرت مع " نابليون بوناپرت "
سنة ١٧٩٨ م ولما تولى المغفور له محمد علي " باشا عرش مصر أسس المطبعة الأميرية
على دعائم مطبعة نابليون سنة ١٨٢٠ م وكان يطبع عليها الوقائع المصرية وغيرها من
الكتب والمطبوعات التي من نفعها وذاع فضلها .

ثم تتابعت المطابع وأخذ كثير من الناس يستحضرون أنواعا منها فأحيوا بذلك
اللغة وعلومها وآدابها وعمّحوا العلم وقربوا مثاله وعبدوا سبيله ^(١) . وأول مطبعة من النوع
الأسطواني استخدمت في مصر هي التي استحضرها صاحب " المؤيد " سنة ١٩٠٧
ثم تلتها صحف أخرى فعميت باستخدام هذا النوع من المطابع

(١) عبد الطريق ذلّه ومهله .

أما حروف الطباعة فقد كانت في أول نشأتها حين اخترعها «غوتنبرغ» تصنع من الخشب . ثم صنعت من الحديد وكانت حينئذ تسبك باليد في قالب يصب فيه دُوب المعدن وهو مزيج من الرصاص والقصدير و «الأنثيمون» وقد يضاف إليه شيء من النحاس .

وفي سنة ١٨٢٢ م صنعت أول آلة لسبك الحروف ووصلت إلى درجة عظيمة من الإتقان سنة ١٨٨٨ م .

وتسبك الحروف الآن كي تصد للطبعة بطريقة تمكن من سبك قوالب أخرى على شاكلتها، وذلك بأن تجمع الحروف وتصف ثم توضع عليها قطعة من الورق المبلى أو الشمع أو نحو ذلك وتضغط حتى تظهر الحروف ظاهرة ، ثم يصب عليها السائل المذاب فتظهر الأسطر والصفحات على شكل كتلة واحدة فيها الحروف بارزة مصفوفة صفًا متقنا محكما فتوضع في أسطوانة المطبعة ويكرر ذلك مرارا حتى نحصل على القدر المطلوب من الصفحات في زمن قصير .

أما جمع الحروف وترتيبها فهو عمل يلقى شاقا ويستخدم فيه العمال الذين يلتقطون الحروف من أمكنتها ويصفونها بأيديهم ويجمع العامل الشيط في ثلاث ساعات صفحتين من الصفحات المعتادة للكتب . ولا تزال هذه الطريقة مستعملة في كثير من المطابع أو جميعها . غير أن المختبرين والمفكرين لم يقفوا عند هذا الحد بل دأبوا وشغذوا قرائحهم ليستنبطوا ما يذل الصعاب ويخفف العناء ويرق بالطباعة إلى حد عظيم فاخترعوا آلات تأتمر بأمر الإنسان وتخضع لإشارته في جمع الحروف وترتيبها صفوفا مرصوفة وفي أدوات من الحديد لها أزرار كآلة الكتابة تحرك بالأصابع فتجمع

ما تريد من الحروف وتصفها وتضغطها على الورق المعد لذلك ويصب فوالب المعدن على الحروف الموقوفة بالضبط فتكون الصفحات ثم تعاد الحروف الأصلية إلى أمكنتها وتعمل مرة أخرى في تكوين صفحات جديدة. ويستطيع المتمرن أن يجمع بهذه الآلة في الساعة ٤٨ صفحة وفي هذا من توفير الوقت وتخفيف العناء ما لا يحمد مقداره الإنسان.

ومن المطابع نوع آخر هم نفعه وأضاف إلى فضل الطباعة محاسن زادت من شأنها وهو "مطابع الحجر". كشفها الماني^(١) يسمى سنفلد سنة ١٧٩٦ م فقد اهتمدى إلى كشف حجر من صفاته أن تثبت فوق سطحه المواد الدهنية أو الزيتية، وبمعلوم أن هذه المواد لا تمتزج بالماء بل تتغير منه وينفر منها ولذلك تكتب الصفحات أو ترسم الصور المراد طباعها بحبر زيتي مخصوص فوق الورق المغلى بطبقة من الفشا، ثم توضع الورقة فوق الحجر وتضغط فتثبت الكتابة أو الرسم، ثم يوضع الحجر في آلة خاصة تدار باليد أو البخار أو الكهرباء فيتحرك ذهابا وجيئة حتى يلمس سطحه أنطوانة تبلله بالماء وأخرى تجيء بعدها فتدهن سطحه بالحبر الزيتي فوق الماء. غير أن الحبر ينفر من الماء ولا يثبت إلا على الكتابة أو الرسم الثابت فوق السطح، وبهذا يمكن أن نطبع ما نريد، ثم ينظف الحجر "بالترول" "زيت الحجر" ويصقل بالرمل ويعد للطبع من جديد.

وإذا كان ما يراد طباعه مكونا من عدة ألوان رسم كل جزء بلونه الخاص على حجر فتكون عدة أحجار تطبع الصورة منها بالتتابع وتمز الورقة فوق هذه الأحجار فتلصق

• Senefelde. (١)

البصورة بألوانها المطلوبة . وهذه الطريقة تطبع المصوّرات التي تستخدم في دروس تقويم البلدان وغيرها وكذا الإعلانات التي تلصق على الجدران في الشوارع وغير ذلك مما ظهرت فيه قيمة هذا الاختراع العظيم . وخير أنواع هذا الحجر ما يحلب الآن من ألمانيا وإيطاليا . وتصنع الصور التي في الكتب ونحوها بطريقة أخرى وهي أن ترسم بألة التصوير الشمسي ثم تحفر بوسائل كيميائية في قالب من المعدن فيصير هذا القالب حينئذ ككروف الطباعة نستخدمه كما نريد وقد تطبع منه صورة بالحبر الزيتي ثم تنقل إلى حجر الطباعة وتطبع بالطريقة المتقدمة .

فإذا كانت الصورة مركبة من عدة ألوان رسمت بألة التصوير ثلاث مرات باستخدام زجاجات لا ينفذ منها إلا الألوان الأصلية الثلاثة : الأصفر والأحمر والأزرق . ثم يصنع من هذه الصور الثلاث قوالب من المعدن كما تقدم ، فإذا ما طبعت هذه القوالب على التعاقب أحدها فوق الآخر على الورق ظهرت الصورة بألوانها الأصلية جميعها .

تلك هي المطابع التي نفعت الإنسان وأدّت للعلم وللإنسانية خيراً كثيراً وغيرت وجه المدينة . غذاها العاملون والمفكرون فنمت وتدرّجت حتى أصبحت الآن في درجة من الرقي تسترعى الأنظار وتملأ القلوب عجباً . ولا ندري أكان العالم بالغاً حده من الرقي لولم يهد الله الإنسان لهذا الاختراع . أم كانت المدينة تنتقل من حالها الغابرة إلى هذه الحال التي تتحدث بفضيلها الشعوب ؟

فسبحان من فطر الإنسان وأحكم عقله وعلمه ما لم يعلم .^(١)

جلّ شأن الله هادى خلقه * بهدى العلم ونور العلماء

المصارف المالية

(١)

إذا مررت في الشوارع العظمى من الحواضر فقد يستوقف نظرك بنية ضخمة ذات أسس متينة ، وأركان ركيئة . وجنادل من الصم^(١) الصلاب ، قد شيدت منها الجوانب وأقيمت عليها الأبواب ، فكأنما قد قهر البناء في الجبل ، أو قد الجبل من البناء .

ذلك هو في الأغلب الشائع مصير مالى أقم حصنا لئال ، مناعته تسلب الشرير صوته ، وتحيب جويلته ، فلا تنفعه حيلة ولا يفنيه عيال^(٢) .

تجعل أموال المصارف بسراديها^(٣) في خزائن من حديد تفي أمام صلابتها كل إرادة ، ويتضايل كل عزم . حتى النار التي تلم^(٤) قتلهم . وتمز ، فلا تبقى ولا تذر . لها وقفة أمام هذه الخزائن فلا تستطيع أن تصهر حديدتها مهما اشتد هولها إلا بعد الوقت الطويل ، وفي ذلك نهزة^(٥) للساء الذى دبر أمره في هذه المصارف فيستطيع أن يرد غل النار ويخمد جذوتها قبل أن يكون منها اعتداء أو إتلاف .

يختار للمصارف قلب المدينة ليكون وسطا بين القُصَاد فتتم للناس مآربهم من غير مشقة ولا عسر ، وقد اعتيد أن تكون المصارف في مدينة واحدة متدانية ليسهل بيننا التعامل وهو كثير مشتبك ، حتى لقد اجتمعت في نيويورك في شارع واحد يسمى شارع الذهب .

(١) جمع أصم وهو الجمر الأم . (٢) جمع صلب وهو الشديد (٣) قوته (٤) الملقى والقدرة

على التصرف (٥) جمع مرداب وهو البناء تحت الأرض (٦) تدنو (٧) يتطلع جملة (٨) قرعة .

وصف مصرف

فإذا اتفق لك أن تدخل إحدى هذه البنى صعدت بعد بابها الحديدى فى سلم قليل الدرجات ، ثم دفت بابا سهل الاتزلاج يدور على وجهيه ، فيتكشف لك عن بهو ، وهو إما مستطيل أو إهليلجى^(١) ، يحيط به مناخد من الرخام يعلاها تماثيل الواقف فيه شبائبك من الصغر قد فتحت فيها نوافذ يجلس وراءها عمال المصرف ، وقد طلق فوق كل نافذة صفحة من النحاس كتب عليها نوع العمل الذى يؤديه الموظف الجالس وراءها ، فتقرأ فى هذه الصفاح السفائح "الكيميالات" ، الأوراق المالية ، الخزانة (الصادر. الوارد) ، سعر النقود ، الحساب الجارى ... الخ .
والذى يروك من المصرف نشاط عماله وحضور أذهانهم وبشاشة لقائهم وحسن هدايتهم ، حتى أنه لو دخل المصرف من لم يسبق له دخول وأفضى إلى بعض العمال بحاجته لألقى منه صدرا رحبا لما يريد ، ودلالة واضحة على الطريق التى يسلكها لحاجته ، وكأنهم يشعرون فى كل حين بأن فى عملهم معونة للناس وتسيلا لتعاملهم ، وحفظا لأموالهم ، وتيسيرا على معسرهم ، وإغاثة للمهوفهم ، فترام ظراف الشئائل ، سراع الحركات ، أيقاظا فى كل ما يؤتون .

أعمال المصارف

(٢)

١ - حفظ الودائع : قبل أن تنشأ المصارف أو قبل أن يثق الناس بها كان كل ذى مال ساهرا على حفظه ، مشغولا بتخزينه ، محتالا لمواراته ، فكان يحفر

(١) مستدير فى استطالة ٢) النحاس (٣) لوح (٤) جمع صفحة (٥) يبرك .

(١)

له في الأرض قبرا أو يُسَقِّ له في جدار لحدا ، وكأن اللصوص قد عرفوا هذه الخبايا فروعوا أهل المنازل بالسطو عليها أو نقب جدرانها . وظل أصحاب الأموال أشقياء بها حتى أنشئت المصارف فأقبل عليها من أراد لنفسه الراحة من عناء الحراسة فحفظ ماله وسلم من العدوان .

تقبل المصارف الودائع أيًا كانت ، من نقود وحلى وعروض وتجارة وأوراق مالية وعقود بين متعاملين ، تحفظ ذلك لأصحابه بأجر زهيد لا يقوم بشيء من صيانتها ، إلا النقود فلا أجر على حفظها بل يكون لصاحبها نصيب من الربح إذا قبل تخييرها .

٣ - الإقراض : من أعمال الرحمة التي تتولأها المصارف إقراض المعسرين ، لمن أعوزته بعض المال وكان يملك شيئا ذا قيمة لا يريد أن يرم فيه بيعا ، قدّمه إلى المصرف ليُرَبِّه في نظير إقراضه مقدارا من المال يكون عادة دون قيمة الرهينة فيتم ذلك الرهن بشروط عادلة ويتسلم الراهن المال على أن يردّه في ميعاد بعينه فإن لم يكن منه وفاء فليق الرهن في يد المصرف وباحه فاسترد لنفسه مقدار القرض وأعطى الراهن بقية الثمن .

ولعل أجل عمل للمصارف هو الإقراض فإنّ شيوعه في العهد الأخير على يد المصارف قد أثر في الصناعة والزراعة والتجارة أحسن تأثير ، فراجت أسواقها واتسعت دوائرها واشتدّت حركتها ، وقد اعترف رجال الاقتصاد لعهدنا الأخير «عهد الإقراض» بأعظم فضل حتى لقد قال أحدهم : إنّ شيوع الإقراض قد أضاف إلى العالم ثروة هي أضعاف ما أفادته مناجم الدنيا .

(١) الشئ (٢) يأخذه رهنا (٣) صاحب الرهن (٤) استعقه المرتين وذلك إذا لم يملك

٣ — الحساب الجارى : كذلك من أعمال المصارف فتح الحساب الجارى ، وهو عمل يشبه أن يكون المصرف فيه ويكلا عن صاحب المال ، فإنه يتسلم عنه الأموال التى ترد باسمه ويضيفها إلى ماعنده له ، ويؤدى إلى دائنيه ما يأمره بأدائه إليهم ، ويدفع إليه فى أى وقت شاء ما يطلب منه ، وهذا العمل على تسعته يؤديه المصرف على أتم حال من الضبط والأمانة .

هذا العمل إلى جانب تسهيله للتعامل يتجرى تحريف المصرف (معاملته) خلق التدبير والقصد ، فإن كثيرا من الناس إذا رأوا أموالهم بين أيديهم بذروها وأسرفوا فيها ، فإذا بعدت عنهم بعض البعد غفلوا عنها إلا فى الحاجة الحافزة والضرورة القصوى .

٤ — الأوراق المالية : يراد بها فى الاصطلاح المالى تلك الأوراق ذات القيمة المالية من نحو أسناد الحكومات كسند الدين الموحد المصرى وسند الحرب للحكومة الإنجليزية ، ومن نحو سهام الشركات كسهام شركة قناة السويس ، وشركات الفنادق ، وشركة السكر بالحوامدية ، وشركة كوم أمبو الزراعية بأسوان إلى غير ذلك مما ترى أسعاره فى الصحف اليومية .

ولهذه الأوراق سوق تباع فيها وتشتري وتلك السوق تسمى مَصْفَق الأوراق "بورصة الأوراق" فمن أراد الاتجار بها وكل مصرفا فى الشراء ودفع له مع الثمن سمسة هيئة جدًا تسعرها الحكومات لكل نوع من الأوراق ، فإن أراد البيع فالمصرف يتولى ذلك ويقبض عنه الثمن ويحفظه له حتى يتسلمه .

(١) نصيب من دين تقرضه حكومة أو شركة من الشركات وله النعم ولا شيء عليه من النعم

(٢) السهم نصيب من رأس المال الذى تكونه الشركة لتقيام بأعمالها وله كبر النعم وعليه كل النعم .

٥ - تبديل النقود : إذا أزمعت السفر إلى فرنسا مثلاً وجب أن يكون معى نقود فرنسية حتى أستطيع التعامل بها فى تلك البلاد .

وسبل الحصول عليها أن أذهب إلى أحد المصارف فى مصر وأدفع إليه النقد المصرى الذى أحتاج إلى قيمته فى فرنسا ، فيشتري المصرف بهذا المقدار نقداً فرنسياً من فرنسا ويودعه باسمى أحد مصارفها ، ويعطينى صكاً على هذا المصرف فأأخذه معى ، وحين أكون هناك أقصد إلى هذا المصرف وأقبض منه قيمة الصك نقوداً فرنسية .

وهكذا يعمل التجار فى مصر إذا هم اشتروا بضاعة من تاجر فى إحدى الممالك فإنهم يدفعون قيمتها من نقود مصرية فى أحد المصارف وهو يحولها إليه فيتسلمها من نقد بلاده .

وقد تحطت قيمة النقد فى بلد من البلاد إذا أسرفت حكومته فى إصدار الأوراق النقدية ، كما هو الشأن فى المارك الألمانى الذى قيمته الأصلية خمسون ملياً مصرياً تقريباً ، فقد تدهورت تدهوراً متالياً حتى صار لا يكاد يساوى شيئاً . وقد اتهم كثير من سكان المعمورة فرصة انخفاضه فأحرزوا منه مقادير عظيمة وجلبوا بها بضائع من ألمانيا أو ذهبوا إليها سائحين فكانت نفقاتهم فيها دونها فى بلادهم على شدة الغلاء هناك .

٦ - قبض السفائح «الكبيالات» إذا كان لك عند أحد دبر وسيلك سعة فإن المصرف يقبل أن يعطيك قيمتها قبل حلول نيعاها أو بعده ، ثم يتولى هو قبضها فيريحك من عناء الطلب ويوصل إليك حَقَّك من غير جهد أو قبل حلول ميعاده .

١٢- ورق للمصرف " البنك نوت " لمهولة التعامل تختار الحكومة مصرياً من مصارف بلادها تتق به وتأنف له بإصدار أوراق نقدية بقدر محدود يكتب على كل منها قيمتها ، فمنها في مصر ما قيمته جنيه أو نصفه أو خمسة منه أو عشرة أو خمسون أو مائة .

وهذه الأوراق لا يسمح للمصرف بإشاعتها في التداول حتى يكون قد رصّد قيمتها في خزائنه . والحكومة المصرية " تشترط على البنك الأهل " الذي خوّله هذه الثقة وقصرت عليه هذا الحق أن يحمل نصف هذه القيمة ذهباً والباقي أسناداً حكومية حتى لا يعجز عن تبديلها بالذهب إذا أريد منه ذلك في أى وقت .

هذه هي أهم أعمال المصارف ، وقد بان لك منها أن المصرف مروج التجارة ، وسيلة التعامل وغوث الملهوف وأمن الخائف . فوجب علينا أن نستفيد من هذا الأثر العظيم للدينية الحديثة ولا نتكص عن الانتفاع بمزاياه .

والعجب أن من أغنياء مصر من لا يعرف فضل المصارف ولا عظيم أثرها في حياة التعامل ، فيظلّ محروماً هذه المزايا الجليلة مسلوب الراحة على أمواله ضائع الثروة لغلطه في حسابه .

الشيء بالشيء يذكر

قد مضى قولنا في المصارف المالية وما تقوم به من الحركة الدائمة من مداولة العقود وتيسير الانتفاع بها ، فذكرنا ذلك بشأن المال ومكانه من نفوس الناس إذ كان قاضى الحاجات ، ومهتر البلبات ^(١) . وتحقيق الرضاء ، وجيب الدماء . وكان

(١) جمع لبانة وهي المازب والحاجة .

عون الشبهة ، وأقوى عدة . وأما^(٢) الفقر ، والميل^(٣) من الدهر . والمعين على
المروءات ، والآمى^(٤) للجراحات . والمحقق^(٥) لدموع البؤس ، والمبتدئ^(٦) لغيوم اليأس .
هو فى حياتنا المدنية ضرورة دفعت كل^(٧) حى إلى العمل ، وخوفته المستقبل ،
فأصبح مشغرا ، وبات مدبرا مفكرا . وخاض الغمرات ، وقطع^(٨) الفلوات . وقَلَبَ^(٩)
بطن الأرض لظهرها ، واستعان بعرق جبينه على رَيبها . لا يعرف^(١٠) هواده فى مسعاها ،
ولا غاية لبنتها . فهو المال شِعَار كل قلب ، ونَهْم كل نفس ، ونَهْزَة كل راصد ،
وطريدة كل صائد . ولقد أحسن الشاعر البليغ عبد السلام بن رُحْبَان فى الحث^(١١)
على طلبه والدأب فى سبيله إذ قال :

لا تَفِ للزمان فى منزل الضيم ولا تستكن رقة حال^(١٢)
وأمن نفسك الكريمة للو * تِ وقم بها على الأهوال^(١٣)
فلعمري لآوت أزين للمر من الذل ضارطا للرجال^(١٤)
أى ماء يورق وجهك الحمر إذا ما امتهته بالسبوال^(١٥)
ثم لا سيما إذا عَصَف الدهر بأهل الندى وأهل النوال^(١٦)
فاضت المكرمات وأقرض النا * س وبادت مصائب الإفضال^(١٧)

(١) جمع مرودة وهى ما به كمال الانسان فى مساعدة محتاج وسيرة مستعين الذى يترك ذلك (٢) المدادى
(٣) جمع غمرة وهى فى الأصل الماء الكثير والمراد هنا الشدة (٤) جمع قلاة وهى الصحراء (٥) العين
والرق (٦) الشاعر من الثياب ما لصق بالجسم والمراد بشوارب القلب ما خلق به واتصل (٧) النهمة الحاجة
أوشدة الرقة (٨) فرصة (٩) الطريدة الصيد المطلوب (١٠) شاعر عباسى من أهل حمص حميد كان
متشبيها وله مرثاة حسنة فى الحسين بن على (١١) الضيم القتل والاحتكاكة مثله . رقة الحال الفقر
(١٢) قم قمسه على الحول رعى بها فيه (١٣) الضراعة الذل والصغارح القليل (١٤) المحرو الكريم .
انتهى لم يصنه (١٥) عصف به الدهر أهلكه وذهب به (١٦) غاض الماء غارفى الأرض . باد الثوب
اندم . الافضال الجود .

(١) فقليل من الورى من تراه * يُرتجى أو يصون عِرْضا بمال
 عادٍ تميمك المضاجع للجنب فعال الحرية المكسال^(٢)
 وأدرغ يَلْمَقَ اجتياح دجى الليل يطريف مُضَبَّر الأوصال^(٣)
 وأتخذ ظهره من النل حصنا * نعم حصن الكريم في الزوال^(٤)
 لا أحب الفقى أراه إذا ما * عضه الدهر جاثما في الضلال^(٥)
 مستكينا لذى الفنى خاشع الطر * فذليل الإدبار والإقبال^(٦)
 أين جوبُ البلاد شرقا وغربا؟ * واعتصاف السهول والأجبال^(٧)

اموال الحكومات

جباها ونفقتها

مثل الحكومة في تدبير شأن البلاد كمثل رب الأسرة يتعرف لبيته حاجاته
 ويُقدر نفقته بدخله . والذي يقوم بذلك التدبير في الحكومات هو بيت المال^(٨)
 «وزارة المالية» . وضبط الجباية والنفقة يسمى ميزانا «ميزانية» .^(٩)

(١) الورى الناس . يرتجى يطلب عنده غير العرض مفاتر المرء من شرف وحسب (٢) عاد تعجب
 التذمب التين . الخريدة من النساء الطويلة السكوت انخافضة الصوت المتحجبة . المكسال من الكسل
 ولقد كانت العرب تمدح بالكسل في النساء كناية عن كونها متممة مقضية الحاجة لا تكاد تخرج مجلسها والمراد
 من البيت هجر الراحة فان ذلك شأن النساء (٣) ادرع البس اليلق عرب (يله) وهو بالفارسية القباء
 اجتياح قطع الطرف . الطرف الأصيل من التحليل . المضير المكتز الهم . الأوصال الأعضاء (٤) الزوال
 رجة الأرض المراد هنا الهول والعلب العظيم (٥) الجاثم اللاصق بالأرض لا يرح مكانه (٦) غشم
 طرفه سكن بصره ولم يرتفع كناية عن القتل (٧) الاعتصاف السير على غير هدى (٨) يدبر ويزن
 (٩) حسابها بأحكام .

أبواب الجباية

(١)

١ — الضرائب : هي أعظم مورد للحكومات تتكوّن منه ثروتها وتعتمد عليه في عمار خزائنها، وهي الآن نجبي في مصر على الأراضى المزروعة والأبنية. أما الأراضى فقد جعلتها الحكومة مراتب على حسب درجتها في الإنتاج وفرضت عليها فيما أدناها قرشان وأقصاها مائة وأربعة وستون قرشا عن الفدان في العام . وأما الأبنية فقد فرضت عليها أجرة شهر عن كلّ عام . فإذا كان لمالك منزل يُفَلُّ^(١) في السنة ستّة وثلاثين جنيها فرضت عليه ثلاثة، وهذا في غير القاهرة فالضريبة فيها عشر الدخل السنوي . وفي غير بلاد مصر نجبي على أشياء كثيرة لمعظم ممالك أوروبا نجبي ضرائب على الإيراد السنوي فتؤخذ من الموظف عن مرتبه، ومن التاجر عن ربحه، ومن الممول عن ماله .

وليس لأنواعها في عاصمة الحكومة حصر، فقد رأينا في أيام الحرب الكبرى أنّ الحكومات حين أحوزها المال فرضتها على الكمالات كالحرير والسكر والدخان والخمور . حتّى لقد فرضها بعضها على الآكلين في المطاعم إذا هم تناولوا ألوانا من الطعام فوق الحاجة . وإن الحكومات لا تكون رشيدة إلّا إذا راعت طاقة الناس ودرجة احتياهم فلم تفرض عليهم إلّا ما يستطيعون أدائه من غير جهد ولا عسر .

أما إذا هي أثقلت الكواهل بالضرائب واتخذت من قوتها وسلطانها سيفا تسكّه^(٢) على الرقاب في سبيل تحصيلها فإنّ مصير خزائنها إلى الخراب ، لأنّ المرء إذا علم أنّ ثمره جهده مقتنبة منه وأنّ كده في الحياة سيكون لغيره اقتطع أمله الذي كان يبعث من همته ، فترى الناس وقد زهدوا في العمل ورغبوا عن التحصيل .

(١) يأكل بأجرة (٢) سل السيف جرده من الفم .

وتلك العاقبة هي التي أنذرها ابن خلدون في مقدمته إذ يقول :

« اعلم أن العدوان على الناس في أموالهم ذاهب بآمالهم في تحصيلها واكتسابها ، لما يرونه حيثئذ من أن غايتها ومصيرها انتهاء^(١) من أيديهم . وإذا ذهبت آمالهم في اكتسابها وتحصيلها انقبضت أيديهم عن السعي في ذلك . وعلى قدر الاعتداء ونسبته يكون انهياض الرعايا عن السعي في الاكتساب ، فإذا كان الاعتداء كثيرا عاقبا في جميع أبواب المعاش كان القوم عن الكسب كذلك ، لذهابه بالآمال جملة بدخوله في جميع أبوابها . وإن كان الاعتداء يسيرا كان الانقباض من الكسب على نسبه . والعمران وفوره ونفاق أسواقه لآتما هو بالأعمال وسمى الناس في المصالح والمكاسب ذاهبين وجائين . فإذا قعد الناس عن المعاش وانقبضت أيديهم عن المكاسب كسدت الأسواق وانتفضت الأحوال وابتذر الناس في الآفاق من غير تلك الإيالة ، في طلب الرزق فيما خرج عن نطاقها تخف ساكن القطر وملت دياره وتربت أمصاره » .

ومن أصل الحكم التي تروى عن الملوك في توقيهم هذه العاقبة ما ينحكي من تجد على^(٢) باشا رأس الأسرة المالكة في مصر .

فقد ذكروا أن مديرا من رجاله ظن أن رضا مولاه في أن يجمع له مالا كثيرا فنسف بالناس حتى جمع ما استطاع فارتفعت الأصوات بالشكوى ووصل إلى مسامع الباشا ما آتاه هذا الغاشم فأحضره وأدناه منه وأخذ بلحيته وجعل يستل^(٣) منها الشعر واحدة واحدة فلم يجد الرجل لذلك ألما ، ثم ضم^(٤) خصلة منها بمقدار ما استلته متفوقا

(١) سلما وضحا (٢) ترقى (٣) الظالم (٤) يزع (٥) جملة من الشعر .

(١) واجبتها من منابها فنبع من تحتها الدم فوجد الرجل لذلك أكبر ألم ، فقال له الباشا :
«فهيكذا حالك مع الرعية ، فليس العنف والإعنات بأجدي من الرفق والتسهيل» .

ومن الضرائب المكوس «الجمارك» التي تؤخذ على المتاجر الواردة بحساب ثمانية
عن المائة من قيمة البضاعة في أغلب الأنواع . أما البضاعة الصادرة فيؤخذ عنها
واحد عن المائة من قيمتها . وقد وضعت كل حكومة حراسا على حدود بلادها
يسمون «خفر السواحل» يصادرون البضائع التي يحاول أصحابها تهريبها تخلصا من
دفع ضريبتها وكذلك يستون الطريق على من يحاول المرور بالمتاجر المحرّم إصدارها
أو إيرادها . وكثيرا ما نسمع أت هؤلاء الحراس اليقطين في مصر قد صادروا ما
يدخل إلى مصر خفية من القنب الهندي «الحشيش» ذلك النبات السام الذاهب
بالعقل الذي يمتلئ بضحاياه مستشفيا المجازيب بالعباسية والحقاقه .

وتما يدخل في باب الضرائب ما تأخذه الحكومة من رسوم القضايا المدنية في
مصر إذا كان الحق الذي يطالب به المدعى مائة جنيه مثلا أخذت المحكمة عنه ثمانية
فإن زاد فعن المائة الأولى تسعة وعن الثانية أربعة . وكذلك عن الثالثة فإن زاد فاشان
عن كل مائة بعد ذلك إلى الألف ، فيكون مجموع ما يؤخذ عنه واحدا وثلاثين
يلبغ منه سبعة عشر مقدما والباقي عند فوز المدعى بحقه .

ووضع الضرائب أو تعديلها لا يصير قانونا نافذا إلا بعد أن تقره المجلس النيابية
التي تحكم البلاد .

(٢) الأعمال التي تديرها الحكومة : لك كثيرا من الحكومات تقوم بأعمال
أو تحتكر صناعات تستغل منها أموالا كثيرة . فحكومتنا مثلا تدير سكك الحديد والبرق

(١) انظرها (٢) ظهر (٣) التشديد .

والبريد . والحكومة الفرنسية تحتكر الكبريت والدخان . والحكومة الهندية تحتكر الأفيون .

ويدخل في هذا الباب ما تربحه الحكومات من سك النقود فإنَّ القرش مثلا لا يكلف الحكومة من ثمن معدن وأجرة سك قيمته التي يتداول بها .

كذلك يعدّ من هذا الباب ما تربحه الحكومة مما يظهر بأرضها من معادن أو يعثر عليه من كنوز ومخبئات .

(٣) ثمن الأراضى أو أجزائها : لبعض الحكومات نظام يقتضى أن تملك ما لا مالك له من أرض بلادها ، فهي تتصرف فيها بالبيع لمن أراد أن يملك قطعة منها أو تؤجرها لمن أراد أن ينتفع بها أو يمتزها .

ولحكومتنا إدارة تابعة لوزارة المالية تسمى « مصلحة الأملاك الأميرية » نشأتها سنة ١٩١٣ لتتولى ذلك الشأن فهي التى أخذت تباع للأهالى سنة ١٩١٤ مساحة تبلغ أربعين ألف فدان بالقبوم فباعها ولم يبق منها إلى وقتنا هذا (سنة ١٩٢٣) إلا ألفا فدان لا تزال محتاجة إلى إصلاح طرق ريها ، فإذا تمّ ذلك استوفى البيع منها . وكذلك هى التى أخذت منذ سنة ١٩١٨ تباع قطعاً من الأراضى متفرقة في البلاد، وقد أتمت إلى سنة ١٩٢١ بيع خمسة وخمسين ألف فدان .

(٤) الوراثة : ومن موارد الحكومات ما يصير إليها من تركات من لا وارث له من رعاياها . والأصل في ذلك أنّ هذا المال ملك للأمة فتستولى الحكومة عليه لأنها هى القيمة على الأمة المتولّية لشؤونها .

وجوه النفقة

(٢)

يقول أرسطو : إنَّ الحكومة لم توجد إلَّا لتجعل الحياة ميسورة هنيئة ،
فالحكومة السديلة هي التي تجود بالمال لتسهيل الحياة . فإذا استطاعت أن تردَّ
الأعداء وتبثَّ الأمن وتحفظ الصبَّة وتيسر العيش وتهذب النفوس فقد أصابت
شاكلة السداد ، وأحسنَت إلى المستظِّلين بعِدالتها ، الخاضعين لقضائها .^(١)

لذلك كانت وجوه النفقة في موازين الحكومات مرتبة في المترلة كما يلي :

(١) الدفاع : يراد به ما يتفق في سبيل صدِّ الأعداء عن البلاد فتحشد لذلك
الجيوش وتُدخَّر الذخائر توقعا للواشبة وتأهبًا للذود . وإنَّ الحكومات الكبرى لتجود
في هذه السبيل جودا قد يظنُّ إسرافا وهو غاية الحكمة ، لأنَّها إذا صارت قوية الجانب
مستحصدة المِرَّة قطعمت أمل العدو في الظفر بها ، فيصدها يأسا ، وتسلم من
تمريض أبنائها للقتل . ولذلك قالوا : ليس أدعى إلى السلم من الاستعداد للحرب .

(٢) الأمن : وهو على الدفاع في المرتبة ، لأنَّ كليهما موضوعه النفوس البشرية
وسلامة حياتها . وإذا كان الدفاع متعلقا بأمر خارج عن البلاد ، طارئ عليها فإنَّ
علاقة الأمن داخل البلاد وسكانها .

يتعلَّق الأمن بتأمين الحياة بين أهل الوطن ، فنحى الحكومة الضعيف وتقتص
من المعتدى وتضبط الجاني ، وتردُّ إلى أهلهم وتقيم الآداب ، وتحارب الفسوق

(١) تاجية (٢) انتظارا (٣) الهجوم (٤) استعدادا (٥) الدفاع (٦) الحشد شدة القتال

والمرءة الحبل والمعنى أن جعلها يصير محكم القتل أي أنها تكون قوية هزينة .

ويقوم بذلك رجال الشرط والقضاء . وليس الفشل في الأمن بأهون من الفشل في الدفاع فإن الأمن إذا اضطرب حبله توابت الناس فأكل قوتهم ضعيفهم . وفي ذلك الثورة ، وفي الثورة موت الحضارة والقضاء على العمران .

(٣) التعليم : تعول الحكومات الراقية على التعليم وتبذل في سبيله المال الكثير ، لأنها تراه عوناً الأكبر على ما تريد من تهذيب النفوس وتوسيع المدنية وترفيه العيش وتيسير الرزق . فإذا راقك من مدينة أوربا مظهر فإنته إلى التعليم يرجع . ولقد بلغ من عنايتها به أن عمته حتى قضت على الأمية ، وخصصته حتى خرجت الفلاسفة .

(٤) الصحة : . تشعر الحكومات بالحاجة الشديدة إلى العناية بصحة شعوبها وتوفير الراحة لهم في أساليب معيشتهم ، لأن الحياة لا تكون هنيئة إلا بالسلامة ، والنفوس لا تستغل إلا بالعافية . فإذا جادت الحكومات في تلك السبيل فلا تستغل الجهود وتثمر العقول وتتوق الأوبئة المبيدة والعاهات المشوهة .

فهى لذلك ترصف الشوارع وتطليها بالقار ، وتتوق كدسها ورشها وتفرس على جانبيها الأشجار المظللة ، وتمتد الجواز^(١) وتفسح الميادين وتفرس الحدائق وتسير الشوارع وتبنى المستشفيات لعلاج أنواع المرض ، وتقيم المهاجر الصحية لينزل فيها القادمون من بلاد موبوءة حتى يفحصوا ، فإن ظهرت سلامتهم أبيع لهم الدخول إلى البلاد وإلا هجروا ومنعوا أن يخالطوا الناس . وللحكومة وجوه أخرى للنفقة كأصلاح طرق الرى وترقية الصناعة وإنعاش التجارة وكلها تلتقى مع ما ذكرنا ، لأن الغرض منها ترقية الأمة وتيسير سعادتها .

(١) جمع جاذة وهى جانب الطريق .

وإن علماء الاقتصاد في هذا العصر يتبنون رقي الأمة مما يحويه ميزانها من أرقام في كلا جانبيه « الجباية والنفقة » لأن كثرة الجباية دليل الرخاء وكثرة النفقة برهان الإصلاح .

وميزان كل حكومة يضبط لكل عام وتتنق بعض الحكومات من الجباية نصيبا يتخريستى « الاحتياطي » يستد به العجز الذي يحدث في بعض السنين أو يستمد منه في أثناء العام للنفقة التي زادت على ما قدر لها . أو التي طرأت لأمر غير متوقع .

وهذا مثال في الحزم تأتيه الحكومات التي هي في باب الاستطاعة أقوى من أحاد الناس . فوجب علينا أيها الأفراد أن نحذنها فنذكر للطوارئ إذ تكأمن الاستطاعة أبعد و بوصف العجز أولى .

حسم الداء خير من علاجه

يسبق إلى ذهن كثير من الناس أن يقصروا الداء على ما يعترى الأجسام من الأمراض والعلل ، مخربين ما ساء من الأخلاق والمعتقدات عن دائرة الأدواء . ولكن هؤلاء متى مرتبوا الأمر ورؤوا فيه ملبا . بما لم أنهم ليسوا فيها مسبق إلى ذهنهم على شيء من سداد الفكر وأصالة الرأي . فكل رذيلة داء ؛ وكل عجز عن تحكيم النظر الصائب والفكر الثاقب فيما يصدر عن الإنسان من الأفعال أو يجري على لسانه من الأقوال داء ؛ كما أن كل وجع يصيب البدن داء .

(١) سداد الفكر بإصابته (٢) أصالة الرأي جوده .

فالأدواء ثلاثة : جسمية وعقلية وخلقية . على أن مجال الداء أوسع من هذا : فهو ينظم كل مكروه يصيب الإنسان في نفسه أو ماله أو أهله .^(١)

وحسم الأدواء منعها باجتناب ما يخيم عنه : فحسم التخمّة بالحمية وتجنب البطننة^(٢) والقصد في القوت . وحسم الجديري بالتطعيم . وحسم الأخلاق الفاسدة بالبعد عن مجالس السوء وملازمة البيئات الصالحة . وحسم عثرات اللسان بالروية والتفكير قبل النطق .^(٣)

بيد أن من الأدواء ما يعرض ولم يخطر بالبال ولا جال بالوهم ولا جرى في الظن . فحسمه أن تعمد إلى أعراضه متى بدت ، وتستأصل شأقتها ، وتغلّ شباتها ، فتقف نموها قبل أن يستفحل أمرها ويحيل خطبها ، فبذلك تأمن بوائقه ،^(٤) وتسلم من جوارحه .^(٥)

وتوفى الأدواء خير أنواع علاجها . قال ابن الرومي :

توفى الداء خير من تصدّي * لا يبره وإن قرب الطبيب

(١) ينظم يجمع (٢) التخمّة الداء يصيب الإنسان من أكل الطعام الرقيم . وأصلها ونحة . وجعلها تمخّات ونخم (٣) الحمية اسم من أحسّى المريض عما يضره إذا امتنع عنه . وفي الحديث (الحمية بيت الداء والحمية رأس كل دواء) . ويقابل الحمية الخليلط (٤) البطنة الكثرة وهي أن تمتلئ من الطعام امتلاء شديدا وفي المثل (البطنة تأفرن الفطنة) أي تذهبها (٥) القصد تقبض الإفراط (٦) الشاة قرعة نخروج في أسفل القدم ، فكوى فذهب ومعنى تستأصل شأقتها تزيها من أصلها وتذهبها كما تذهب تلك القرعة (٧) الشاة إمرة العقرب وحده كل شيء . وفل السيف ثله . وبابه نصر (٨) البوائق الشرور واحداها بائقة (٩) الجوارح الذنوب وأبغاثايات .

ومراعاته أصل كثير من الخير : فالترية الجسمية في الصغر أمان من إسراع الضعف في الكبر . والروية في القول والفعل تكفل لك النجاح ، وتكفيك شر موافق التنصل والاعتذار ^(١) ، وتفيك مرارة اللوم والمأ العقاب . ومن شب على الفضائل شاب عليها ، ورباً بنفسه عن الدنيا ، وكف عن الجرائم والآثام .

وحسم الداء خفيف المثونة قليل الكلفة . وهو دليل الحزم وبعد النظر في عواقب الأمور . قال بعض الحكماء : مبادرة حميم الأمور ضعيفة قبل أن تقوى ومحاولة قطع الأصول ضئيلة قبل أن تنفذ ، أحرز في الرأي وأصح في التدبير من التأخير لها والتهاون بها ، حتى يلتم قليلها بكثيرها ، وتجتمع أطرافها إلى جمهورها .

ولا يترك الداء ينمو حتى تشتد شوكته ، ويتفاقم أمره ، ويستشري شره ^(٢) ، إلا العاجز الذي أفن رأيه وضعفت حيلته . فإذا دهمته الخطوب أحال على المقادير ^(٣) .

وقد جاء بكليلة ودمنة : الرجال ثلاثة : حازم ، وأحرز منه ، وعاجز . فأحد الحازمين من إذا نزل به الأمر لم يهش له ، ولم يذهب قلبه شعاعاً ^(٤) ، ولم تنح به حيلته ومكيدته التي يربو بها المخرج منه . وأحرز من هذا المتقدم ذو العدة الذي يعرف الابتلاء قبل وقوعه فيُعظمه إعظماً ^(٥) ، ويحتال له حتى كأنه قد لزمه ، فيحسم الداء قبل أن يتحلى به ، ويدفع الأمر قبل وقوعه . وأما العاجز فهو في تردد وتيقن وتوانٍ حتى يهلك .

(١) التنصل التبرؤ . يقال : تنصل إلى فلان من الجناية إذا خرج منها وتبرأ ^(٢) .

(٣) ضعف ^(٤) . يقال طارت نفسه شعاعاً إذا تبددت من الخوف ونحوه فلم يدروجه الصواب

(٥) أحزم فلان الشيء ، عظمه وتلحمه وكرهه . « ما يظنني أن أفضل كذا » أي ما يولئني .

ومن أمثال ذلك مثل السمكات الثلاث . فقد زعموا أن غديرا كان فيه ثلاث سمكات : كبسة ، وأكيس منها ، وطاجرة . وكان ذلك الغدير بنجوة من الأرض لا يكاد يقربه أحد ، ويقربه نهر جار . فاتفق أنه اجتاز بذلك النهر صيادان فأبصرا الغدير فتواصلا أن يرجعا إليه بشباكهما فيصيدها ما فيه من السمك . فسمع السمكات قولها .

فأما أكيسهن فإنها لما سمعت قولها ارتابت بهما ، وتخوفت منهما ، فلم تعزج على شيء حتى خرجت من المكان الذي يدخل فيه الماء من النهر إلى الغدير ؛

وأما الكبسة فإنها مكثت مكانها حتى جاء الصيادان . فلما رأتهما وعرفت ما يريدان ، ذهبت لتخرج من حيث يدخل الماء . فإذا بهما قد سدا ذلك المكان . فلهيئذ قالت : قرطت وهذه عاقبة التفريط . فكيف الحيلة على هذه الحال ؟ فقلما تصبح حيلة العجلة والإرهاق . غير أن العاقل لا يقتطع من منافع الرأي ، ولا يياس على حال ، ولا يدع الرأي والجهد . ثم إنها تماوتت فطفت على وجه الماء ، متقلبة على ظهرها تارة وتارة على بطنها . فأخذها الصيادان فوضعاها على الأرض بين النهر والغدير فوثبت إلى النهر ففجعت .

وأما العاجز فلم تزل في إقبال وإدبار حتى صيدت اه .

وإذا أهمل حسم الداء فربما لا ينفع الدواء : إنا نعالج فساد لساننا ، ونحارب انتشار العاقبة بيتنا ، فمن لنا بالنجاح وأمهاتنا يرضعن أولادهن العاقبة مع ألبانهن ؟ وإنا للشكو نقص أخلاقنا ، فكيف نصلحها وبيئة أطفالنا ليست مزهة عن السوء والنقص ؟

ولحسم الداء يعمل الصالحون من الأئمة والمرشدين ، والحازمون من الساسة
والملوك ، إذ يحكون بين الناس بالعدل ، ويأسون^(١) المظالم ، ويفيئون الملهوف ،
ويأسون رعاياهم بالرفق والأناة ، وينذرونهم عن مراتع الهلكة ، ومهاوى الغواية ،
ومراقد الضلال .

ومن هذا الباب ما تقوم به مصلحة الصحة من تلقيح الأطفال وهم صفار ،
وتبئيه الناس إلى أعراض الأوبئة ليحتاطوا لها ويتقوها ، فيسلموا من شرها^(٢)
ونجوها من أذاها . وكذلك مصلحة التنظيم تنظف المدن وتوسع شوارعها ، وتلشئ
بها الميادين ، وتغرس في أرجائها الحدائق والبساتين . ووزارة الزراعة تلزم الزراع
أن يطهروا أقطانهم من جراثيم الدود حتى لا يفتك بها ، فتقتهم ثمرات ما بذلوا
في زراعتها من الجهد والمال . ووزارة المعارف تفصل من طلبة المدارس من يصيبه
داء معد ، ولا تتركه يخالط إخوانه حتى يبرأ من علته .

وكذلك يعمل لحسم الداء كل طبيب يتغنى بطبّه أجر الآخرة ، ويرجوه
في الدنيا طبيب الذكر وحسن الأخلاق .

(١) ندأونها كأنها جراح تلم المظلومين (٢) يتعدى نيه إلى كما يتعدى بيلي .

الأغذية

(١)

النباتات^(١)

اختلفت طرق التغذي باختلاف البيئات والأقاليم : فالإسكو وهنود أمريكا الشمالية حياتهم من صيد لحم كثير الزلال قليل النشا . وبعض أعراب الصحارى لا قوت لهم إلا لبان النوق ولحمان الإبل ، على حين تجد آخرون منهم قوتهم التمر . وأهل الأقاليم الحارة والمعتدلة تكثر في أقاتهم المواد النشوية : فالهنود وأهل سرنديب يأكلون الأرز كثيرا ، وأهل أوروبا وأمريكا قوام أغذيتهم القمح والبطاطس وما ضاهاها . وفلاحو مصر وفرنسا وإسبانيا غذاؤهم غلة أرضهم مع السمن والزيت ، ولا يطعمون اللحم إلا قليلا . وقديما كان عمال إيقوسيا « اسكلاده » يعيشون من اللبن المخيض ودشيشة الزوان . ولم يكونوا يتعاطون اللحم إلا مرة كل أسبوع .

فهؤلاء وأضرابهم اتبعوا تلك النظم في مطاعهم مضطرين ، وجعلوا منها كفايتهم مكرهين : أكرهتهم على ذلك بيئتهم وطبيعة بلادهم .

ومن الناس من كثرت في بلادهم الخيرات وتنوعت الأقوات . ولكنهم جعلوا منها حرما وحلالا طامعين غير مكرهين . أولئك هم النباتيون .

(١) يطلق النباقي على العالم بالنبات . والمراد به هنا محرم لحم الحيوان وسائر ما يشترك منه ،

المقتصر في طهائه على المواد النباتية (٢) هو الذي استخرج زبدته بوضع الماء فيه وتحريكه . ونحضر

من باب تقع وضرب ونصر (٣) هو المعروف بالشوفان وهو الأوتس (Oats) بالإنجليزية .

وهم في ذلك فرق وأحزاب : فمنهم من حرّم الحيوان وما يخرج من الثمرات : فلم يستبيحوا اللحم ولا اللبن ولا الجبن . ومنهم من حرّموا كلّ مطبوخ ، واقتصروا في طعامهم على ما يَصْبِغ بطبعه من الحبوب والفواكه كالجوز واللوز والبندق .

وعلى الجملة فهم يحزمون التغدّي بلحم الحيوان إلّا قليلا منهم يستحلّون أكل السمك ، لأنهم لا يرون في التغدّي به ضررا .

ومن النباتيّين براهمة الهنود . وكان أبو العلاء المعزّي الشاعر العربيّ يرى رأيهم ،^(١) وبأخذ أخذهم . فبقى زمانا لا يطعم اللحم ولا ما تولّد من الحيوان رحمة له ،^(٢) ويحرّما من إزهاق النفوس .

ومّا يدلّ على ذلك في شعره ، عهدته الذي أخذه على نفسه إذ يقول .
لا أُلْجِ الأثم بالرضيع ولا * أشرك هذا القرير في اللبن^(٣)

وإنما كان طعامه العدم ، وحلاوته التين . وكان يرى أنّه تمّت له بذلك الصلّة والعافية من الأمراض . حدّث هو عن نفسه قال :
أفدت بهجران المطاعم صحّة * لما بي من داء يخاف ولا حين^(٤)

وكان يعتقد أنّ الناس قد رزّلوا بنقص في العقل ووُكس في الدين ، إذ يأتكلون اللحم ، ويطعمون ما يخرج الحيوان من الثمرات ، ومن ثمّ أوصاهم أن يذهبوا مذهبه ويكتفوا بما كفّ عن الحيوان ليندوا أصحاب موفوري العقل والدين . فذلك حيث يقول :

(١) أخذ إخذ فلان وبأخذه مارسه وتخلّق بأخلاقه (٢) التمرج — التأم وهو مجابة المرح
أى الإثم (٣) الفصح أن يوجع الإنسان شيء يكره عليه فيعده . ويقال يلج في ماله وأهله وبأهله وماله
فهو منفجرح (٤) القرير بالفاء ولد النعجة والماعز والبقرة الوحشية . وجهه فرار (٥) استخفّت
(٦) هو عظم البطن وورمه (٧) الوكس النقص .

ضدوت مريض العقل والدين فالقنى * لتسمع أنباء الأمور الصالح
فلا تأكلن ما أخرج الماء ظالما * ولا تبغ قوتا من غريض الذبائح^(١)
ولا تفجسن الطير وهى غوافل * بما وضعت فالظلم شر القبايح
ودع ضرب النحل الذى بكرت له * كواسب من أزهار تبت فوائح^(٢)
فأحرزته كى يكون لغيرها * ولا جمعه للندى والمنائح^(٣)
وقد حاجه فى ذلك داعى الدعاة بمصر لوقته . ولما حجه زعم أنه لم يحزم على
نفسه ولا على الناس لحى الحيوان ولا ما أنتج ، وأنه إنما تركه وأراد حمل الناس
عليه زهدا ورحمة .

ثم أتى فقره عذرا ، ولما وعده داعى الدعاة الغنى على أن يعود إلى أكل
الحلم أبى ، معتذرا بأنه كف عنه خمس وأربعين حجة حتى اعتاده « وشديد عادة^(٤)
منترعة » .

ولقيه رجل فقال له : لم لا تأكل اللحم ؟ فقال : أرحم الحيوان . قال : فما
تقول فى السباع التى لا طعام لها إلا لحوم الحيوان ؟ فإن كان لذلك خالق ، فما
أنت بأرأف منه ! وإن كان الطبايع هى المحدثه لذلك ، فما أنت بأحقق منها ولا
أتمن ! فسكت .

(١) طرى جديد (طازج) (٢) هو الصل الأبيض النظيف . يذكر ويؤث (٣) جمع منبة
وهى منة اللبن ، كالثقة والشاة تعطيا غيرك يحتلها ثم يردّها عليك (٤) غلبه بالحجة (٥) الضمير لكف
المأخوذ من الفعل كف قبله . فهو على حدّ قوله تعالى "اعدلوا هو اقرب للتقوى" فان هو ضمير العدل المأخوذ
من اعدلوا .

والنباتيين جماعات في أوروبا وأمريكا وسواهما من البلدان ، يعملون على نشر آرائهم بالخطب والمؤلفات ، ويقومون بتجارب في الطهي تبين للناس أن الطعام النباتي من اللذة والتفنن ما فيه مقنع لأكثر الناس رفاهية ، وأشدّهم في مطاعمهم تأقفا .

وهم يذمّون مذهبهم بأدلة كثيرة : منها أن المغذيات في المواد النباتية أرخص منها في اللحوم . ذلك أن رغيفين ومائتين وسبعين جراما من العدس على رخصتها تغني ما لا تغنيه أقدان من اللحم على غلاطهما .

ومنها أن النباتي أقوى من غيره . وربما عزى إلى هذا فوز النباتيين في مسابقة المشي بين درسدن وبرلين مسافة مائة وخمسة وعشرين ميلا ، وحوزهم قصب السبق في مسابقات أخرى كثيرة ^(١) .

بيد أنه اتضح بامتحان عمال المصانع والحقول بفرنسا أن النباتي يزداد قوة إذا أضاف إلى طعامه قليلا من اللحم .

وقد أثرت آراء النباتيين تأثيرا حسنا في المجتمع على غرابتها وشذوذها . فقد استفاد منها كثير من الناس أن الاعتدال في التفضي باللحوم خير من الإفراط . فقلّوا اللحوم في مواعيدهم ^(٢) وأكثروا فيها ألوان الأطعمة النباتية .

(١) راجع دائرة معارف بريتانكا (Gne. Bri.) مادة (Vegetarianism) ^(٢) جمع

مائدة وهي الطعام .

الأغذية

(٢)

تعقيمها^(١)

تعقيم الأطعمة جعلها غير قابلة للاختار والفساد . وبه تبقى صالحة للتغذى بها مدة أطول من المدة المعتادة . وبه يتهيأ للإنسان أذخار الأطعمة وحفظها للانتفاع بها في غير مواسمها ومواضعها التي أتتحت فيها .

وقد كان العرب يعقمون اللحوم بتقديدها^(٢) . وكثر ذلك منهم في ثلاثة الأيام التي تلى يوم النحر ، إذ كانوا يشرقون لحوم الأضاحي ويلشرونها في الشمس لتجف . ومن ثم تموتوا تلك الأيام أيام التشريق .

ومدبرات المنازل يعرفن قيمة التعقيم ويتفنن به ، إذ يعملن اللبن أقطا^(٣) وسمنا ، وإذ يطبخن الأطعمة ويسخننها مرة بعد أخرى ، ويعملن اللحم النىء ، ويعجنن الخضر . وتقوم الطبيعة نفسها بالتعقيم أو تجفف كثيرا من الفواكه والحبوب وتضجها أتم لانضاج .

ويشغل تعقيم الأطعمة الآن ميدانا فسيحا من ميادين الصناعة . وطرقهم فيه كثيرة : منها تلج اللحوم ، ومنها إضافة موانع الفساد ، ومنها قتل الجراثيم بالحرارة ثم منع الهواء .

(١) المقيم ذات اللحم . يقال امرأة عقيم أى لا تلد . وعقمها جعلها عقيا . وتعقيم الأطعمة من هذا جعلها غير صالحة لتو الجراثيم فيها وتوالدها منها (٢) تقديدها بتجفيفها (٣) الأقط اللبن المتخذ من اللبن الحامض « ج » أقطان .

فأما تلح اللحوم فتدبر مؤقت يحتمل به على نقلها من قارّة إلى أخرى . وهو صناعة كثيرين بأمريكا وأستراليا وزيلنده الجديدة : تجدد الذبائح بآلة مبرّدة ، وتوضع على السفن في غرف مبرّدة كذلك ، فتصل من تلك البلاد إلى أوروبا سليمة صالحة للتغذّى بها ، حتى إنّها إذا أذيبت بمهارة ورقق ، كانت في طعمها ونفعها كاللحم الغريص ^(١) .

وأما موانع الفساد التي تضاف إلى الأغذية فتقتل جرّاثمها وتصونها عن الفساد والعفوية ، فكثيرة . منها ملح الطعام المعروف .

لمدّرات المنازل يعقمن به اللحوم كما رأيت . ومنها حامض البورق : يحقن به الحيوان في الأوردة الغلاظ وهو حتى فتحمله يجارى الدورة الدموية إلى أجزاء بدنه كلها ، ثم يذبح . واللحم الذي يعتم بهذه الطريقة يبقى طيّبا صالحا لذيذا مدّة ثلاثة أشهر . وأما قتل الجرّاثم بالحرارة ثمّ منع الهواء ، فطريق تعقيم اللحوم والأحسية المحفوظة في العلب : تملأ آنية من الصفيح لحما أو حساء ، ثمّ توضع في نوب (كلورات الكليسيوم) ، ويحمى عليها حتى يصير النوب في درجة مائتين وسبعين من مقياس فرنهيت ، وتبقى كذلك ثلاث ساعات ليستأصل ما باللحم أو الحساء من الجرّاثم . ويكون بكلّ إناء ثقب كسم الخياط يخرج منه البخار . فتخرج الآنية من ^(٢) ^(٣) النوب تلامّ ثقبوها بلحام وتترك حتى تبرّد .

(١) خير البائت « الطازج » (٢) السم الثقب كثقب الإبرة ونحوها . تقول هو أضيق

من سم الإبرة ، (٣) الإبرة وسمه قوله تعالى : حتى يلج الجمل في سم الخياط أى جبل السنبلة في ثقب الإبرة .

وتبقى الأطعمة التي معقم على هذا الوجه في أوانها عشرين سنة لا تسرى إليها عفونة ولا فساد . بيد أنه قد يبقى في بعض الأواني هواء تنمو جراثيمه داخل العلب فتفسد ما بها من الطعام . وإثما ينجم ذلك عن إهمال قلما يكون من شركات حذفت الصنعة ومهرت فيها .

ويعرف الإناء الذي تمقن ما به أو فسد قبل فتحه بما يبدو على جوانبه من التفلطح والانتفاخ اللذين يكونان غالبا من ضغط غاز العفونة والفساد جدران الإناء .

وعيب هذه الطريقة تجاوز الحد في الطبخ . وهو يغير طعم اللحم والحساء ويشوه منظرهما ، وينقص بلا شك قيمتهما الغذائية .

ويعقّمون البيض لبوب الزجاج أن يعثره فساد إذا أذخر أو نقل من قاذرة إلى أخرى . فذلك الذوب يسد مسام قيصه ، فلا يصل الهواء إلى داخله .^(١)^(٢)

تلك بعض طرق التعقيم التي حفظت اللحوم والفواكه وسواها من المطاعم ، فأمكن نقلها إلى حيث يحتاج إليها ، وأذخارها للتغذى بها في غير مواسمها ، لا يمسها عطب ولا يلحقها فساد .

(١) التقدير غشية أن يستره . فهو على حد قوله تعالى "والن في الأرض رواسي أن تميد بكم" أي كراهية أن تميل بكم وتضطرب (٢) القهض القشرة العليا اليابسة على البيضة .

وَلَا يَنْفَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ (١)

(قرآن كريم)

إننا نسبِّح بحمد الله والثناء عليه وعلى حسن أفعاله وكَمال صفاته . وكذلك يسبِّح الله ويثنى عليه سائر مخلوقاته : سواء في ذلك ناميها وجامداتها ، أرضيتها وسماواتها . ولا غرو من ذلك . فإنَّ التسبيح والثناء كما يعبران على لسان المقال ، تنطق بهما الأحوال .

وقه في كلِّ تحريكة * وتسكينة في الوري شاهد

وفي كلِّ شيء له آية * تدلُّ على أنَّه الواحد

بيدائك في تسبيحها بحمده تعالى شئ الطرق .

وإنَّا هاهنا مختارون أربعا من تلك الطرق موصَّوها بمختلف الأمثلة لتكون نموذجا يمثله من منحه الله الهداية ، ويحتذيه من آناه الله التوفيق للنظر إلى ما الله تعالى من بدائع المصنوعات ، وروائع الآثار والآيات .

(١) الطريق الأولى تسبيحها بحمده بدلاتها على أنَّه تعالى حقٌّ قادر ، جبار قاهر ، له القدرة والملكوٓت ، والعزة والجبروت .

تلك طريق تسبيح الكواكب في أفلاكها ، والنجوم في مصاماتها ، وما على الأرض من ماء متلاطم تياره ، متراكم زخاره ، ورواسٍ شامخات ، وجبال راسيات .

(١) لا يجب . يقال لا غرو من كذا كما يقال لا غرو من (٢) يخذه مثلا (٣) مواضعها

(٤) موجه (٥) بعضه فوق بعض (٦) الزغار شديد الزئير الامتداد والارتفاع .

فقد خلقها ، جلّت قدرته ، في أسرع مدّة ؛ بلا رويّة أجالها ^(٢) ، ولا تجربة استفادها ، ولا حركة أحدتها ، ولا همّة نفس اضطرب فيها ^(٣) "إِنَّمَا أَمْرُهُ إِذَا أَرَادَ شَيْئًا أَنْ يَقُولَ لَهُ كُنْ فَيَكُونُ".

ثم تركها ، جلّ شأنه ، في الفضاء معلقة بلا سبب ، مرفوعة بلا عمد ؛ تسبح في أفلاكها ، وتجري إلى منازلها التي قدرت لها ، غير متخطية إياها ، ولا متقاصرة عنها .

وإنّها لتتبع هذا النظام العجيب ولسان حالها يقول :

كَلَّ مَا تَرْتَقِي إِلَيْهِ بَوْمٌ * مِنْ جَلالِ وَقْدَرِهِ وَسَاءَ

فَالَّذِي أَبْدَعَ السَّبِيحَةَ أَعْلَى * مِنْهُ ، سَبِيحَانِ مَبْدَعِ الْأَشْيَاءِ

(٢) الطريق الثانية تسبيحها بحمده بدلائلها على إفضاله علينا ، وإحسانه إلينا ؛ وأنه ذو الفيض العميم ، والفضل العظيم .

يثنى عليه بذلك كلّ شيء في السموات والأرض ، تستمدّ منه سرورا ، وانتعاشا وجورا ؛ كالسموات في زرقتها ، والحقول في خضرتها ، والبساتين في نضرتها ^(٤) ؛ والأشجار في حفيفها ^(٥) ، والمياه في خريرها ^(٦) ، والطيور في تغريدها ، والشمس في تدرجها في شروقها وغروبها ؛ وفيما تكسبه السماء في أثنائها من جميل المناظر ، وبديع الألوان .

(١) فكر (٢) أدارها ورددتها (٣) همّة النفس اهتمامها بالأمر وقصدها إليه (٤) بهاها وجالها (٥) صوتها (٦) صوتها (٧) كسبت زيدا مالا ومطأ أي أغلته . ويقال أ كسبت بالألف . وكأرى "فأ كسبني مالا وأ كسبت حدا" .

(٣) الطريق الثالثة تسبيحها بحمده بدلائلها على أنه العرف الرحم .

تلك طريق السحب وحركة الأرض حول محورها في تسبيحها بحمد الله تعالى .
 فمن رحمته أنزل من المعصرات ماءً ^(١) تَجَاجَا ، لنخرج به حَبًّا ونباتًا ، ووجناتٍ ^(٢)
 أَلْفَافًا . ومن رحمته لم يدع الأرض ساكنة ، ولم يجعل النهار سرمداً ^(٣) إلى يوم القيامة
 على أقوام بلا ليل يسكنون فيه ، ويداونون متاعب الحياة بيلسَم ^(٤) الراحة والنوم ،
 ولا الليل سرمداً إلى يوم القيامة على آخرين بلا ضياء يزاولون فيه أعمالهم ، ويتغنون
 من فضل الله ، بل سَيَّرَ الأرض من المغرب إلى المشرق ، وجعل الليل والنهار ^(٥)
 خلفه لمن أراد أن يذكر أو أراد شكورا .

(٤) الطريق الرابعة تسبيحها بحمده بدلائلها على أنه المدبر الحكيم .

فما من شيء من مخلوقاته تعالى إلا وفيه شيء يثني عليه بالحكمة البالغة وحسن
 التدبير .

يثني عليه بذلك الأرض إذ جعلها من الشمس على مسافة لا تستمد فيها من
 حرارتها إلا بمقدار ما تصير به صالحة لحياة الإنسان والحيوان والنبات . ولو شاء ربك
 لجعلها منها على نصف تلك المسافة أو على ضعفها ، لأصاب أهلها من لفحات الحَرِّ ،
 أو نضحات القُرِّ والصَّرِّ ما لا روية فيه ولا بقية معه . ^(٦) ^(٧) ^(٨) ^(٩)

(١) السحب . من أعصرت إذا دأب أن تمطر (٢) منصبا بكثرة (٣) ملغطة الأمطار واحدة لف :
 دائما (٤) البلمس دواء . تضمد به الجراحات (٥) هي الحالة التي يختلف عليها الليل والنهار كل واحد
 منها الآخر . والمعنى جعلها ذوى خلقة يختلف أحدهما الآخر عند ضيئه (٦) مثلها (٧) ما كان من
 الرياح قسما فهو برد ، وما كان لهما فهو حر (٨) فان الحرارة كما قرر علماء الطبيعة تتناسب تناسباً عكسياً
 مع مربع المسافة فلو صارت الأرض على نصف مسافتها من الشمس لبلغت حرارتها أربعة أضعاف حرارتها
 الآن . ولو صارت على ضعفها لسقطت الحرارة إلى ريعها .

(١١) وإذ تسرع في حركتها اليومية: فبه جعل الله النهار ثلثي عشرة ساعة على المتوسط؛ فلم يدع الأرض تجمى حتى يكون في اشتداد حرها أذى لأهلها. وكذلك جعل متوسط الليل ثلثي عشرة ساعة تستمد في أنشائها الكائنات الحية حرارتها من المتخثر منها في الهواء واليابس والماء .

وبهذا التدبير الحكيم وفي الله الأرض شتت تحوطها بغاية من قيظ النهار إلى زمهرير الليل وبالعكس، ولو شاء ربك أن تبطل حتى لا تتم دورتها إلا في مائة ساعة مثلاً، لطال أمد النُّهر والليالي، ولما لم معظم ما على الأرض من الكائنات الحية، أو أذنتها حمازة القيظ، وصباغة البرد .

وإذ تدور حول الشمس ومحورها مائل على فلکها بمقدار $23\frac{1}{2}^\circ$ إلى هذا الميلان يرجع الفضل في تقلب المناطق المعتدلة في الفصول الأربعة، وتمتعها بخيراتها المتنوعة . وبه امتد العمران شمالي الكرة الأرضية وجنوبيها كما ترى .

(٥) ولو شاء ربك فداوت حولها ومحورها في مستوى فلکها كما هو شأن أرنوس لكان لكل بقاع الأرض ليل ونهر كليالي ونهر المناطق المجعدة ؛ ولكان البرد في الشتاء أضرب بالحياة من زمهرير تلك الإقاليم ؛ والحر في الصيف نيرانا تضطرم، وودائع تتمدن ؛ وتلك حال لا تبقى ولا تندر .

(١١) صلف على «اذ بسلها» في الفصل السابق (٢) جمع نهار (٣) و (٤) شدتها (٥) أول كوكب كشف منذ اختراع المجاهر «التليسكوب» - عرف سنة ١٧٨١ وبعدة من الشمس بمقدار بعد الأرض عنها ٢٠ مرة تقريبا (٦) من بعد الهواء الماء اذ يجعله يجمد (٧) تشتمل (٨) جمع وديقة وهي شدة الحر في المسابرة .

ولو جرت حول الشمس ومحورها عمود على فللكها لكانت حرارة بقاء الأرض على الدوام ثابتة ، ولم يكن ^(١) تَمَّة اختلاف في درجة الحرارة إلَّا باختلاف العروض ؛ ولكن ارتفاع الشمس فوق أفق القاهرة دوماً ٦٠° ؛ ولحررت مصر ما يخرجها أرضها من خيرات الشتاء والصيف ؛ ولكانت الشمس في جهات القطب الشمالي دائماً على حافة الأفق أو قريباً منها ، فلا تستمد تلك الجهات من حرارتها ما يذيب مياهها ، فتبق بحارها على الدوام جمداً ، وأراضيها طول السنة مغطاة بالثلوج . وربما تناولت تلك الحالة أجزاء من المناطق المعتدلة ، وطغت الثلوج فامتدت جنوباً حتى تستحيل الحياة ببلاد الشمال من إنجلترا والبلاد التي معها في إقليم واحد .

وكذلك الأشجار والنبات ، في الحقول والمنتزهات ، تسبح لله بنائها عليه بالحكمة البالغة وحسن التدبير ؛ فقد جعل سم ^(٢) الحيوان لها غذاء ؛ وأوصى إليها أن تستخلصه من الهواء لتركه صالحاً لتغذية الحيوان .

وتلقى عليه بذلك الدحل إذ ألهمها أن تبني بيوتها مستديرات منتظمة ؛ وأودع فيها قوة على هضم الرطوبات التي تجمعها من الأنوار ، وثمر الأشجار ، وورق النبات والأزهار ؛ وجعلها غذاءً لذيذاً ، وشرباً صافياً ، ودواءً شافياً .

تلك بعض الطرق التي تسلكها مخلوقاته تعالى في تسبيحها بحمده . وإنها لقل من كثر ، وغيض من فيض . فبارك الله أحسن الخالقين . سبحانه لا معقَّب لحكمه ولا حول ولا قوة إلَّا به ، وهو العليّ العظيم .

(١) تم اسم بشاربه إلى المكان البعيد . وقد تلاحظه النساء فيقال ثمة وموضعه نصب على النازفة

(٢) هو حامض الكريون .

وَلَا يَنْفَعُ مِنْ شَيْءٍ إِلَّا يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ

(٢)

قال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه ، في بعض خطبه :

ولو فكروا في عظيم القدرة ، وجسيم النعمة ، لرجعوا إلى الطريق ، وخافوا عذاب الحريق . ولكن القلوب طيلة ، والبصائر مدخولة ^(١) .

ألا ينظرون إلى صغير ما خلق ! كيف أحكم خلقه ، وأتقن تركيبه ، وفق له السمع والبصر ، وسوى له العظم والبشر ! .

انظروا إلى الخلة في صغر جنتها ، ولطافة هيئتها ، لا تكاد تُشال بلحظ البصر ، ولا بمستند ^(٢) الفكر ، كيف دبّت على أرضها ، وصهت على رزقها ، تنقل الحبة إلى جحرها ، وتبعثها في مستقرها ، وتجمع في حرها لبردها ، وفي ورودها لصدرها ^(٣) . مكفولة برزقها ، مرزوقة بوقفها ، لا يُنفِلها المئان ، ولا يحرمها الديان ، ولو في الصفا اليابس ، والجحر الجامس ^(٤) !

ولو فكّرت في مجارى أكلها ، في علوها وسفلها ، وما في الجوف من شراسيف ^(٥) بطنها ، وما في الرأس من عينها وأذنها ، لقضيت من خلقها عجباً ، ولقيت من وصفها تعباً !

فعلى الذى أقامها على قوائمها ، وبنّاها على دعائمها ، لم يشركه في فطرتها فاطر ، ولم يمنه في خلقها قادر .

(١) يها فساد (٢) انحدرت بطلبه (٣) الصدر الرجوع بعد الورد (٤) الجامس الجامد

(٥) مقام الأضلاع وهي أطرافها التي تشرف على البطن .

ولو ضربت في مذاهب فكرك لتبلغ غاياته ، ما دلتك الدلالة إلا على أن فاطر
النملة ، هو فاطر النحلة ؛ لدقيق تفصيل كل شيء ^(١) ، وغامض اختلاف كل شيء
وما الجليل واللطيف ، والثقل والخفيف ، والقوى والضعيف ، في خلقه إلا سواء .
وكذلك السماء والهواء ، والرياح والماء . فانظر إلى الشمس والقمر ، والنبات
والشجر ، والماء والجمر ، واختلاف هذا الليل والنهار ، وتفجر هذه البحار ، وكثرة
هذه الجبال ، وطول هذه القلأل ، وتفترق اللغات ، والألسن المختلفة .

فالويل لمن يحمّد المقدّر ، وأنكر المدبّر : زعموا أنهم كالنبات ما لهم زارع ، ولا
اختلاف صورهم صانع . ولم يلجئوا إلى حجة فيما ادّعوا ، ولا تحقيق لما ادّعوا ^(٢) .
وهل يكون بناء من غير بان ! أو جناية من غير جان !

وإن شئت قلت في الجرادة ، إذ خلق لها عينين حراوين ، وأسرج لها حديقين
قراوين ^(٣) ، وجعل لها السمع الخفي ^(٤) ، وفتح لها الفم السوي ، وجعل لها نايتين بهما
تقرض ، ومنجلين بهما تقبض ، يرهبا الزرع في زرعهم ، ولا يستطيعون ذبها ^(٥) .
ولو أجلسوا بهمهم ، حتى ترد الحرت في نزواتها ، وتقضى منه شهواتها ، وخلقها كله
لا يكون إلا إصبعا مستدقة .

فتبارك الله الذي يسجد له من في السموات والأرض طوعا وكرها ، ويعنوله
خذأ ووجها . ويلقى إليه بالطاعة سامعا وضعفا ، ويعطيه القياد رهبة وخوفا .

(١) أى ان دقة التفصيل في النملة على صغرها ، والنحلة على طولها ، تدل على أن الصانع واحد

(٢) جمع قلة وهي روس الجبال (٣) لم يستدوا الى حجة (٤) حفطوا (٥) مضيتين (٦) هما رجلها

(٧) دفعها (٨) وثباتها .

فالطير مستخرة لأمره : أحصى عدد الريش منها والنفس ، وأرصى قوائمه
على الندى واليأس ، وقدر أقواتها ، وأحصى أجناسها : فهذا غراب ، وهذا عقاب ،
وهذا حمام ، وهذا نعام . دعا كل طائر باسمه ، وكفل له برزقه .
وأنشأ السحاب النقال : فأهطل ديمها ، وعدد قسمها . قبل الأرض بعد
جفونها ، وأخرج نبتها بعد جدوبها أه .

أعياد العرب في الجاهلية والاسلام

(١)

لكل أمة أعيادها ومواسمها ، وما خلق الله أمة إلا وقدر لها أياما تسكن فيها
إلى زهو الحياة وصفوها ، وأعرف الأمم بالحياة أخذها من تلك الأيام بنصيب ،
ذلك أنها على قدر ما تستروح من نسيم الحياة وما تستريح إلى نعيمها تنسى ما لقيت^(٢)
في العمل من عناء ، وما احتملت من أعباء ، وتمتع للمستقبل عدته من قوة ومضاء ،
وفطنة وذكاء ، وهي بما اجتمعت على الصفو وما استلقت على السراء ، تريد شدة
في البلاء ، وصبرا على انلاؤ^(٣) وأه .

من أجل ذلك كان العرب — وهم أجهد الأمم في ابتغاء الرزق ، وأخوضا
لنمرات الخطوب — أحرص الناس على أعيادهم ، وأشدهم ارتقابا لها ، واعتدادا
بها ، سواء في ذلك سادتهم ودمهاؤهم^(٤) ، ورجالهم ونساءهم .
وكانت أعيادهم في الجاهلية على ضربين : دينية وقومية .

(١) يريد أن الله جعل من الطير ما تنبت أرجله في الماء ، ومنه ما لا يعيش إلا على الأرض اليابسة
(٢) استروح النسيم شمه (٣) الانلاؤه أشد البلاء (٤) الدهماء سواد الناس وجههم

أما الدينية فتختلف باختلاف عقائد العرب وأديانها ، والعرب أمة ذات خيال بعيد ، وقد طغى خيالها على قلوبها فشعب عقائدها ، وفرد مذاهبها : فمنهم عبدة الأوثان الذين يعبدون ما يفتخون ، ومنهم المحوس الذين سلكوا سبيل الفرس في عبادة النار والكواكب ، ومنهم عبدة التخيل والاشجار ، ومنهم أهل الكتاب من اليهود والنصارى ، ومنهم الزنادقة الذين خرجوا على كل دين ، وثاروا على كل عقيدة ، وقالوا إن هي إلا بطون تدفع ، وقبور تليق ، وما يملك إلا الدهر ، ومنهم — وقليل ما هم — الموحدون الذين يعبدون الله لا يشركون به شيئا .

لذلك كله اختلفت أعياد العرب وتباينت مظاهرها ،
على أن جمهور العرب عبادة أوثان^(١) وأصنام ، ولكل صنم من أصنامهم يوم
وذكرى خيلتها لم أهواؤهم وجوقتها أهوامهم .

ثم خرجوا إليها وحكفوا عليها نهارهم وأطعموا حولها ليلهم .
وكانت مظاهر أعياد العرب ثلاثة : ملاعب الخليل ، ومجامع الأدب من شعر
وخطب ، ومجالس الميسريين كسبه على من مسهم الضر وأذلتهم الحاجة .

(٢)

وكان شأنهم إذا أرادوا الميسر أن يتناحوا جزورا — ناقة أوجملا — ويتضمنون^(٢)
نه ، ثم يمحرونه ويقسمونه عشرة أقسام لا كرش فيها ولا ذنب ، ثم يأتون بعشرة
قداح وهن أعواد من خصوف الشجر مشدبة متساوية ، سبعة منهن موسمة^(٣)

(١) الوثن ما اتخذ من الحجر أو الخشب من المعبودات ، والصنم ما اتخذ من المعادن كالنحاس والفضة

(٢) شترونه مؤجل العين (٣) مطلة .

وثلاثة أغفال^(١) ، ومن السبعة الموصّمة ما له سمة واحدة ويسمى فذاً ، وما له اثنتان ويسمى توعماً ، وما له ثلاث ويسمى رقبياً ، وما له أربع ويسمى حلساً ، وما له خمس ويسمى نافساً ، وما له ست ويسمى مُسبلاً ، وما له سبع وذلك هو الملعّل . وأما الثلاثة الأغفال فلا شأن لها ، وإتّما جىء بها لتكثير العدد والاسترواح بها إذا نرجعت حين اللعب .

وكان ربح كلّ قِدَح وخسارته على قدر ما به من سمات . فالفذّ يربح نصيباً إن ظفر ويخسر مثله إذا خاب ، وهكذا دواليك حتّى يأتى الملعّل . فله ربح سبعة إن ظفر وخسارة مثلهنّ إذا خاب . وإتّى مرسل لك بيان ربحها وخسارتها .

يأتى السبعة الفتيان اللاعبون ويأتون معهم بأمين من أمنائهم فيلقون إليه القداح العشرة مخبوءة في خريطة مطوية من الجلد حتّى لا يعرف علامات القداح فيقدّم من له هوى فى تقديمه . ثمّ يعيّن كلّ منهم القِدَح الذى يريد أن يخرج باسمه ليكون له ربحه أو عليه خسارته وهناك يتبدّى الأمين بإخراج القداح واحداً فواحداً ويصبح عند إخراج كلّ قِدَح باسم صاحبه الذى اختاره ، ولا تزال القداح التى تخرج رابحة حتّى تستوفى عشرة أجزاء الناقّة ، فإذا استوفتها عدّ ما بعدها خاسراً وخسر على قدر ما به من سمات .

ومثل ذلك إذا خرج الملعّل والرقيب فى أوّل عهد اللعب فقد ربح الأوّل سبعة والثانى ثلاثة وهما كلّ أجزاء الجزور فكلّ ما بعدها خاسر ، وعلى كلّ ذى قِدَح أن يفرم من ثمن الجزور قدر سماته ، فإن قومت الناقّة بعشرة دنانير فقد فاز بها الأوّلان ،

(١) لا علامة فيها .

وغرم الفذ ديناراً والتوعم اثنين والجلس أربعة والنافس خمسة والمسبل ستة . ومآل كل أولئك من ربح أو خسارة إلى ذوى الحاجات من أهل العشيرة .

وكان من العار أن يطعم الرجل أو يطعم ذويه من كسب ميسره ، كما كان من العار أن يشهد الرجل اللعب ولا يشترك اللاعبين .

وبعد فذلك شأن عبدة الأصنام من العرب في أعيادها ، فأما من سواهم من اليهود والنصارى والمجوس فشأنهم في أعيادهم شأن من حولهم من الأمم التي اتبعوا أديانها ، ونهجوا منهاجها .

وأكثر أعياد اليهود والنصارى معروف فلا حاجة بنا إلى القول فيه . أما المجوس الذين اتبعوا سبيل الفرس فأحفل أعيادهم النيروز والمهرجانات ولمن من دولتهما أعياد أخرى لا يتسع لذكرها هذا الكتاب .

(٣)

فأما النيروز فتعرب كلمتي ”نور“ ”روز“ ومعناها ”اليوم الجديد“ وهو عيد رأس السنة عند الفرس ، ومآتاه في أول الربيع ، وبدءه ستة أيام . ولم يكن في بلاد فارس وما إليها من العراق ما هو أبهج منه وأكثر سلوة وإيناساً لأنه يحل حين تأخذ الأرض زيتها وترتدى حلتها وتستكمل حليتها .

وكان من عادة الفرس فيه أن يقف في ليلته بباب الملك رجل صبيح الطلعة مبارك الاسم ، أغر اللقب ، قد أفرغ عليه أنعم ما يلبس القوم من ثياب ، فإذا أصبح دخل على الملك غير مستأذن والملك حينئذ في أحفل مجالسه وأغرم مظاهره ، فيقول له : من أنت ؟ ومن أين أقبلت ؟ وأين تريد ؟ ولأى شيء وردت ؟

وما معك ؟ فيقول مثلاً : أنا المنصور ، واسمى المبارك ، ومن قبل الله أقبلت ، والمملك السعيد أردت ، وبالصقو والسلامة وردت ، ومعى السنة الجديدة ، ثم يجلس ويدخل رجل يحمل طبقاً من الفضة فيه حنطة وشعير وجلبان وخص وشمع وأرز : من كل صنف سبع سنابل وسبع حبات وقطعة سكر ودينار ودرهم جديان فيضع الطبق بين يدي الملك ، ثم تدخل عليه الهدايا ويكون أول داخل وزيره ثم صاحب الخراج ثم صاحب المثونة ثم الناس على مراتبهم ثم يقدم رغيف كبير مصنوع من تلك الحبوب فيأكل منه ويطعم من حوله ، ثم يقول : هذا يوم جديد من شهر جديد من عام جديد من زمان جديد يحتاج إلى أن نجد فيه ما أخلق الزمان . ثم يخرج على وجوه مملكته ويصلهم ويفرق ما حمل إليه من الهدايا عليهم .

أما جمهور الفرس فيوقنون النار في ليله في السهول والجبال وفي أفنية المنازل حتى ليغفل لمن يرى فارس من مكان محقق أن هناك بروقا متلاحقة تشق الفضاء ، بل إن العرب ليشتبهون البروق إذا اشتد خوفوها وخطف الأبصار سناها بهذه النيران . ومن ذلك قول القائل .

أحار أريك برقاً بات وهنا * كآر مجوس تستمر استماراً^(٢)

فإذا كان الصبح وخبت السنة النيران نضحوا أرضهم وديارهم بالماء ، وقد يمزجه المتوفون منهم بماء الورد ، فإذا قضوا ذلك أخذوا يتفدون أيام العيد في أنهم عيشة وأهنتها .

وأما المهرجان فيقاته في منتصف الخريف ومداه سنة أيام كذلك .

(١) الحذاد حب القطن ومنه البسلة (٢) حارترغيم حارث روهنا أى في منتصف الليل .

وكان شأن الفرس أن تدن ملوكهم وسوقهم في ليله بدهن البان تبركا به ،
 فإذا كان صباحه دخل على الملك الموبدان — وهو زعيم دينهم — بطلب فيه أثرية^(١)
 وقطعة من السكر وبنيق وسفرجل وعُتاب وتُفاح وعنقود عنب وسبع طاقات آس
 قد زُمزم عليها ثم يدخل الناس على تفاوت أقدارهم بمثل ذلك .

وكانوا يتهادون في النيروز والمهرجان بالمسك والعنبر والعود الهندى والزعفران
 والكافور .

وبعد تلك صورة مجلّة مما يفعل القوم في أعيادهم الدينيّة . فأما القوميّة فأكثـر
 ما تكون لذكرى يوم من أيامهم التي انتصروا فيها على أعدائهم أو انتقموا لأنفسهم
 منهم ، ومثل هذه الأعياد مما يتفرد به بعض القبائل دون بعض ، بل ربّما كان
 اليوم عيدا لقوم ومأساة لآخرين يتذاكرون فيه أوتارهم ويشدون لابتغاء الثأر ما زرعهم .
 وإت مظاهر هذه الأعياد لأنفذ في النفس وأفعل في القلب من مظاهر تلك .
 وكان يوم تلك الذكري عيدا مشهودا لهم يقدمون للصنم فيه جهد ما ملكوا
 من مطاعم ومشارب ومطارف ، ويغشون بين يديه الجُزُر ، ويطعمون الطعام ،
 ويحاذبون التحيات والتهنّات .

وكما كانت مَنكّة موطن الحرم وساحة الكعبة التي تهوى إليها قلوب بنى إسماعيل^(٢)
 من العرب كذلك كانت مجمع كلّ ذى ذكر ذائع ومكانة ناهية من أوثان العرب وأصنامها .

(١) البان شجر يطول في استراخه ثم كثر قرونه الويا به حب تولد صرته فتكون أطيب شيء

رائحة (٢) الأبرج نوع من الفاكهة ذهب اللون حلو الطعم ذكر الراعي (٣) قرئ عليها قراءة دينية

(٤) عبدة الصنم .

وكان يحيط بالكعبة نطاق من التماثيل التي يدين لها مختلف القبائل والبطون
ولها يضربون أكباد الإبل قصادا وعبادا .

وأنبه هذه الأصنام ثلاثة اللات والعزى ومناة .

وكانت اللات لآل مكة والعزى لآل الطائف ومناة لهذيل ونزاعة وآل يثرب
من الأوس والخزرج .

وكان قيل كل صنم إذا فرغ من حجة عطف على صنمه وأهل له وتقرب إليه
كما يُهَيَّلُ لله تبارك اسمه ويتقرب إليه ، وكان ذلك اليوم عيدهم الذي يتأقنون له ،
ويباهون القبائل به .

وكان لتلك الأصنام سَدَنٌ^(٢) وحجاب كما كان للكعبة سدنة وحجاب . وما عرف
التاريخ موطنها من مواطن الأرض كان أحفل بالناس وأبهج مواسم وأعيادا وأهى
ليالى وأياما مثل ما عرف من مكة في شهرى ذى القعدة وذى الحجة ، فقد كانا
يُنْفَذان في مناسك تقضى ، ومواسم تزهى ، وأعياد تُشْهَد ، وأسواق تعقد ، وأندية
تتحدى ، ومجامع تقام .

وكان رجال كل قبيلة وفتيانها يظهرون في عيدهم وعليمهم المطاريِفُ^(٣) الموشية ،
والحلل الجانية ، ومن تحتهم النجائب^(٤) القرى ، والتحليل العتاق .

(١) أهل الرجل رفع صوته بذكر الله جلّت قدرته لحدوث نعمة أو عند ظهوره في معجب (٢) جمع
سادن وهو خدام الكعبة ونحوها ، والسدانة - بكسر السين - الخدمة (٣) جمع مطرف وهو شقة من
الحريز يفتح بها (٤) النجائب كرائم الإبل والقرى من البراذين والإبل ذوات النشاط والخفة .

ذلك شأن العرب في مكة . أما في اليمن فكان للوثنيين من أهلها بيت مقصود يقال له الكعبة اليمنية . وبه صنم يدعونه "ذا الخلصة" . فإذا كان عيد ذلك الصنم ألبسوه القلائد وجعلوه ببيض النعام وساقوا إليه الإبل والبقر يعرضونها له .

وكان لأهل تجران من اليمن نخلة صحيقة يعبدونها ، فإذا كان عيدها خلعوا عليها كل ثوب ناعم وقلدوها كل حلية مشرقة ، فكانت يومئذ بفتيات الحمى وقد خرجن إلى الساحات صادحات راقصات متغنيات ، وكانت بالصبية وقد غدوا على ملاعبهم يتغنون بالأناشيد على عزف المزاهر والدفوف ، وكانت قرائح الرجال تكشف لذلك اليوم عن سلسل فياض من الشعر الصفي يتغنون فيه بما نالوا من الدهر من مجد وما اكتسبوا لدى الناس من محبة .

ولمثل ذلك اليوم ألهم الشعروفاضت خواطرهم به .

وكان من أيامهم النائمة يوم السباسب كان لذيبيان وأحلافهم من العرب ، وكانوا إذا تجاذبوا التهانى فيه تبادلوا أهواد الرياح ، وفي ذلك يقول النابغة :
« يحبون بالريحان يوم السباسب » . ويقال : إن العرب كانوا يتأدون الرياح في عاتمة أعيادهم .

وكان لا قيليل من العرب يوم يسمى يوم السبع يشغل فيه قبايلهم وكهولهم بصنوف شتى من اللهو واللعب .

وكان العرب إنما يؤرخون بعظائم أيامهم إلا ما كان من أهل الكتاب من اليهود والنصارى وأشباه الفرس من المجوس فلهم رموس أعوامهم .

(٤)

وكان تباین العرب في مشاعرهم ومنازعهم ، وانقسامهم بين قاهر ومقهور ، وواتر وموتور ، واسراف قوم في اللهو والصفاء ، وجد آخرین في البكاء والإغراء مما أسرع بالفساد إلى قلوبهم ، وأزث^(١) نيران العداوة والبغضاء بين جوانحهم ، وأوردهم حياض الموت فتیاناً لِدان العود حتى لقد كادت تمحی آثارهم وتُغف^(٢) أخبارهم ، فما زال كذلك أمرهم حتى أشرقت أرضهم بتور الإسلام وأظلمهم الله بلوائه فأصبحوا بنعمته إخواناً ، وهناك بظلم الإسلام من أشات أعيادهم عیدین آخرین ينعمون فيهما برضوان الله وينتبطون برحمته يأخذون فيهما زيتهم ويتناولون من طيبات ما أحل الله لهم ويتعاطفون ويتواصلون ويتعاونون ويتآزرون .

وقد شرع الله هذين العیدین للمسلمین بعد هجرة النبي الأمين إلى المدينة ، وكان أهلها يحتفلون بالتيروز والمهرجان وقيل بيومين من أيام انتصارهم وظلبتهم فأبدلهم الله خيراً منهما ، يوم الفطر ويوم الأضی .

وكان من سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يغدو بالمسلمين والمسلمات في صبيحته إلى المسجد الحرام فلا يبقى رجل ولا امرأة ولا صبي ولا صبية حتى يسير في أجمل بزة وأتم نظام ، فيشهدون جميعاً صلاة العيد ثم يعودون من طريق آخر حتى يطلع أهل الطريقين على شوكة المسلمين .

وكثيراً ما سمع عزف الدفوف في طلائع تلك الصفوف تتويهاً بها وإظهاراً لشأنها .

(١) أوقد (٢) جمع لذن أى رطب (٣) تسلمس .

وَمَا سَنَهُ الْإِسْلَامُ لِلنَّاسِ أَنْ يَغْدُوَ الرَّجُلُ إِلَى الصَّلَاةِ نَظِيفَ الْيَدَيْنِ نَقِي الثَّوْبِ
ذَكَى الرُّوحَ حَتَّى يَلْتَقِيَ الْمَسْلُومُونَ بَعْضُهُمْ بِبَعْضٍ أَصْفَاءُ الْقُلُوبِ أَتْقِيَاءُ الْأَبْدَانِ .

وقد صبر المسلمون حيناً لا يعرفون غير هذين العيدين إلا أن تكون أيام معدودات
يتقربون فيها بمأثور العبادات وموفور الصدقات كليلّة المعراج ولبلة النصف من
شعبان حتّى كان عهد الحجاج بن يوسف التّقيّ فأهدى إلى أمير المؤمنين عبد الملك
ابن مروان يوم النيروز الهدايا وتقدّم إليه بالتهنئة . وعلى قدمه سار من بعده من
الولاة بعد عبد الملك من الخلفاء حتّى حال عمر بن عبد العزيز بين عمّاله وذلك
فأنقطعت أمداء غير قليل حتّى عاد حوْثها في عهد أمير المؤمنين المأمون إذ أهدى إليه
كبير ثّغابيه أحمد بن يوسف سَفَطاً من الذهب فيه قطعة في طوله وعرضه من العود
وكتب معه :

« هذا يوم جرت فيه العادة ، بالطاف العبيد للسادة ،

وقد قلت :

على العبد حقّ وهو لا شكّ فاعله * وإن عظم المولى وجلت فواضله »

ثم انطلق العباسيون منذ عهد المأمون يحتفون بالنيروز والمهرجان ويتجاذبون
فيها التهادى والتهاني ويمرحون ويطنون كأشدّ ما كان الفرس ينالون من مَرَح
وطراب . ذلك أنّ الدولة العباسيّة نهضت على كواهل الفرس وقامت على سواعدهم
وارتكزت على أسنّة رماحهم ، وهم الذين تولّوا الجليل والدقيق من عمل الدولة
فهم الثّغاب والشعراء والقادة والوزراء ، وهم الساسة والثّغاة ، والعمال والولاة ،
فليس بدا أن يقتنى العرب في ذلك العهد أثر الفرس أنّى ساروا ، ونبهجوا مناهجهم
أين سلكوا .

وكان مما يمتاز به نيروز العباسيين ثرا الورود في أرضهم وعلى مواثدكم ومناضدكم
وشُططهم وأخوتهم ، حتى كأت رياض مدائنهم وأرباضها لم تكن تنبت في ذلك
المهد إلا وردا .

في ليلة من ليالى العيد

حدث أبو عبد الله محمد بن عمر الواقدي قال :

كان لى صديقان أحدهما هاشمى وكأكنفس واحدة فالتقى ضائقة شديدة
وحضر العيد فقالت امرأتى : أما نحن فنصبر على البؤس والشدة وأما صبياننا هؤلاء
فقد قطعوا قلبي رحمة لهم لأنهم يرون صبيان الجيران قد تزيّنوا في عيدهم وأصلحوا
ثيابهم وهم على هذه الحال من الثياب الرثة فلو احتلت في شيء فصرفته في كسوتهم !
قال فكتبت إلى صديقي الهاشمى أسأله التوسعة على بما حضر فوجه إلى كيسا مخنوما
ذكر أن فيه ألف درهم . فما استقرّ قرارى حتى كتب إلى الصديق الآخر يشكو مثل
ما شكوت إلى صاحبي الهاشمى فوجهت إليه الكيس بختمه ونحرت إلى المسجد
فأملت فيه ليلتي مستحيا من امرأتى . فلما دخلت عليها استحسنت ما كان منى ولم
تتفنى عليه فيينا أنا كذلك إذ وافى صديقي الهاشمى ومعه الكيس كهينته وقال لى
أصدقنى عما فعلته فبنا وجهت به إليك ، فمزقته الخبر على وجهه فقال لى : إنك
وجهت لى وما أملك على وجه الأرض إلا ما بعثت به إليك وكتبت لى صديقنا
أسأله المواسة فوجه لى كيسى بخاتمى قال الواقدي فتواسينا ألف درهم .

أعراس العرب في الجاهلية والاسلام

للعرب في أعراسهم مقصد أجل وأسمى مما يرى الناس جميعا ، فهم ينظرون إليها نظرم إلى أعيادهم ، وأعرن مواسمهم ، ذلك أن العربي مسوق باعتقاده إلى اختيار زوجة من فيرحه لأنه يرى أن الغرائب أنجب للولد ، وأصبر على اللأواء .^(١) وأنت تعلم ما كان بين أحياء العرب من وقائع لا يحمد جرحها ، ولا يرقأ دنها ، فلا يزال ذلك دأبا حتى يتصاهر الحيان فتستوثق الصلة بينهما ويشرلواء السلام عليهما ، لذلك لا تجد في مأثور حياة العرب ، ومشهور أيامهم يوما أتم بهاء ، ولا أتم صفاء ، ولا أكثر ضياء ، ولا أجمع للبهيج الحنى من محافلهم ومعالم أفراسهم — من يوم البتاء .

فهناك يتبارى الفتيان من مطلع الشمس إلى مغيبها فيلعبون بالرماح ، ويتفضلون بالصفاح ، ويستبقون على متون الخيل وينطلقون إلى غياث البائسين ، ومعونة المحتاجين ، ويسرحون ويمرحون ، ويشربون ويطربون ، ويرثمون ويلعبون .

أما بين يدي الدار وفي فسحاتها وحجراتها ، فهم يسطون الأنماط ويشدون^(٢) على الجدران ، وعليها النقوش الموشية^(٣) والصور المذهبة ، ومنها ما أشبهت رسومه عيون النرجس وما اجتمعت عليه كواصر الطير وغرائب الحيوان وما حكمت نقوشه الأقواس والسهام ، أو تقاطعت خطوطه تقاطع الصليان . وعلى النمائر المصقوفة ، والزرايق المبتوثة ، يجلس النساء وتأخذ فتياتهن فيما عفا وظرف من عزف وغناء .

(١) البلاء (٢) يهف (٣) جمع عطف بفتحين رداء من الصوف ذو لون من الألوان ولا يقال

للأبيض نمط (٤) المزينة المرقومة (٥) السارق والبسط .

أما الليل فأحسن ما اكتحلت به نواظر العرب حتى جعلوه مضرب أمثالهم
فقال قائلهم :

* يا ليلة ما ليلة العروس *

فهناك تجل العروس في الحلة الجمائبة ، وهي ثوبان أحدهما باطن موشى
والآخر ظاهري شفاف . وقد تحبك خيوطهما عند بنات الملوك والسراوات بأسلاك
الذهب ، وذلك ما يدعونه بالمذهب من الثياب . ثم يفرعون عليها من الحلّ ما تملك
وما لا تملك لأن قومها يستعمرون لها أبدع ما في الحلّ من حلّ ، بل ربما تجاوزوا
أحياءهم إلى ما سواها فقد استعار عتبة بن ربيعة — وهو في الشرف الصميم من
قريش — حين زوّج ابنته هنداً من أبي سفيان بن حرب — حلّ بنى أبي الحقيق —
وهم عشيرة من اليهود — وورثهم ابنه الوليد بها فأقام بينهم شهراً كاملاً حتى عاد
الحلّ فعاد الفتى إلى أبيه . وغير ما تردّدت به العرائس : التاج أو الإكليل
وهو عصابة مرصعة بالجواهر تحيط بجبينها . والوشاح وهو شقة مرصعة باللائع
تشدها بين عاتقها وخصرها . ثم ما نعلمه من قرطلة وعقود وأساور وخلائيل
ونحوها وما كذلك الدملج أو المعضد وهو طوق من الذهب يحيط بالمعصدة كما يحيط
السوار بالمعصم .

في ذلك الزمّ البهت تسير العروس في حشد من لداها وارتابها وبين يديها جوارى^(٢)
الحلّ عازفات مشدات راقصات فيغتنها بآثر قومها ومفانح آلهما مما يبهجها ويشير
روح العزة والكبرياء بين جوانحها .

(١) جماعة (٢) لذلك ذوسنك وتربك خليك .

وفى تلك الليلة لا يحتجب النساء عن الرجال فهم مجتمعون جميعا فى مكان واحد وقد يكون ذلك فى غرفة العروس وهى مجلوة بينهم .

وكان قولهم للزوج حين يفارقونه بالرفاء والبنين وللزوجة باليمن والبركة . وكانوا يودعونها حين ترتحل عن حيتها الى حق زوجها بقولهم : على خير طائر .

(٢)

كُلَّ ذلك كان للعرب فى عهد جاهليتهم . فلما افترق الإسلام صبر العرب يفعلون ما كانوا يفعلون إلا انهم والميسر وإلا نشر الأنماط التى تضم إلى صدورهم صور أوثان العرب ومعبوداتها ، أما ما سوى ذلك من الغناء فقد أباحه الإسلام ، ولقد حضر رسول الله صلى الله عليه وسلم حرسا لإحدى عقائل الأنصار بفارس بمقربة منها وسمع الغناء يلقي بين يديها . بل لقد عاتب صلى الله عليه وسلم عائشة أم المؤمنين إذ أرسلت حرسا من قبلها إلى زوجها ولم ترسل معها من يغنى لها ، فقد روى ابن عبد ربه عن عائشة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دخل عليها فقال : أهديت الفتاة إلى بعليها ؟ قالت نعم . قال فبعثتم معها من يغنى ؟ قالت لا ، قال هلأ بعثتم معها من يقول :

أَتَيْنَاكُمْ أَتَيْنَاكُمْ * فَيَسُونَا نَحْيَاكُمْ

ولولا الحبة السمر * إلم نحلل بواديكم ؟

ولما انبسط ظل الإسلام على بلاد فارس وامترج الفرس بالعرب — ولا سيما فى العهد العباسي — ونقلوا إليهم كثيرا من مظاهرهم وطرائف عاداتهم — حفلت

(١) الرقاء الاصلاح من رغوت التوب اذا أصلحته (٢) عبر التبرجازه وتطلق بمعنى انطلق من

جده (٣) الحبة السمراء المختلة وهذا مما يحمله أهل مكة لأهل المدينة .

الأعراس بكثير مما لم يعرف العرب ، ومن ذلك جمعها بين ألوان من الطعام بلغت في القرن الثالث مائة لون . وكذلك زهوها بفنون من العزف والغناء هي خير ما عرف حتى اليوم ، وثر الزهر بين يدي العروس بل لقد ظهر يومئذ من ثر الذهب واللؤلؤ في طريقها .

وكان من سنتهم أن يقتدوا بين يدي العروس في زفافها جارية قبيلة قبيصة المنظر^(١) حتى يهر من ورائها جمال صاحبته ، ولذلك ضربوا المثل في سوء المنظر وقبحه بسوداء العروس .

وأخفل ما عرف من أعراس العرب ، صُرس المأمون في بناءه «ببوران» بنت الحسن بن سهل بفم الصلح^(٢) من أعمال أواسط العراق .

فقد كان المهرجَان شهراً وبعض شهر كان في خلالها خمسة آلاف زورق تنقل العابرين غدواً ورواحاً ، وهناك على شطّ دجلة وقف عدد لا يناله الإحصاء من الحبالين والمكارين يستقبلون العابرين لينقلوهم إلى السرايا حيث تمتد الموائد وتقام المآدب . فإذا طعموا ثرت عليهم الدنانير والدرهم ونوايح المسك وبيض العنبر . أما خاصّة الناس من بنى هاشم ومن إليهم من القواد والكلاب والوجوه فقد ثرت عليهم بنادق مسك فيها رقايع بأسماء ضياع وقصور وصييد وخيل وأشباهاها ، فكانت البندقية إذا وقعت في يد الرجل فتحتها فيقرأ ما في الرقعة فإذا علم ما فيها مضى إلى الوكيل المرصود لذلك فدفنوها إليه وتناول ما فيها .

(١) قصيدة (٢) الصلح نهر يخرج من دجلة فيروى إقليم واسط وبه سميت فم الصلح وقد فاض هذا النهر مرة نظرب الاقليم (٣) المكارى من كرى النهر استحدث حفره وهو من باب رضى (٤) جمع نابغة . وطاء المسك .

وفي ليلة البناء سارت «بوران» على بساط من الذهب وقد ألقى عليها من كرائم
الآلآت وغوالى الجواهر ما أثقلها وطافها عن المسير حتى رفع بعضه عنها . ولما
اتتهت إلى المأمون ثرت جديتها ألف حبة من اللؤلؤ وقد أوقدوا تلك الليلة شمعة
من المنبر زتها أربعون مناً في بور من الذهب وكان ما أنفق الحسن على حاشية
المأمون وخدمه وجنده وقواده وقُصَّاده ستين ألف ألف درهم .

إلى ذلك لقد بلغت الدولة من الشرف والترف ووفر الفنى وفيض الثراء .
وليس ذلك بعزيز على دولة بسطت ظلها على مناطق الفرس وسواد العراق
وريف مصر ومشارف الشام وما إلى أولئك من كل سهل مُمْرِع وواد خصيب .

على أن الذى ذكرناه من زهو العرب في أفراحها لم يحاوز السراة المتحضرين
منهم ، لأن ذلك كله فوق مثال الدهماء من أهل البادية وإن كانوا يفعلون من ذلك
في أفراحهم جهد ما تصل إليه أيمانهم .

وهذا الذى نسوقه إليك وصف ظريف وصف به أعرابي هبط إحدى قرى
الشام عرساً رآه فيها ولم يكن له عهد بمثله قال :

دخلت قرية بكر بن حاصم الهلالي وإذا أنا بدور متبانية ، وإذا خصاص بيض^(٥)
بعضها إلى بعض ، وإذا بها ناس كثيرون مقبلون ومدبرون عليهم ثياب حكوا بها أنواع
الزهر ، فقلت في نفسي هذا أحد العيدين الفطرا أو الأضحى ! ثم رجعت إلى ما عذب
من عقلى فقلت : نرجعت من أهلى في عقب صفر وقد مضى العيدان قبل ذلك فينا

(١) المن رطلان (٢) إناء (٣) خصيب (٤) الدهماء سواد الناس وطائفتهم (٥) الخصاص

أنا واقف أنصحب إتانى رجل نأخذ بيدي فأدخلنى بيتنا قد نجد^(١) وفى وجهه فرس
مهمر وعلينا شاب ينال فرع شعره كتنفيه والناس حوله سماعان فقلت فى نفعى^(٢)
هذا الأمير الذى يحكى لنا جلوسه وجلوس الناس حوله ، وقلت وأنا مائل بين يديه :
السلام عليك أيها الأمير ورحمة الله قال بفذب رجل بيدي وقال : ليس هذا بالأمير
قلت فن هو ؟ قال : عروس قلت : وانكل أماء^(٣) ا لرب عروس بالبادية قد رأيتـه
أهون على أصحابه من هنة فلم ألث^(٤) أن أدخلت الرجال علينا آتات متدورات من
خشب ، أما ما خف منها فتحمل جملا ، وأما ما ثقل فيدحرج فوضعت أمامنا وتحلق
القوم عليها ثم أتينا بحرق بيض فالتقيت عليها ، فهممت أن أسأل نوعة منها أرفع
بها قيصى وذلك أنى رأيت لها نسجا متلاحما لا يتبين لها سدى ولا لحمة^(٥) . فلما بسط
القوم أيديهم إذا هو يتزق سريعا وإذا هو صنف من الخبز لا أعرفه . ثم أتينا بطعام
كثير من حلوى ومامض وحار وبارد فأكثر منه وأنا لا أعلم ما فى عقبه من التخم
والهشم . فلما انتهى الطعام هم علينا شياطين أربعة أحدهم قد صلق جعبة فارسية مفتحة
الطرفين قد شبكت بالخيوط وقد ألست قطعة فرو كانتهم يخافون عليها القز ثم بدا^(٦)
الزابع عليه قيص وسراويل قصيرة بفعل يقفز صلبه ويهز كتفيه ثم التبط بالأرض .
فقلت معتوه ورب الكعبة ثم ما برج مكانه حتى كان أغبط القوم عندى . ثم أرسلت
إلينا النساء أن أمتعنوا من هوكم فبعثوا بهم إليهن وبعيت الأصوات تدور فى آذاننا .
وكان معنا فى البيت شاب لا آنة له فقلت الأصوات له بالدعاء فخرج بجاء بخشبة

(١) تنجيد البيت تريته (٢) السماعان الجانبان (٣) الهنة كناية عن خسيس الشيء (٤) آتات

جمع غير قياسي لإناء (٥) السدى من غيوط الثوب ما مد منها طولا والهمة ما مد منها حرما (٦) التخم

ثقل الطعام والبشم سآته (٧) ممرغ وضرب الأرض بجسمه .

في يده حينها في صدرها فيها خيوط أربعة فاستخرج من جوانبها عودا فوضعه على
أذنه ثم زَم الخيوط الظاهرة فلما أحكمها عرك أذنفا فنطق فوها فإذا هي أحسن
قيمة رأيتها قط . فاستخفني حتى قتت من مجلسي بخلست إليه فقلت : بأبي أنت وأُمي
ما هذه الدابة قال : يا أعرابي هذا البربط قلت فما هذه الخيوط قال أما الأسفل
فزير والذي يليه مثني والذي يليه مثلث والذي يليه بم فقلت آمنت بالله .

المرأة العربية

١ - ثيابها ٢ - حليها ٣ - بيتها

١ - ثيابها

لبست المرأة العربية ضروبا من الثياب مختلفا فنونها وألوانها مما أخرجته مناصح
اليمن وعمَّان والبحرين والشام والعراق وما اجتلبته من بلاد فارس وسواحل الهند .
ومنها ما رُق نسجه ، ودق خيطه ، وذلك ما تسميه بالمُهَلَّهَل والمُسَلَّسَل والمُعَقَّاف ،
وما كنف حوكه وضوعفت حواشيه وذلك ما تدعوه بالعصيق والشيع والخصيف ،
ومنها ما لم يخالط لونه لون آخر ، ولحق في ذلك الأبيض والأسود والأحمر والأصفر
والأخضر والمُدْحَى والمَشْرَق والمَقْرُوق ، وما اجتمع فيه اللونان فما فوقهما ومن ذلك

(١) يريد العود الذي يمزف به (٢) ذوالجرة القانية (٣) ما كان وسطا بين الجرة والياض

(٤) ما أشرب بالزعفران .

(١) المشرب والمخطط والمسمم والمفترق والقيق او المنمق (٢) والموشى (٣) والمعين (٤) والمصلب (٥) والمذهب (٦) .

وأما مادتها فالحرير ومنه الديباج والدمقس والسندس والإستبرق والخز وهو وبرداة كالأرنب تدعى بذلك الاسم ويشبه الحرير في ملاسته ونعومته ، ووبر الأرنب وليس كل الأرناب يتخذ وبرها ، وأما هو نوع خاص يختلج من شمالى العراق ، والقطن ، والصوف ، والكتان ، وأشباها .

وأما أنواعها بجمّة العدد ، مختلفة الميئات ، وأشملها وأعما ما أنا سائقه إليك ومنه الشعار والدثار .

(٩) أما شعارها — فالصدار والمجول «وهما قيصان قصيران متقاربان لا أكمام لهما ودونهما السراويل» .

(١٠) وأما دثارها — فالدرع وهو جلباب شامل يحيط بشعارها ، والنطاق ويلبس دون الدرع — وهو ثوب تشده المرأة إلى وسطها وترضى نصفه الأعلى على نصفه الأسفل ، ومن فوق هذين البت ، وهو ثوب أخضر مهلهل يحيط بحمم المرأة ويقنع جزء منه رأسها ووجهها ، فإن لم يكن البت فالحلّة ، « وهى ثوب بظاهره ثوب آخر

(١) الذى يتأرجح بين لونين (٢) ما أشبهت خطوطه أفاقى السماء (٣) ما اجتمع الى لونه خطوط بيض (٤) المنقوش (٥) ما اجتمع عليه الزنبرق (٦) ما أشبهت نقوشه حيون الزرجس (٧) ما تقاطعت خطوطه كتقاطع الصلبان (٨) ما حيك نسجه بخيوط من الذهب (٩) ما يلى الجسد (١٠) ما يلى الشعار .

ويُنْبَل أن يكون ظاهر الثوبين رقيقاً شفافاً ليظهر ما يليه » ، وقد تطلق الحلة على الثوب المبطن ، وقد ترتدى فوق ذلك بصنّف من الأردية أزديانا واختيالاً أو تصبّونا واحتشاماً .

ومن هذه الأردية العطف ، أو المعطف ، وهو رداء تلقيه على عطفها وترسله على جسمها ، والرّيلة وهي ملاء ذات لِفَق واحد أى شقّة واحدة ، والحسرة وهي برد موشى من برد اليمن ، وليس هناك وصف أدقّ لما من قول صبيّ لحسان ابن ثابت لسمعه الزّينار ولم يكن قد عرف اسمه فقال لابه : يا بُت لسعنى طائر كانه ملتف في بردى حبرة يمانية ، وهي أغلى وأبهج ما ارتداه النساء في ذلك العهد ، وقد شبه النبيّ صلى الله عليه وسلم الخواميم في القرآن بالحبرات تنويها لها وإشادة بفضلها .

ومن أرديتهنّ المِرط ، وهي ملاء ذات شقتين ، وليس بين أرديتهنّ ماهو أحم استعمالاً منه ، ومنها اللفّاع وهو رداء تلتفّع به وهو "بالشال" أشبه .

ولحقّ غير ذلك الوشاح ، وهو شقّة مرصّعة بالجواهر تشدها المرأة بين عاتقها وخصرها ، والسّرق ، وأحدثه سرقة ، وهي شقاق من الحرير يلتفّفن بها ، والمطرف وهو رداء مرصّع من الخزموشى بالأعلام .

والعصر ، وهو متدليل الرأس .

وهناك الميديع ، وهو ثوب تضعه عند معاناة عملها فتصون به غوالى ثيابها من الابتذال ، وهو شبيه بما ندعوه "بالمريلة" قال الضّحّاك :

أقدّمه من دون نفسي وأتقى * به الموت إذ الصوف للخزميدع

ومن أردتَهنَّ السِّلاب وهو لفاع أسود تعصب به رأسها في المآتم والمناحات ،
قال ضمرة بن ضمرة النهشلي :

هل تَنْشَنُ إلى على وجوها * أم تعصبن رهوسها بسلاب
ولحن في هذه المواطن المسح ، وجمعه مسوح ، وفي السَّاب ، جمع سلاب ،
يقول لبيد :

يَمْشَنُ^(١) حُرَّ أوجه صحاح * في السَّاب السود وفي الأمساح
وأما ما تحذيه فالتخلف وهو ما طال من الأحذية ، والقفش أو الكوث وهو
القصير المكشوف منها ، والجورب وهو شعار القدمين ، والقفاز ويتخذ للقدمين
واليدنين معا ، وهو أدق نسجا وأنضر لونا من الجورب ولذلك شبهوا به الخناء
في اليدين والقدمين فقالوا : تهفرت الفتاة إذا خضبت بالحناء .

٢ - حليها

بلاد العرب محفوفة بالحنيات بمناوص اللؤلؤ والمرجان ، وهي فوق ذلك مستورد
للذهب والفضة والزُّمُرْد والزُّبَيْد والعقيق والياقوت وأشباهاها مما يهبط به التجار
من مختلف الأقطار لبيعوه بلؤلؤ العرب ومرجانهم ، فليس بدعا بعد ذلك أن يتخذ
النساء تلك الجواهر معقد زيتن ، ومجتلب الأبصار المهن ، فلم يتجاف عنها
إلا واحدة من اثنتين : امرأة غنيت بفرط جمالها وبدع محاسنها ، فهي تتركها نقية
ذلك الجمال ، واستهانة بأمر الحلي ، وتلك التي يدعونها العاطل أو الغانية ، وأخرى
امرأة نكبتا الدهر ، واستلب منها عزيزا عليها ، فهي تطرحها كراهية للزينة وإيذا
بالخلد ، وهي التي يسمونها المرهاء ، فاة من سواهن فهن جميعا حاليات .

(١) يمشن .

تقلد الصبية العربية صنوفا من الحلي منذ بدء عهدها وأول نشأتها ، وذلك حيث يقول الله جل ذكره حاكيا قول جهلة المشركين الذين إذا بشر أحدهم بالأنثى ظل وجهه مسودا وهو كظيم : «أَوَمَنْ يُنْشَأُ فِي الْحِلَّةِ وَهُوَ فِي الْحِصَامِ غَيْرُ مُبِينٍ» فجعلوا التنشئة في الحلية شعار الإناث وموطن الكفاية هنن .

أما ما عقلت المختصر عليه من صنوف حلين ، وضروب زيتن ، فذلك الذي أورده عليك :

فهناك «التاج» أو «الإكليل» وهو عصابة مرصعة بالجواهر تحوط جبين المرأة ، «والقرط» وهو معلق في أسفل الأذن ، فأما معلق في أعلاها «فالشنف» ، والحلب وهو القرط من حبة واحدة ، ويسمى الخيط الذي يصل بين القرطين «بالعقاب» ، «والخِص» الحلقة من الذهب أو الفضة في أذن الصبي والصبية والمرأة ، هذا ، وينلب على القرط أن تعلق به جوهرة أو لؤلؤة ، وقد ضربوا المثل بقرطى مارية أبنية ظالم بن وهب الكندي زوج الحارث الأكبر الفسافي ملك الشام ، وفيهما دزان كيضى الحمام لم ير الزاوي أعجب منهما ولا أوضأ ، وقد توارثهما نساء الملوك من بعدها حتى كان مألها إلى فاطمة بنت عبد الملك ، وكانت زوجا لعمر بن عبد العزيز قبل أن يلى الخلافة ، فلما وليها قال لها : إن أحببت المقام عندى فضعى القرطين في بيت مال المسلمين فصدمت بأمره ، فلم يزالا في موطنهما من بيت المال حتى انتقض الملك الأموي فذهب خبرهما .

ومن أمثالهم : أنف من قرطى مارية ، يضربونه في كل غال وعزيز عليهم ، وقولهم : آتيك بما شئت ولو بقرطى مارية ، قال قائلهم :

يأتيها الملك الذي * ملك الأنام علانيه
المال آخذه سوا * ي و كنت عنه ناجيه
لأني أؤديه إلي * لك ولو بقرطى ماريه

وهناك «القلادة» وهي ما يجعل بالعتق ويسمى موطنها بالمقلد، وأنفسها ما كان
من اللؤلؤ وحده أو مفصلاً مع غيره من الجواهر، ومنها الزمرد والزبرجد والياقوت
والمرجان، وقد يضاف إلى ذلك الشدر، وهو حبات من الذهب، والجمان وهي
لآلئ من الفضة، وهم يسمون اللؤلؤة التي توسطت حبات العقد بالواسطة .

«والتيقصار» أو «المنخقة» قلادة لاصقة بالعتق .

وتسمى الأهداب المتدلية من القلادة على الصدر «بالسُموط» ، وواحد
سميط ، والسميط أيضا انخيط ينظم فيه اللؤلؤ وضيه .

«والطوق» حلل يحيط بالعتق وينقلب أن يكون ذلك للأطفال .

«والسيخاب» قلادة من قرنفل أو ما يشابهه، وينقلب أن تكون للأطفال أيضا .

«والسلس» نظم ينظم من الخرز، ولخرز صنوف جمّة ، أجملها وأحبها الخرز
الجماني وهو صنف من الخرز محلي .

«والوشاح» وهو خيطان من الجواهر منظومان مخالف بينهما معطوف أحدهما
على الآخر .

«والسوار» أو «الأسورة» ، وهو نطاق المعصم ، وهو من خصائص الحرائر
وفي أمثالهم : لو ذات سوار لطمتني .

و«المعضد» أو «الْمُئْلَج» طوق المعضد ، وهو شبه السوار ليد .
و«الْحَاتِم» و«الْفَتْخ» ، وأولها ماله فص ، والثاني مالا فص له ، وكلاهما
يلبس في أصابع اليدين والرجلين معا .

و«الخلخال» ، وإنما يطلق على ماله رنين ، فإن لم يكن له رنين فهو الفتخ فإن
فاص في الساق فهو النخمة ، وعند العرب صنف من الخلى يصاغ مجوفاً ويحشى
بالطيب ويسمى ذلك «الكيس» .

ويسمى صوت الحلل «الوسواس» أو «النقطة» .
و«التيمة» خرزة تعلق في عنق الصبي أو الصبية أو خيط تعلق فيه التماثيل
بزعم أنه يدفع عنهم الآفات .

ومن لواحق الزينة عندهن بل من أصولها ودعائمها الطيب وهو زينة العرب
جميعا ، رجالا ونساء وأطفالا .

والطيب عندهن على صنفين : أحواد يتبخرها ، ودهن يدهن به .
فمن الأول الصندل ، والساج ، واللبني — وهو شجر يسيل منه لبن كالعسل —
في طعمه ، والعود والنث — وهو المسك يعجن بالعود ، والزبد — وهو شجر
ذكي الرائحة .

ومن أزهارهن الآس ومنه يعتصردهن يتخذ للطيب .
ومن الثاني العنبر والمسك والفالية وهي أذكي صنف الطيب عندهن وتتخذ
من المسك يعجن بالعنبر والبان ، فأما البان فشجر يسمو ويطول في استواء وورقه
كورق الأثل وثمرته كقرن اللوباء ولها حب يعتصر فيخرج منه ذلك الدهن .

على أن هنالك من العرب ، وأخصهم أهل البادية ، من يتواصون بأطراح الطيب وترك التضمخ به ويرون في الماء غناء عنه ، ومن ذلك ما يقول الحارث ابن كعب المذحجي فيما يوصي به بنيه : وترجوا الأكفاء ، وليستعملن في طيبهن الماء .

٣ - بيتها

لم تكن بيوت العرب على سواء في تكوينها ونظامها ومادتها ، فهي تختلف باختلاف مواطنها وأقذار ذوبها ، فأهل البادية لحاجتهم إلى التجمعة ، واعتراهم الرحيل ، وتأثرهم مساقط النيث ، ومنابت الكلأ ، كانت بيوتهم بحيث يسهل تقويضها ، ومتاعهم بحيث يحتمل حمله ، فلم يجاوزوا به مواطن الحاجة ، وسداد العوز .

فأما بيوتهم فأكثرها خيام تضرب ثم تطوى ، وقيل أن كانت من الحجر أو اللبن ، وهي من حيث هذا وذلك على عشرة أنحاء : خباء من صوف ، ويجاد من وبر ، وفسطاط من شعر ، وسرادق من قطن ، وقشاعة من جلد ، وطراف من آدم ، وحظيرة من شذب ، وخيمة من شجر ، وأقنة من حجر ، وكبة من لبن ، ومثلها في ذلك كمثل ما أحاط بها من سهل وجبل وجو وأرض وسماء ، غير أن أشرفهم لغدوهم على حواضر البلاد ، وغشيانهم مجالس الملوك ، كانوا يتأقنون بعض الأئمة في بيوتهم ، ويقولون لآلها من تلك المظاهر ما لا تنب عنه طباعهم ، وربما جمع الرجل بين هذه البيوت كلها أو بعضها ليتخذ منها مأوى لضيفانه ، ومثوى لعمشيرته ، وحظيرة لماشيته ، ومجلسا لنسائه ، ومهبطا لسماره ،

وكانت للنساء مجالس يجتمعن فيها فيتناقلن الحديث ، ويتجاذبن أطراف الكلام ، كما كانت للرجال أندية يتسامرون فيها ويتشاورون ، وذلك ما يراد من قول عمرو ابن كلثوم في وصيته لأبنائه حيث يقول : وأبعدوا بيوت النساء عن بيوت الرجال فإنه أغض للبصر .

أما المدن فاستقر الدور والقصور ، وهي لا تقل في شيء عما سواها في مختلف الأقطار والأمصار ، وبينها أبدع ما وضعته الأيدي وأثمرته العقول ، ففي اليمن محمدان وظفّار وأشباهما ، وفي العراق الخوارج والسدير وأضرابهما ، وفي الشام السويداء وقصر الغدير ونظائرهما ، وفي تدمر وبيداء الرّواق الأعظم والأبلى الفرد وأمثالها ، وفي كلّ مدينة من القصور الشّم ، ما لا تتأله العُصم ، ومن دونها قصور لا تلتاها سناء ولا بناء ، حلّ أنّ لها نصيبها من جلال وجمال ، ومن ذلك تعلم أنّ بلاد العرب لا تقلّ في بيوتها عن كلّ بلد مشرق العهد ، صريق المجد ، بعيد الأمد .

أما أناسها ومتاعها فإنّ ناقلاً لك أعمه وأهمه ، ففيها من الفرش «الحصير» ومنه المنمّق المنقوش ، وفي النساء صوانع خصصن بتنميق الحصير ، قال النابغة :

كأنّ بحز الزامسات ذيوها^(١) * عليه حصير تمقته الصوانع

و«البساط» وهو كلّ شيء بسط ليجلس عليه ، ومن البسط «الرّفرف» وهي بسط خضر ، وأحدثها ررفة ، و«الزرابي» جمع زرب ، وهي بسط بديعة الرواء ، لها تحمّل^(٢) ناعم دقيق ، ولما سميت بذلك تشبيها بالزرب من الزهر ، وهو نبات يجمع بين الصفرة والياض ، و«الطنافس» جمع طنفس ، ومثلها كمثل الزرابي

(١) الإبراج المرافق للأقطار .

(٢) هذب .

في نخلها وإن كانت دونها ، في رقة نسجها ، ورواء منظرها ، و« العبقريّة » جمع عبقريّة ، وهى الطنافس الثخانة ، أو البسط الموشية من الديباج أو أبدع الزرابى ، و« النمارق » ، جمع نمرقة ، ومنها وسائد وبسط وهى جميعا ذات وثى مرقوم وقد ذكر الله جلّ ذكره تلك الصنوف من البسط فى القرآن فى سياق وصف الجنة ليصوّرها بذلك للعرب على أبدع ما يفهمون ، وأحبّ ما يعلمون .

أما ما على الفراش من المقاعد فنه «الحشايا» ، واحده حشيّة ، وهى مقاعد محشوة تبسط على الأرض للجلوس وفوق السرر للنوم ، وقد يبالغون فى حشوها فيتخذونه ريش النعام ، فإذا ازداد حشوها وارتفع سمكها فهى «الوشائر» ،

وعندهنّ الجملة وهى غرفة العروس تزين بالفرش والأسمرة والستور ، وبها «الأرائك» ، واحدها أريكة ، وهى شبيهة بالوشائر ، غير أنها أرفع وأرق وأبهج ، ومن أجل ذلك اختصّوا بها غرفة العروس .

وأما الأسمرة فصنوف شتى ، وأوضعها ما اتخذ من سعف النخل ، وأعزّها ما كان من العاج ، وذلك يقول فيه القائل :

والله للنّوم على الديباج * على الحشايا وسرير العجاج
أهون ياعمرو من الإدلاج * وزفراء البازل العجاج^(٣)

ولمّن غير ذلك «الكلال» ، واحدها كلة ، وهى ستور رقيقة تقي المستور بها البعوض ، وموطنها فوق السرر ودونها .

وهناك «الحلّس» وكفى يضعته تحت الفراش بينه وبين الأرض ، ويقابله «المنط» وهو طهارة الفراش .

(١) السرى أول الليل (٢) الرجل الكامل فى تجربته (٣) النجيب المسن من الخيل .

أما جدران الغرف وحيطانها فكأن يشدون عليها « النجود » ، وهى ستور منبثة ذات صور، تشد على جدران الغرف لترتان بها .

ولهن ما يحفظن به حر المتاع ، ومن ذلك الصندوق والخزانة ، والجواري ، وبعضها قريب من بعض ، فأما صندوق الثياب خاصة فهو الصوان ، وفى الغرفة المرأة ، والمسرجة وموضعها فوق المتارة ، وما يشتمل فيها هو المراج ، والقنديل وتصله إسماء الغرفة سلسلة تدخل فى عراء ، وكلا المسرجة والقنديل تضىء فيه « الذبالة » ، وهى قبيلة تستقى من الدهن ، وأكثر ما يكون دهن المصباح من الزيت ، وقد يتخذ من السمن .

تلك هى غرفة المرأة العربية ، أتينا على خير ما حوت من زينة ، وضمت من متاع ، حتى تتراءى بذلك صورة ما عليها وما حولها وحتى تعلم من كل ذلك أن المرأة العربية وإن أبرت على كثير ممن سواها فى فضلها فلم تقصر عنهن فى شيء من ما دتها وزينتها .

الكلب

الكلب حيوان أليف وهب من توفر الذكاء والجرأة والميل إلى معرفة ما تجهله نفسه ما حبه إلى الإنسان حتى اتخذته عضدا له فى كثير من الأعمال . وهو حسن الشكل شديد اليقظة كثير الانتقال سريع الحركة يحرس صاحبه ويحمى ذماره ، ويذود عن حوضه ، ويتلقاه بلطف وبشر ، ويعرفه ولو غاب عنه زمنا طويلا ، ويبدى عند لقائه من دلائل الارتياح وأمارات الفرح ما يدل على شدة

الحنين وعظيم الشوق . فبهم بإشارة منه ما يريد ، ويقرأ في وجهه ما يشفيه ، تلاحب أولاد سيده وقد ينالون منه فلا يثير ذلك نائرة غضبه وانتقامه ولا يهيج من طبيعته ، وربما عضّ بعضهم عضّ المداعبة الذي لا يؤثّر ولا يوجع ، مع أنّ له أضراسا لو أنشبه في الصمخر لنشب ، وأنيابا لو نال بها اللحى أو العظم لفتّه .

الكلب يراه الإنسان فلا يابه له ولا يعبأ به ، وقد يزدريه ولا يفكر فيه ، ولو عرف خلقة التي امتاز بها من سائر الحيوان لعظم في عينه وكبر عنده شأنه وأثّره من نفسه منزلة الحبّ المكرّم . ولم لا يكون كذلك وهو مخلوق يفنى نفسه لبقاء صاحبه ويسهر لينام سيده . وإن نام فأكثّر ما يكون ذلك نهارا ولا يتذوق النوم إلا غرارا . ومن أتم صفاته وأكملها الإخلاص والولاء والأمانة والوفاء . قال أبو عبيدة : خرج رجل ينتظر ركاب رجل آخر فبعه كلب كان له فلما بصّره خلفه ضربه وطرده وكره أن يتبعه ورماه بحجر فأبى الكلب إلا أن يتبعه ، فلما صار إلى الموضع الذي يريد الانتظار فيه رفض الكلب عن كُتب^(٢) ، وبينما هو كذلك وافاه أعداء له يطلبونه بطلاقة لهم عنده وكان مع الرجل جاره وأخوه فأسلماه لأعدائهم وهربا عنه فقال منه أعداؤه وجرح جروحاً مُنخنة ورمى به في بئر غير بعيدة القرائم حتى حُثي عليه التراب حتى كاد يأخذ عليه منتفسه ، كلّ ذلك بمراى من الكلب وهو طوراً يهتز وتارة ينبج مثلاً مسترحماً مثلاً الفرصة لتخليص صاحبه ممّا ارتطم فيه . فلما زال عنه أعداؤه أقبل إليه الكلب مسرعاً وجعل يفتي التراب حتى كشفه عن رأسه وعادت إليه الروح ولم يبق منها إلا حُشاشة . تباعد عنه جاره وشقيقه * وينبش عنه كلبه وهو ضاربه

(١) ليلاً — والفرار قصصاً لمن النافذة . وفي الحديث : لا غرار في الصلاة . وهو أن لا يتم ركوعها

وجهردها (٢) الكلب يفتحين القرب . وقد تبدل الباء ميماً فيقال من كتم (٣) النار .

و بينا هو كذلك مرّ أناس فأنكروا مكان الكلب ورأوه كأنه يحفر قبراً فنظروا فإذا الرجل على تلك الحال فأخرجوه حياً وأتوه إلى أهله . وهذا صنيع يدل على وفاء وألفة ومحاماة شديدة ومعرفة وصبر وكرم من غير تعمل ولا نصنع .

ومن آيات إخلاصه وحجج وفائه أن رجلاً غليظ القلب خشن الطبع كان عنده كلب قد بذله الكبر بقرته ضعفاً وبمركته مسكوناً وبجواله كلالاً وذهبت فائدته وقلت عائدته ، فرغب الرجل في إبعاده عنه والخلاص منه بضربه إذا جاء ويفلق الباب ودونه والكلب مع ذلك لا يبرح مكاناً نشأ فيه ولا يفارق صاحبه ، ثم عمد الرجل إلى وسيلة من أفسى الوسائل وأخسها ذلك أنه ركب زورقاً وأخذ كلبه حتى وصل به شاطئ البحر فشدد وثاقه وقذف به في الماء ليتخلص منه (كبرت قسوة يجلها الإنسان بالحيوان المسكين) . ألقى الكلب في الماء بغاهد في سبيل الحياة حتى جهاد وبخل بروحه أن تفيض خضوعاً لتلك الفسوة ، وما زال ينشئ من ضعفه قوة ومن يأسه رجاء حتى آتته المقادير فخلّ وثاقه واقترب من الزورق حتى أنشأه من صاحبه رحمة أو تدركه عليه شفقة فيحفظ عليه حياته ويتشله من الفرق الداهم . ولكن أبى ذلك الرجل إلا تمادياً في القسوة وإرهاقاً للحيوان المسكين وإغراقاً ، وصار يبعده عنه كلما قرب منه والكلب يدفعه الرجاء فيطفو في الماء مؤثلاً أن يصل إلى المركب . وبينما الرجل في هذا العمل والكلب يسبح في بحر من الأمل زلت من الرجل قدمه فهوى في البلية ، وعلته الموجة ، وفارق الزورق ، وكاد يفرق ، فأبصره الكلب من الموت

قاب قوسين أو أدنى ، فما تلقا في مساعدته ، ولا تهاون في معاونته ولا ونى عن
نجدته ، ودفع بنفسه إليه ، وتقدم بين يديه ، وأمسك ثيابه ونجاءه ، ونسى له
ما قدمت يداه ، ولولا الكلب لكان من المغرقين .

وللكلب أعمال جمة الفوائد ، جليلة المنافع ، منها الصيد وقد يصيد الكلب
بنفسه فيكأبه صاحبه ويعوده ذلك من صغره ، حتى إذا ما اشتد ساعده أرسله إلى
الصيد فيمسكه عليه . وقد زعم أصحاب الصيد أن ليس في الجوارح شيء أجدر أن يمسك
على صاحبه ولا يمسك على نفسه من الكلب . وأحسن هذا النوع الكلاب السلوقية^(٢)
وقد يساعد صاحبه على الصيد فيخرج معه في يوم الأرض فيه مغطاة بالجليد قد
تراكم عليها طبقا عن طبق وربما ضربتها الريح فيعود كل طبق منها وكأنه صفاة لمساة^(٣)
لا تثبت عليها قدم إلا بالثبوت الشديد ، والجهد الجهد ، وذلك الصياد العاقل ،
والإنسان الكامل ، لا يدرى أين يجر الأرنب ، ولا موضع نخاس الظبي ، ولا مكن
الثعلب ، ولا غير ذلك من مواج وحوش الأرض ، فيتخزق^(٤) الكلب بين يديه وخلفه
وعن يمينه وشماله ويتشم ويتبصر ولا يزال كذلك حتى يقف على مواضع الفريسة^(٥)
فيثيرها فيها ، وذلك عمل لا ينهض به راع ولا قائف ولا فلاح . وإذا أدرك الكلب
الصائد فريسته رجع بها إلى صاحبه دون أن ينال منها ويرفق بها بعد إمساكها ويقبل
عليه هشا بشا بما أتيج له من فوز ، وما أدركه من نصر ، فما أشبهه بالجندوة
المدرب الذي أشرب قلبه طاعة قائده وحب إليه القيام بالواجب وإطمانت نفسه

(١) كلبه تكلبوا - عليه الصيد والفاعل مكاب وكلاب (٢) السلوقية نسبة إلى سلوق من أرض البين

(٣) حفرة (٤) تنشق الأرض ويخرقها جأها (٥) الذي يعرف الآثار .

لثأديته ١١١ فإذا خبا زنده ، وخالفه حظه ، وضلّ فريسته ، قفل راجعا نجلا من صاحبه كأنما يشعر بتقصير . وهذا النوع من كلاب الصيد أقوى ما يكون حاسة شمّ وطيفا اعتمادا في عمله .

أما كلب الراعى فالحاجة إليه ماسة ، والضرورة حافزة ، لأنّ قطعان الماشية إن لم تحمّطها الكلاب ، كانت نهبه للذئاب ولغير الذئاب ، وأكثر ما يترقى هذا النوع في الحقول ونشأ كما عوّده صاحبه من كثرة الانتقال والجولان حول القطيع . وقد يترك صاحبه نائما ويعسّ بعناية ودقّة معتمدا في كلّ عمله على الحاستي السمع والبصر . وهو حذر يقظ إن مرّ بمكان مخصب وقّف القطيع فيه حتّى يراه ويمنع أن يرعى ، ليس من مرعاه وأن يتلف ما ليس له ، وبالليل لا يهدأ روعه ، ولا يستريح جسده ، من كثرة تجواله ودورانه حول القطيع . فإذا استشعر خطرا داهما نبّح ليوقظ الراعى وليجمع إليه الكلاب الأخرى وسرعان ما تلقى نداءه وتعاون على عدوها وتمزقه إربا إربا . وقد يقاوم كلب الراعى عدوا أقوى منه وهو الذئب لا طمعا في إحراز النصر ولكن قياما بالواجب عليه .

وهناك نوع من الكلاب يسمى "سان برنار"^(١) وهذا النوع عظيم الجسم قووّ العضل يخرج ذلك المكان الثلجي حاملا الماء أو المشروبات الروحية أو الأغذية الصوفية ويقدم ذلك إلى المقروّين الذين نال منهم البرد القارس فذهبت قوتهم وضعفوا عن متابعة السير وجمد الدم في عروقهم فأشرفوا على الموت . وقد يتخذ المقروّون طيّة يعبر عليها ذلك المكان فيجد منه مراكبا ذلولاً ، ويرى فيه خير ناصر ومعين .

(١) اسم مكان في جبال الألب بين سويسره وإيطاليا (٢) خرق الأرض جالها وبابه ضرب .

وإذا وجد مقروءا فاضت روحه رجع إلى قوم يفهمون منه وأشار إليهم بما رأى
فيتبعونه إلى مكانه ويدلّهم عليه وهم يتولّونه ويقومون له بما يجب على الإنسان للإنسان .
وهذا النوع ينقذ من الفرق في البحار والأنهار ويستخدم لذلك ، فإذا رأى مشرفا على
الفرق رمى بنفسه في الماء واحتمله أو جرّه من ثيابه فينجيه . وهذه المخاطرة بالنفس
قد يضرّ بها الإنسان وإن فعلها مرّة من بها تمّ تشخّ نفسه أن يفعل ذلك مرّة أخرى
وتسمعه يقول : « ما كلّ مرّة تسلم الجزء » .

أما الكلب المتخذ لحراسة المنازل أو الحدائق فقد حرم كثيرا من حرية تمتع بها
نوعه ، ذلك أنه يسلك مدى النهار في سلسلة ، وإذا أطلق سراحه ساعة من نهار فذلك
لعمل آخر يكلف القيام به إذ يحضر البريد وينبث بالرسائل من مكان إلى مكان آخر
ويصحب سيّده فيحمّله من أشياء المنزل ما يقدر عليه . وهو في الليل يبيت طليقا
ولكنّه بالأسير أشبه لأنّه لا يتأدّر البيت ولا الحديقة .

وفي بعض البلاد يستصحب الصانع المعدن كلبا يهديه الطريق المستقيم ويحجّبه
الوعر ، وهذا النوع يدرك حاجة صاحبه إليه فيلازمه كظله ولو عرض له كلب آخر
وتحرّش به لا يلتفت إليه حرصا منه على خدمة سيّده ، وإذا جاء الليل ونام سيّده على
فراش يؤسه بات ليله حارسا لآياه فهو ملازمه في السراء والضراء حتّى بعد الموت يلازم
قبره أيّاما ولا يفارقه إلّا لحاجة يسدّ بها رفقته . وقد استخدمت الكلاب في أعمال شتى
فقامت في الحروب بحراسة الخنادق ونقل البريد وغير ذلك . وكانت قديما تجرّ العجلات
الصغيرة التي يركبها صغار الأولاد ومعهم مربّيتهم ، كما كانت تدير آلات صغيرة مدّة
من النهار وتتولّى كور الحداد وتساعد . وهذه أعمال شاقة يجب ألا يقوم بها

ذلك الحيوان وهناك ما هو أقوى منه وأجدر بالقيام بها ، لذلك منعت جمعية الرفق بالحيوان كثيرا من ذلك لما فيه من القسوة والإيلام .

وقد يصاب الكلب بنوع من الجنون يسمى «الكَلْب» وهو داء يقتل الكلاب وقتل به كل شيء عذته إلا الإنسان فإنه يعالج فيسلم . فيعجب التحرز منها إن أصيبت به ليؤمن شرها ويحمد عاقبة اقتنائها .

آثار العلم في الحضارة

كان الإنسان في عصور الجهالة تائها في بيداء الضلالة يضرب ^(١) في أودية من الأوهام والتُّرّهات ، ويخبط في ظلمات بعضها فوق بعض ، فكانت أحواله مضطربة وأموره ملتوية وكان أقرب إلى العجاوات . فلما أشرق عليه نور العلم وضح له الطريق وذلّت له العقبات التي طالما اعترضته كلما حاول انخطو نحو منازل السعادة ، فأصبح بفضل العلم يرتفع في مجبحة الهناء ويرقُّ صعدا في سلم الحضارة ويأتي بالمدحشات من المفترعات التي يوطد بها بناء الحضارة ويقوّي بها دعائم العمران ويخفف بها من متاعب الحياة التي رزح ^(٢) تحت أعبائها حيناً من الدهر . فللمعلم أثر عظيم في رفّي النوع الإنسانيّ وانتشار رخائه . وإن من يحاول معرفة آثار العلم في حضارة العالم لحدير به أن يوازن بين أحوال الأمم والأفراد في العصور المظلمة وعصور العلم

(١) يسافر (٢) الترهة الباطل وتبيل ان الترهات أصلها (القفار) ثم نقلت الى الأفراد الخالية

من الحقائق ومثلها الأبطولة واحدة الأباطيل والخرافة على رأى في القاموس (٣) صعبة (٤) وسط

(٥) يثبّت (٦) هزل — يقال رزح البعير ألقي بنفسه من الامعاء والمزال .

المشرقة ، فعند ذلك يتجلى أمامه فضل العلم على أكل وجهه . فبالعلم توصل الإنسان^(١) إلى استخدام البخار في كثير من أعماله فعبر به البحار ، وقطع القياق والقفار ، واجتاز السهول والأوعار ، لا ينحني لأغ الحر ، ولا قارس البرد ، ولا يرهب عادي الوحوش^(٢) ولا صولة القتاك ، وارتبط العالم برباط لا تنفصم عراه ، وامترجت مدينة الشرق بمدينة الغرب وتبادل الناس المنافع وتعارف القاصي والداني ، وانتشرت المعارف بسهولة في أنحاء الأرض وسهل نقل المتاجر والتجار ، وعم العمران كثيرا من المجهل^(٣) التي ظلت أمدا طويلا وهي خراب يباب تأوى إليها الوحوش الضارية ، والهوام^(٤) القائلة ، ولولا العلم لظلل العقل الإنساني محجوبا بحجاب كثيف من الجهل ولظلت عرا التعارف منفصمة ، وأبواب المعارف موصدة ، ووسائل المعيشة مضطربة ، ونحفي على الناس كثير من عجائب الكون وآيات الخالق الدالة على وحدانيته وقدرته . من كان يظن أن الإنسان يستطيع أن يخلق في جو السماء ويراحم السور في الهواء^(٥) ، و يفوس في أعماق المحيط فيهيح الإسماك في مسابجها ، ويتسلق شاقق الجبال فيروّع^(٦) الثعص في معاقها ، ويمتاز الصحارى المحرقة ، والبيد المهلكة ، في القز والقيظ لا ينحني هلاكا ولا يخاف عدوانا بعد أن كان السفر عنده قطعة من العذاب لا يلجأ إليه إلا مكرها ، ولا يقدم عليه إلا مخاطرا بماله وحياته ؟ وقد استخدم الناس البخار في حرت الأرض وكري الأنهار والجداول وتعبيد الطرق وحصد الزرع وغير ذلك مما عاد على^(٧)

(١) جمع فيفاء وهي الصعراء (٢) الومر الصمب وزنا ومعنى (٣) ح . جمع مجهول وهو المكان المجهول وضده الملم (٤) دارياب لا ساكن بها (٥) الهامة ماله سم يقتل (٦) منقلقة (٧) جمع جو (٨) جمع أحم وهو التيس المنتع في الجبل (٩) جمع يبداء وهي الموضع المهلك الذي يضل سالكة ولا يأمن الهلاك (١٠) البرد - يقال قر المكان قرأ رد والاسم القربا لغم (١١) حفر (١٢) تهديد وتذليل .

الإنسان بالراحة وأبقى عليه صحته وأحواله وأوقاته . وبالعلم اهتدى الناس إلى الكهرباء فتمكن الإنسان أن يخاطب أخاه بالبرق الصلبي والاثيري وأحدهما في أقصى المشارق والآخري في أقصى المغرب ، لا يحول دون ذلك جبال شاذة ، وصهار شاسعة وبحار زاهرة^(١) بعد أن كان البريد ينقل على ظهور الإبل تقطع به الأنظار فلا تصل إلى أصحابها إلا بعد أيام طوال بل شهور ممتدة ، وقد يسطو عليها قطاع الطرق فيسلبون البريد مامعه ، ولا تسلم عما يعقب ذلك من اضطراب الأمور وزعزعة أركان الأمن وضيق سبل التجارة وقلة أسباب الرزق وتقطع أوصال العالم . وبالكهرباء أمكن الناس أن يديروا أممهم الآلات لإرواء أرضهم أو طعن غلالمهم أو إجادة مصنوعاتهم . فقد استلبط العلماء الكهرباء من حركة مياه "الشلالات" بلا كبير عناء فأغنت الناس عن كثير من الوقود الذي كانوا يشترونه بالمال الكثير . ولقد كان لشلال "نيابجا" بأمريكا أثر عظيم في إسعاد أهلها ونمية ثروتهم ورواج مصنوعاتهم وكثرة إنتاجهم . وقد صرحت أزمته طويلة على الشلالات والناس عنها معرضون ، لا يفكرون في الاستفادة بما أودعته من قوة عجيبة ، وأتى للجاهل أن يهتدى إلى عجائب الكون ويعرف كنه أسراره "هل يستوى الذين يعلمون والذين لا يعلمون ؟" وبالكهرباء اخترعت المراكب الكهربائية التي تشق المدن فاذية رائحة فتريح الإنسان من عناء طالمًا كان يشكو فلا يجد عنه تحيصا^(٢) . فبالمراكب الكهربائية ازداد عمران المدن واتسعت نواحيها واستتب الأمن فيها . وبالكهرباء أثار الناس منازلهم فأصبح ضوءها بهجة المدن وزينتها . وقد استطاع العلم أن يستخدم الكهرباء في اختراع المسيرة فتيسر للناس أن يكلم بعضهم بعضا على بعد الشقة كأنهم متجاورون

(١) ملوحة وطايبه (٢) حقيقة (٣) ممدد ومفر (٤) تهيأ واستقام (٥) المسافة .

بجمعهم مجلس واحد . وقد اخترع العالم "ماركوني" الإيطالي مسرةً أثريةً يتسربها أن يخاطب المرء أخاه ولو كان أحدهما راكبا قطارا والآخر جالسا في بيته . حتى قبل أن جماعة سافروا في يولييه سنة ١٩٣٠ بالباخرة "فكتوريا" من إنجلترا إلى أمريكا فسمعوا وهم في عرض البحر عزف الموسيقى من إحدى محطات إنجلترا . وخطب الرئيس هاردينج خطبة في مدفن لارنيجتون يوم ١١ من نوفمبر من سنة ١٩٢١ أذيعت بالمسرة الأثرية وسمعا عشرات الألوف في نيويورك وسافرنسكو وكانت نبرات الخطيب واضحة . وبالعالم تمكن العالم الفرنسي الشهير "باستور" من كشف جرائم كثير من الأمراض التي كانت تفتك بالعالم فتكا ذريعا وعرف أطوار نموها ، فأمكن مكافئة كثير منها بوسائل كثيرة أشهرها التلقيح الذي انقطع به دابر الجذري في العالم أوكد . وقد اخترع العالم "رتجين" أشعته المشهورة التي حم نفعها وطار صيتها في الآفاق ، فأمكن الطبيب أن يكشف باطن الجسم وأن يقف على جلية المرض ويعرف حقيقة الداء وموطنه فيصف الدواء الناجع ولذلك فضل عظيم على الطب لا يمحى . وقد اهتمت سيدة فرنسية في الأيام الأخيرة إلى معدن "الراديوم" الذي اتخذته الأطباء دواء للسرطان ، وجرب هذا الدواء فكان نجاحه تاما وظهر أنه على فرط غلاته وندرته وجوده أنجح دواء لتلك الداء العضال الذي روع الإنسان أحقابا طوالا وعى بعلاجه نطس الأطباء .

(١) عرض البحر مظمه (٢) رئيس الولايات المتحدة توفى قريبا . كانت الخطبة يوم احتفال أمريكا بالجندي المجهول المفقول رفاقه من ميدان الحرب بفرنسا (٣) هولويس باستور الكيمياء الفرنسي ولد سنة ١٨٢٢ وتوفى سنة ١٨٩٥ (٤) عالم ألماني اخترع أشعته المشهورة توفى في سنة (١٩٢٣) وسه ٧٨ سنة (٥) حقيقة (٦) مدام (كوري) كشفت الراديوم سنة (١٨٩٨) (٧) أقنع (٨) الشديد (٩) عجزه (١٠) جمع نطس وهو العالم بالطب كالطاسي .

وقد أمكن نقل الدم من جسم السليم إلى جسم المريض جقنا في الأوردة لتقوية الضعاف، كما أمكن فحص الدم وسائر مفرزات الجسم لمعرفة جراثيم الأمراض قبل البدء بالمعالجة، وسهل استئصال عضو من باطن المريض كالكلية ومزولة كثير من العمليات الجراحية بدون أن يلحق حثفه^(١)، بل أمكن نقل عضو سليم من حيوان إلى إنسان مريض، فقد روت الصحف أن بعض الأطباء نقل عين أرنب إلى إنسان تلفت عينه وذلك معجزة باهرة للطب هدى إليها العلم لما أعظم فضله وأظهر أثره !

وبالعلم انتشرت المراصد الجوية في جوانب الأرض فأمكن بها معرفة مَظَانِّ^(٢) الأمطار ومهابِّ الرياح والأعاصير ومواطن الزلازل، فلا تكاد تهبَّ عاصفة أو يقع زلزال حتى تبادر المراصد إلى نشر تفاصيلها مهما بعد مكانها. وبالعلم تحكَّم المهندسون في مياه الأنهار التي كانت تذهب سُدى في ماء البحار والمحيطات فوضعوا لها نظماً متقنة وحجزوها وراء السدود^(٣) "الخزانات" وشقُّوا لها الجداول في طول البلاد وعرضها فأحيوا بها أرضاً مواتاً لولا العلم لظَلَّتْ جرداء مقفرة .

وإنَّ من يوازن بين حال المدن في العصور المظلمة وحالها اليوم وقد برَّضت شمس العلوم وتبَّجَّ^(٤) صبح الحضارة يرى أثر العلم ظاهراً في زيادة عمراتها، ودقَّة نظامها وكِمال نظافتها، وضخامة بنيانها، وكثرة شوارعها، وسعة ميادينها، ووفرة وسائل الانتقال بينها وما فيها من أمن وسكينة، حتى إن كثيراً من المدن بأوربا «كبرلين» «ولندن» تسير

(١) هلاكه (٢) المكان جمع مظنة وهي العلم أى حيث يعلم الشيء (٣) ماتت الأرض موتاً

ومواتاً خلت من البهارة والسكان فهي موات تسمية بالمصدر (٤) طلعت (٥) أسفر رأياه .

فيها المراكب الكهربية تحت الأرض وفوقها وعلى طرق مرفوعة في الهواء وتملؤها السيارات غادية ورائحة ولها من كمال نظامها ، وانتشار الشرط فيها ، ما يمكن به (١) ملافاة حوادث التصادم والاختيال التي كثيرا ما أزهقت نفوس ذهبت ضحية سوء النظام .

حقاً إن العلم غير نظام الحياة ، وفسح للعقل مجال الإبداع والإجادة والافتنان (٢) وأنهى العالم من همجية مظلمة ، إلى حضارة مشرقة ، ولا يعلم إلا الله أيقف عقل الإنسان عند هذه الغاية أم يظل يأتي بالعجائب والمدهشات ؟

العزيمة

العزيمة هي الإرادة المؤكدة وعقد النية على الأمر وتصميم المرء فيه من غير أن يجعل للتردد إلى نفسه سبيلاً . وهي خلق من أنبل الأخلاق عليها تتوقف سعادة المرء وعلى أساسها يبنى مستقبل حياته ، ومن لا عزيمة له لا يستقيم له أمر ، ولا يتنظم له عمل ، بل تراه دائماً مترقدا حائراً ينتقض اليوم ما أبرم بالأمس . ولا يزال كلما هم بعمل من الأعمال يقدم رجلاً ويؤخر أخرى لا يعلم أيُّه أم يُحجِم حتى يلتوى عليه أمره ، وينكص على عقبيه ، ويقعد ملوما محسوراً : وكَم من تاجر زاول مهنة التجارة وجد في سبيلها ما سلس له زمانه ، وأقبلت عليه أيامه ، ثم خانته الحظ يوماً من الأيام (٣)

(١) زهقت نفسه من باب تعب خربت وأزهقها الله إزهاها (٢) التصرف في المخترعات والإبتيان بها

على فنون شتى وأصله من اهن الفرس لم يستقم على حال واحدة في العدو (٣) هم في الأمر مضى فيه (٤) يصعب

(٥) يرجع (٦) ذا حسرة وتدامة (٧) مهل وبابه تعب .

نفسه خسارة لا تعد شيئاً مذكوراً إذا قيس بمآ أصاب من الريح في أيامه الماضية،
 فوهت عزيمته، وقُتِرَ هِمَّتُه، وتملكه اليأس فنفض يده من العمل، وسقط في هوة
 الفقر والشقاء. ولو أنه إذ بكأ به حفظه^(٧)، شجذ هِمَّتُه، واستحث عزيمته، وكالغ الأيام
 غير هَيَّاب ولا وكل^(٨)، لقر بالعاوية عينا، وشرح بالهناة صدرا: وكم من طالب كان
 في طليعة إخوانه همة ونشاط ثم عثر به حفظه، فأخفق في بعض الامتحانات فتشامم،
 وظن أنه مقضى عليه بالإخفاق فتكاسل وتراخى فأصبح في مؤخرة رفقة بعد أن كان
 في مقدمتهم. ولو أنه كان قوى الإرادة ما حفل بتلك العثرة التي صادفته في حياته
 ولا استمر في نشاطه واجتهاده حتى يتم له النجاح.

فالعزيمة هي القوة التي لا تغفلها الحوادث مهما تتابعت، والميجر الذي لا تؤثر
 فيه النكبات ولو توالى. وما من إنسان ذى عزيمة وجه همة إلى غاية من الغايات
 ألا أدركها وعاد منها بالصفقة الزابحة^(٩). وأقرب مثال لقوة العزيمة أنا نشاهد كثيرا
 من الطلبة الذين لم يرزقوا حفظا وافرا من الذكاء ولكنهم أولو عزم وإقدام لا يزالون
 يشحذون العزائم ويصلون الليل بالنهار مثابرين على تحصيل العلم حتى يبلغوا شأوا^(١٠)
 يحلمهم أعزّة بين أقرانهم ومثالا في النبوغ يقتدى به: وإن التاريخ ليدلنا على ما كان
 للعزيمة من الأثر الظاهر في نهضة الدول وتأسيس الأديان: هذا رسول الله صلى الله
 عليه وسلم نهض وحيدا يدعو إلى الله قوما ألّفوا عبادة الأوثان وتمسكوا بسنن آبائهم

(١) ضغف (٢) سقط لوجهه (٣) أحد (٤) ضعيف كثير الانكسار على غيره (٥) مقدمة

(٦) تدمرها (٧) المقد: كانت العرب من عادتهم إذا وجب البيع ضرب أحد المتعاقدين يده على يد الآخر

أى صفق ثم استملت الصفقة في المقد قسمه (٨) ظاية .

الأولين وكان في طبعهم الأنفة والحمية فتهنأوه وآذوه واقتنوا في إساءته ، طمعا في أن يكف عن دعوته ، وينكس على عقبه ، ووعدوه ومثوه ^(٢) فما قل ذلك من عزيمته ، ولا أوهى من همته ، بل زاده تمسكا بأهداب الدعوة ، وحرصا على نشر الدين ، فذلت له أحناف الجبارة ، ودخل الناس في دين الله أفواجا . وهذا يلال بن رباع رضي الله عنه كان عبدا لأبي سفيان ، فلما أسلم صب عليه سوط العذاب وتركه للصبيان يسحبونه بحبل في عنقه طمعا في ارتداده ، فما زاده ذلك إلا استمساكا بعروة الدين ومضاء في إسلامه ، وهذا الخليفة الأول « أبو بكر الصديق » رضي الله عنه قلد زمام الخلافة بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم فرأى عصا المسالمين قد انصدعت فمن مانع للزكاة ، إلى مرتد عن الإسلام ، إلى مدع للنبوّة ، كسيامة الكذاب . فعزل على كبح جماحهم ونخرج بنفسه لقتال « بنى مبس » و « دُبيان » فقال له المسالمون تَشُدُّكَ الله يا خليفة رسول الله ألا تعرض نفسك فإنا إن نُصِّب لم يكن للناس نظام ، ومقامك أشد على العدو ، فابعث رجلا فإن أصيب بعث آخر فقال : لا والله لا أفعل ولأواسيتكم بنفسى . فقاتل القوم حتى هزمهم وقفل إلى المدينة وما هي إلا مدة قليلة حتى خَفَقَ علم الإسلام في أنحاء جزيرة العرب ودان العصاة للمسالمين ، وطادوا إلى حظيرة الإسلام ، ولولا عزيمته أبي بكر لقضى على الدين الحنيف في مهده : وهذا « خرمشوف كلب » مرتاد أمريكا نهض والمصور مظامة ، والعقول خامدة ، يستهض المهم لاستكشاف ذلك العالم الآخر ، ونادى

(١) الحمية والاستكاف والاستكبار (٢) وعدوه أمان كثيرة (٣) هو مؤذن النبي عليه الصلاة

والسلام (٤) انشقت والمراد تفرقت كلمته (٥) الكبح جذب الدابة لتقف والجماح والجروح الاستعصاء

بأنه عالم عظيم مملوء بالخيرات ، حافل بالبركات والثروات ، فسخر منه أهل أوربا ،
لما ضعفت عزيمته ، بل قابل بخيرية القوم بعزيمة الواثق برأيه ، المقتنع بصحته ،
حتى كَلَّ مسماه بالنجاح ، وفاز بطليته ، وفتح للعالم فتعا عظيما بكشف أمريكا ،
وقرن اسمه بها ، فاكسب مجدا لا يفنى ما تماقب الجديدان ^(١) .

فالمائل من اعتمد على العزيمة ، وأخذها عضده ، في جميع أحواله ، وإنما
تقوى عزيمة المرء بالترقى في كل ما يهيم به من الأعمال ، والنظر في العواقب ،
والاحتياط لما يتوقع ، والاهتداء بأراء العقلاء والمجربين ، حتى إذا ما وضع له النهج ^(٢)
قصد إلى غايته وهو أمضى من الصَّارم عزما ، ومصداق ذلك قوله تعالى «وشاورهم
في الأمر فإذا عزمت فتوكل على الله» وليس من الحكمة أن يندفع الإنسان في أمره
بلا فكر ولا روية ولا استعانة بالمشورة والتجارب فذلك هو الطيش المهلك ، والحق
النعيم ، بل الحكمة وسداد الرأي في التدبر قبل الإقدام على الأمر ، فذلك أدعى
للسواب وأهدى على صاحبه ، وأبقى للضلال ^(٣) ، وأبعد من العثار :
إذا كنت ذا رأى فكن ذا عزيمة * فإن فساد رأى أنت تترقا

الشجاعة

هي أن يُقَدِّم الإنسان حيث يكون الإقدام حميدا ، وأن يواجه الشدائد
والمفرزات حين يكون ذلك جميلا . وهي فضيلة النفس الغضبية ، وعنوان الإرادة
الحازمة القوية وهي ضربان : الشجاعة الجندية والشجاعة الخلقية .

(١) الليل والنهار (٢) يخطر ويرتقب (٣) الطريق (٤) السيف القاطع (٥) أعود بالقائمة

(٦) أبعد وأدفع للضلال .

١ — الشجاعة الجندية

هي شجاعة الفارس وصدق بأسه عند التهام الحروب واشتجار الأسلحة^(١) ، يركب الأهوال ، ويفشى الشدائد ، ويخوض الغمرات في سبيل النود عن حقيقته^(٢) ، والاحتفاظ بالراية التي بيده ، تهوى أمامه رموس الكآبة^(٣) والألحاجد^(٤) ، ويشهد مصارع الفرسان والأبطال ، ويرى الآجال تهترس الآمال ، فلا يزداد إلا جراءة صدر ورباطة جأش^(٥) .

ومن الشجاعة الجندية أن ترى الكتيبة^(٦) نفسها في ساحة القتال وقد تكاثرت عليها الأعداء وقتل المعين والنصير فتأبى أن تسلم رايتها وتقع في ذل الإسار ولكتها تنهض إلى معاقبتها^(٧) ، وتخفف إلى معاصمها لتتنع فيها على الأعداء ، وتصب منها النار على المغيرين والمهاجمين ، فإذا سد عليها العلو الطريق وحال بينها وبين ما تريد وقفت أمامه بأقدام ثابتة ، ونفوس مطمئنة ، وجالده مجالدة المستميت الذي لا يطمع في حياة ، ولا يرضى بذلة ، ولا تزال كذلك حتى تموت أو تظفر حميدة البلاء ، مشكورة الفعال .

ولقد كان الجنود الإمبراطوريين^(٨) في المصور الخالية من هذه الشجاعة حفظ وفير ونصيب كبير . واعتبر ذلك بما تقرأ في التاريخ القديم من أمر ملكهم وجنوده

(١) الاشتجار الاختلاف والأسنة جمع سنان وهو نصل الرمح (٢) القود الدفاع (٣) الحقيقة ما يجب على الإنسان أن يدافع عنه (٤) الكآبة جمع كى كفى وهو الشجاع المتغلب المتسلط بالدرع والبيضة (٥) الألحاجد جمع نحد وهو الشجاع الماضي فيما يعجز فيه (٦) رباطة الجأش اشتداد القلب (٧) الكتيبة الجيش (٨) المعقل جمع معقل كنزل وهو اللجأ كالصمم (٩) جالدها بالسيف تضاربها (١٠) الاسم طيون نسبة إلى أسيرة إحدى مدن اليونان .

(١) في وقعة الترموبيل وكانت عدتهم ثلثمائة اشتبكوا في قتال مع الفرس المغيرين على البلاد اليونانية، وكان معهم كثيرون من الأحلاف والأولياء من أهل الولايات المجاورة، فخانهم الخائسون من عبدة المال، وفر أحلافهم من وجه القتال، وتدفع عليهم الجيوش الفارسية وبغتهم من فوقهم ومن خلفهم وعن أيمنهم وعن شمالهم . فما ارتاعوا ولا جئحوا إلى فرار ولا صرفوا وجوههم عن القتال ، ولكن ثبتوا وهم يعلمون أنهم يثبتون للوت واستقبال البلاء ، وقاتلوا مستبسلين حتى تكسرت رماحهم وقُلت سيوفهم وسقطوا في ميدان القتال صناديدا إثر صناديد وبطلا بعد بطل ، فكانوا بذلك نفرا لبلادهم وموضعا لإعجاب الأبطال من أوليائهم وأعدائهم .

أما العرب فقد كان قسطهم من هذه الشجاعة أوفى وأتم . كانوا يخوضون مباديئ الحروب بشغور باسمه ، ورموس عالية ، وكانوا يتفاحرون بالموت في الهياج ، ويتهاجون بالموت على الفراش : سمع عبد الله حفيد العوام يقتل مصعب أخيه فخطب الناس وقال : « إن يقتل فقد قتل أبوه وأخوه وعمه من قبل ، إنا والله لا نموت خفا (٢) ولكن قطعاً بأطراف الرماح ، وموتاً تحت ظلال السيوف ، وإن يقتل مصعب فإن في أهله خلفاً منه » ومن قرأ شعر العرب وتدبر ما جاء فيه عرف بعض ما كانوا عليه من بسالة وحماسة وإقدام على المهالك وشغف بخوض المعامع ولقاء الأبطال . قال عنترة العبسي :

(١) الترموبيل هم مزيقي بن جبل "أرتيا" والمستنقعات الممتدة على شواطئ خليج "ماليا"

من بلاد اليونان (٢) جئحوا مالوا (٣) مات خفا مات على فراشه من غير قتل ولا ضرب ولا غرق ولا حرق .

بَكَرَتْ تَخَوَّفَنِي الْخُفُوفَ كَأَنِّي * أَصْبَحْتُ مِنْ عَرَضِ الْخُفُوفِ بِمَعْرِزِلِ^(١)
فَأَجَبْتُهَا إِنَّ الْمَيْتَةَ مَتَهَلُّ * لَا بَدَأْتُ أَسْقَى بِكَاسِ الْمَنْهَلِ
فَأَقْنَى حِيَائِكَ لَا أَبَالِكَ وَأَعْلَى * أَتَى أَمْرُؤُ سَامُوتَ لَأَن لَمْ أَقْتُلِ^(٢)

وَقَالَ سَعْدُ بْنُ نَاشِيطٍ الْمَازَنِيُّ يَفْتَخِرُ بِنَفْسِهِ .

إِذَا هُمْ أَلْقَى بَيْنَ عَيْلِهِ عَزْمَهُ * وَتَكَبَّ عَنْ ذِكْرِ الْعَوَاقِبِ جَانِبَا^(٣)
وَلَمْ يَسْتَشِرْ فِي أَمْرِهِ غَيْرَ نَفْسِهِ * وَلَمْ يَرْضَ إِلَّا قَائِمَ السَّيْفِ صَاحِبَا^(٤)
وَشَجَعَانِ الْعَرَبِ كَثِيرُونَ لَا يَحْصُونَ مَدَا، فِي الْجَاهِلِيَّةِ كَانَ عَمْرُو بْنُ كُلْثُومٍ، وَعَمْرُ^(٥)
ابْنُ مَعْدِيكَرِبٍ، وَعَتْرَةُ الْعَبْسِيِّ^(٦)، وَدُرَيْدُ بْنُ الصَّمَةِ^(٧)، وَزَيْدُ الْخَلِيلِ^(٨)، وَزَيْدُ الْفَوَارِسِ^(٩) .

(١) بكرت بادرت والخفوف جمع خف وهو الموت (٢) أتى حياك أزيه (٣) تكب عدل
ومال (٤) قائم السيف مقبضه (٥) عمرو بن كلثوم - من عرب الجزيرة وهو من شعراء الجاهلية المفلّحين
ساد قومه وهو ابن خمس عشرة سنة ومات بعد أن عمر طويلاً وله المعلقة التي أولها "ألاهي يصححك فأصبحنا"
(٦) عمرو بن معديكرب الزبيدي - هو أبو ثور يتهى نسبه إلى لخطان وكان فارس اليمن المظفر أسلم على يد رسول
الله في رجب سنة تسع ثم أريد ثم عاد إلى الإسلام وتوفي سنة إحدى وعشرين من الهجرة (٧) عترة العبسي -
هو أبو عمر بن شداد العبسي وأمه أمة سوداء كان من لحول الشعراء وقاروا من فرسان نجد المدودين -
عاش نحو سبعين سنة ثم مات قبل الإسلام وله المعلقة التي أولها "هل غادر الشعراء من متردم" (٨) دريد
ابن الصمة - هو أبو قرة الجشمي من أهل نجد كان شاعراً مجيداً وقاروا بطلال أدوك الإسلام ولمسلم وقضج
مع قومه المشركين يوم حنين ظهروا قتل وكان ذلك سنة ثمان من الهجرة (٩) زيد الخيل - هو زيد بن
مهلهل الطائي سمى بذلك نخمة أفراس كانت له وهو شاعر مجيد وشجاع مدود قدم على رسول الله سنة سبع
وأسلم فسماه النبي زيد الخيل وقد مات محمواً بعد انصرافه من مجلس رسول الله (١٠) زيد الفوارس - هو
أبن حصين يتهى نسبه إلى عدنان وهو من فرسان الجاهلية شهد موعدة رأس فيها ثمانية عشر من أولاده
فسمى زيد الفوارس .

وفي الإسلام كان أبطال المسلمين على بن أبي طالب . وسعد بن أبي وقاص .
وخالد بن الوليد . وقطري بن الفجاعة ^(١) . وشيب الحروري ^(٢) ، كانوا جميعا في الشجاعة
أمثلة سائرة وأخبارا شائعة .

٢ — الشجاعة الخاقية

ومنها المروءة والنجدة وهي استهانة الإنسان بما يصيبه من المكروه وما يلحقه
من الأذى في سبيل القيام بواجب تفرضه الرحمة وحق تقضى به المروءة .

ومنها أن يحود الإنسان بنفسه ويذل سعاده وهناءته ليدرا عن الناس
شرا أو ليحلب لهم نفعا وخيرا . فالأبطال الذين يقتحمون لبيب النيران ليطفئوا حريقا ،
والفتيان الذين يرمون بنفوسهم بين الأمواج لينشلوا غريقا ، والقضاة الذين يتوعدونهم
الخصوم فلا يعبثون بالوعيد . ولا يبالون التهديد . ويأبون أن يترثوا مننبا ،
أو يظفروا مجرما ، والأطباء الذين يخاطبون المرضى فيأسون جراحهم ويعالجون
أسقامهم ، ولا يقعدون عن الواجب خوف الإعداء ، وقتك الداء ، كل أولئك

(١) قطري بن الفجاعة من أكبر زعماء الخوارج وشجعانهم وشعرائهم قال الفريزي في شرحه دهران
الجماسة " القطري منسوب إلى موضع يقال له قطر والفجاعة من قولهم فجأه فجأة وفجأة وهو
أحد الخوارج (٢) شيب الحروري — أحد أبطال الخوارج الذين قادوا الجيوش لمحاربة الجحاج
ابن يوسف التقي قال صاحب المقد : وكان شيب الحروري يصبح في جنات الجيوش فلا يلوى أحد
على أحد وفيه يقول الشاعر .

إن صاح يوما حبيت الصخر منحدرًا والريح عاصفة والموج يطم

ولما قتل أمر الجحاج بشق صدره فاذا له قواد مثل قواد الجمل (٣) الإعداء انتقال الداء مثلا من
إنسان إلى آخر ومن كلام العرب : إن الجرب ليمد أي يجاوز صاحبه إلى من قاربه حتى يجرب .

أمثلة عالية للشجاعة المدنية الخلقية ، وجدير بنا أن ندعوهم أبطالاً وأنجحاداً وإن لم يشهدوا كريمة ولم يقفوا يوماً في مواقف القتال .

وهذه الشجاعة على عظيم خطرهما ، وجليل شأنها ، دانية القطوف ، ينال منها الغلام والشيخ حظوظاً وافرة ، فلا يمنع منها حداثة ، ولا يحول دونها هرم .

زعموا أن غلاماً صغيراً من غلمان الهولنديين خرج ذات يوم للترعة في ضاحية المدينة ولما أقبل الليل وأراد العودة حانت منه التفاتة فرأى صدعاً صغيراً في سد من السدود التي يقيمها الهولنديون عادة لتحجز مياه البحر عن أرض بلادهم المنخفضة ، فتأمل الصدع فإذا هو يتسع قليلاً قليلاً ، وإذا الماء يبحر في البطاح والأودية فنظر حوله فلم يجد من يعينه على رأيه ، تخاف إن هو تركه وذهب إلى تنبيه الناس في المدينة تاقم الأمر ، فغلب الماء وغرقت البلاد ، فزعم مكانه يفكر فيما يفعل ، حتى إذا رأى الثغرة قد اتسعت وانبتق منها الماء انبثاقاً خفيفاً جثا على ركبتيه وأدخل يده وذراعه فسد بهما الثغرة فامتنعت المياه ، وظل المسكين طول ليله على هذه الحال تهطل عليه الأمطار ، وتسقط فوقه الثلوج ، وتمصف به الريح ، وتغشاه أهوال الليل . فلما ظهر الصباح ومررت به السابلة وجدوه جسدًا هامداً وذراعاه الصغيرة في مكانها تسد الثغمة وتحول بين الماء وطغيانه على البلاد ، فوقفوا أمامه مبهورين وقد اعترتهم روعة من جلال الموت ، ودهشة من أعمال الشجاعة . ثم حملوه إلى أهله في إجلال وإعجاب ، فانهاه عليه والده ثماً وتقييلاً ، وكان فرحه بشجاعته وشهامته أكثر من حزنه على فقده .

(١) الصدع الشق في شيء ، صلب (٢) رأب الصدع أصلحه (٣) جثا جلس على ركبتيه (٤) السابلة

ومنها أن يرى الإنسان صبوراً في الشدائد ، جَلداً في النائبات ، تنزل به الأسقام وتلقاه المحن ، ويريمه الزمن بأحداثه وأرزائه فيقف موقف الأبطال لا يشكو ولا يحزع ولا يعمد إلى حيلة الجبناء الرمايد فيصنع نفسه ، ويُرِيق روحه بيده ، ليفتر من متاعب الحياة ، ويخلص من تكاليفها وأكدارها . تلك «وأيام الله» حيلة دينية ، وفعلية شلبية ، يلجأ إليها ذوو الهمم الصغيرة والعزائم الخائرة . ولأنما الشجاع من إذا نزلت به المصائب ، وتناوبته المكار ، لم يضق بها ذمرا ، بل يقف لها وقفة البطل المقدم يكلفها ويدافعها حتى تنقشع غمتها ، وتبطل ظلماتها ، ويحول حالها من شدة إلى رخاء ، ومن عصر إلى يسر .

وما أشجع البأس الفقير تراه كلَّ يوم وساعة يكالغ ويناضل في طلب الرزق والغناس القوت ، يستسهل الصعب من الأعمال ، ويستعين بما يلاقيه من الشدائد والأحوال ، في سبيل القيام بما وجب عليه لأولاده وعياله ، تراه كلَّ يوم وهو مقبل على عمله متجلد صابر لا يئسب الدهر ولا يشكو صروف الزمان ، ينقضي يومه في تعب ونصب فيودعه وداع الصديق الوفي ويستقبل يوما جديدا بعمدة جديدة من صبره وتجلده ، فأي شجاعة أكبر من شجاعته ؟ وأي فضيلة تفوق فضيلته ؟

والجلد في الشدائد خلق من أخلاق العرب حتى أنهم ليفخرون بالصبر عند نزول المصائب واشتداد الزمان ، قال قائلهم :

فلا أنا يأتني طريف بفرحة * ولا أنا مما أحدث الدهر جازع^(١)

أتمجزع مما أحدث الدهر بالقي * وأني كريم لم تصبه القوارع^(٢)

(١) طريف جديد (٢) القوارع الدواهي الفاجعة .

ومنها الصراحة وهي الجرأة في الرأي والخبرة في إظهار الضمير والإيانة عن المقصود
إبانة خالصة من شوائب الرياء والملك : يذهب الرجل منها أويرى رأيا فيصرف المهمة
إلى تحصيله وتحقيقه ، حتى إذا ما رأى الأدلة عليه قائمة والجميع فاهضة رفع الصوت به
عاليا ، ودعا الناس إليه جهارا ولو كان فيه ما يخالف ما لفهم وما جرت به العادة بينهم ،
لا يبالي بخيرة الساعرين ولا غضب الغاضبين ، ولا يابيه لما قد يصيبه في ذلك من أذى
وشر ما دام يعتقد أن الحق في جانبه وأنه ما قصر في مراجعة الفكر ومطالعة العقل ؛
إذا بلغت الصراحة بالمرء هذه الغاية وكان استهزاء الناس به وانحرافهم عنه
وغضبهم عليه من أجل مذهب ذهب إليه ورأى أقام عليه لا يضرب في صدر عزيمته
ولا يجيد به عن عقيدته فقد وصل من الشجاعة إلى غاية ليس وراءها ذاية .

أما الذين يرون فسادا فيما عليه الناس من دين أو سياسة أو أدب ، ويرون طرق
الإصلاح جلية ظاهرة فيكتفون آراءهم ويترمون الصمت والسكوت خوفا
من إغضاب أمير أو حبا للتقرب من كبير أو رغبة في الإبقاء على صديق فهم بالجنباء
الضعفاء ذوو الهمم الصغيرة ، والنفوس الضعيفة .

وأزل من هؤلاء وأحط أخلاقا من يرون الرأي فلا يكتفون بكتمانهم ولا
يقنعون بالصمت بل يحاربون العاقبة في الاعتقاد ، ويساريون الجمهور في الرأي والفكر
فيقولون مالا يعتقدون ويظهرون غير ما يبتغون ، أولئك هم المنافقون المراءون الذين
يسئون إلى أنفسهم وإلى الناس ويسجلون العار والخزي على الأئمة والبلاد .

وكتب التاريخ والآداب مفعة بأخبار الأبطال الذين بذلوا أموالهم ودماءهم
في سبيل حق يؤيدونه أو باطل يخذلونه . وفي مقدمة هؤلاء الأنبياء والرسل صلوات الله
عليهم ، فكم أوفوا ، وكم صبروا على ما أصابهم ، ولم يجاهدوا في سبيل الحق وإعلاء كلمته .

وقد كانت الصراحة فضيلة سائدة وخلقا راسخا في العرب جاهلية وإسلاما . كانوا يحبون الصراحة ويألفون الحرية يجهرون بما يستقدونه، حتى لقد كان الرجل منهم يعيب الخليفة أو الأمير في وجهه ، ويناقضه في رأيه ، لا يخشى بأسا ، ولا يخاف عقوبة فقد نازع مروان بن الحكم عبد الله حفيد العوام عند معاوية فكان هوى معاوية مع مروان فقال عبد الله : « يا معاوية إنك لك حقا وطاعة وإنك لك بسطة وحرمة فاطع الله نطعمك ، فإنه لا طاعة لك علينا ما لم تطع الله ولا تطرق لإطراق الأفعوان في أصول الشجر » .

واستشار معاوية الأحنف بن قيس في استخلافه يزيد فقال : « إن صدقتك أسخطتك وإن كذبتك أسخطنا الله ، فسخط أمير المؤمنين أمهون علينا من سخط الله فقال له : صدقت .

وكان لنساء العرب من هذه الفضيلة مثل حظ الرجال . واعتبر ذلك بما أورده صاحب العقد الفريد عن دَرِيَمَةَ الْجَحُونِيَّةِ ^(١) قال : حج معاوية فسأل عن امرأة من بني كنانة يقال لها دَرِيَمَةُ الْجَحُونِيَّةِ فجاء بها فلما مثلت بين يديه قال لها : « أتدريين لم بعثت إليك ؟ قالت : « لا يعلم الغيب إلا الله » قال : « بعثت إليك لأسألك كلام أحببت دلياً وأبغضتني ؟ وواليتك وما ديتني » قالت : أحببت علياً على عدله في الرعية ، وقسمه بالسوية ، وأبغضتك على قتال من هو أولى منك بالأمر ، وطابتك ما ليس لك بحق . وواليت علياً على حبه المساكين ، وأعظامه أهل الدين . وعاديتك على سفكك الدماء ، وجورك في القضاء ، وحكك بالهوى » .

(١) الجحونية نسبة إلى الجحونه وهو جبل بمكة -

فقال لها يا هذه : « هل رأيت عليّ » ؟ قالت : أى والله . قال : « فكيف رأيته » ؟ قالت : « رأيته والله لم يفتنه الملك الذى فتك ، ولم تشغله النعمة التى شغلتك » .

ولرجال العلم وحماء الدين وأقطاب السياسة من هذه الشجاعة نصيب أوفر ، وحظّ أكمل ، وهم كثيرون يعدّون بالملئات والألوف . ومنهم غليلو الفلكى نابغة الطليان فى القرن السابع عشر . كان هذا النابغة شديد الشغف بعلم النجوم وقد أوصلته بحوثه الفلكية إلى رأى فى العلم يخالف آراء أهل الكنيسة فى ذلك الوقت . رأى أنّ الأرض تدور حول الشمس وخالف فى ذلك القسيسين والرهبان الذين كانوا يذهبون إلى ثبوت الأرض ويزعمون أنّ روح الكتاب المقدس يؤيد ذلك .

ولما سمع القساوسة برأيه غضبوا لدينهم وعقيدتهم غضبا شديدا وطلبوا إليه أن يترك دعوته ويرجع إلى عقيدة الكنيسة فأبى ولم يزد إلا ثقة وإيمانا . ولما رأوا إباءه وإصراره على رأيه كادوا له ، وما لبث أن أدخل السجن ونال من العذاب صنوفا وألوانا . ولكنّها الشجاعة ملأت قلبه فصبر على البلاء وتحمل الإيذاء حبا للحق وغراما به . وقد قيل إنّ القسيسين أفلحوا معه مرة وجروا إلى القول بثبوت الأرض ولكنّه لم يغادر مجلسه حتّى عطف ثانية وضرب الأرض برجله وصاح « إنّها برغم ذلك تدور » .

ومن الذين اشتهروا بالجرأة فى الرأى «توماس مور» أحد نوابغ الإنجليز فى القرن السادس عشر فإنه أتى من ضروب الصراحة فى القول والحرية فى إظهار الرأى ما يعدّ عجبا . ذلك أنّ هنرى الثامن ملك الإنجليز فى ذلك الوقت أراد أن يطلق

زوجه كاترين على غير ذنب جتته ويبنى بغيرها «آن بولين» لمجرد هوى في نفسه .
ولما كانت الشريعة تأبى عليه ذلك طلب من رجال دولته أن يتأسسوا له قنوى ،
فعصى تومس وأبى عليه كل الإباء واعتزل منصبه الرفيع في الحكومة وفضل الفقر
والفاقة على بيع النسيئة وطاعة الملك فيما ليس بسائع ولا مشروع . فأسرّها الملك
في نفسه ومضى في تنفيذ هواه غير مكترث لمن أبى وخالف ، فطلق الأولى واعتزم
البناء بالثانية وأرسل يدعو وجوه دولته ليحضروا الكنيسة ويشهدوا عقد زواجه ، فقبل
الدعوة خلق كثير وأبأها تومس غير هيّاب ولا وجل ، فثارت لذلك نائرة الملك وغلت
مراجل حقدّه وعزم على الوقعة به ، فدنّ عليه من أتهمه مرة بالرشوة ومرة بالخيانة
فصعد في الأخلال وسبق إلى السجن فقفى فيه عاما أو نحو عام ، ثم دعى إلى مجلس
القضاء فلم يلق فيه عدلا ولا إنصافا ، جار القضية في حكمهم وقضوا بقتله وإعدامه .
وهكذا ذهب هذا الشهيد في سبيل الحق وفي سبيل الإصلاح إلى داعى النية .

القصد في الطعام أمتع وقاية للأجسام

لا بد للجسم إذا أريد حفظ حياته ودوام بقائه من الغذاء ، يحتاج به عما يفقده
في حركته ويعيد به ما دثر من جوهره وانحلّ من مادّته صونا لشخصه من الفناء ،
وتكيلا لبنائه من النقص . فالغذاء هو المادّة التي يتناولها الحيّ للتعويض بها عما يفقده
بسبب الأعمال الحيويّة التي يقوم بها ، وهو الذي يحمّد المادّة ويولّد باحتراقه الحرارة
اللازمة للجسم ويتكفل برجوع القوّة إليه ودوامها فيه ، فعليه قوام الحياة وهو عمادها .

(١) دثر يدثر أحمى وذهب ، دثر الرسم درس وزال أثره ، الدثر الهالك (٢) قوام الأمر نظامه

وقد قيل : إن الإنسان لا يعيش بدون هواء إلا ثلاث دقائق وبدون ماء إلا ثلاثة أيام وبدون طعام إلا ثلاثة أسابيع ، وهو قول تقريري قد يتخلف في كثير من الناس . غير أنه من الواضح أن ضرورة الطعام للحياة كضرورة الهواء والماء ، ومثله كمثل الوقود والماء للآلة البخارية فكما أنها لا تعمل بدونهما لا تقوم الحياة إلا بالطعام .

هذا شأن كل كائن حي من إنسان وغيره . غير أن الحيوان الأعجم إنما يعيش لياكل ، ويطعمه صاحبه لينتفع به ويستغل ثمرة حياته ولا يقصد من بقاءه أثر من هذا . أما ذلك المخلوق الكريم الذي يتفراقه له ما في الأرض جميعا وجعل كل ما في الوجود طوع أمره ، يستخذه في بلوغ أغراضه ، ويستعين به على قضاء مآربه ، فإن حياته ثمينة ، ومطالبه منها عالية ، فهو إنما يأكل ليعيش ، ويحصل غذاءه وسيلة لبقاء حياته التي هي ظرف لأعماله النافعة ، وقيامه بما خلق من أجله .

ولئن كان مضطرا إلى الطعام لأنه نقي شديد الحاجة إلى القصد فيه والاكتفاء منه ا يقيم صلبه ويمسك عليه رفقته من غير إفراط ولا تفريط فإن الغذاء وإن كان قوام الجسم ، وبه تجديد قواه ، هو أيضا سبب عظيم من أسباب ضعفه ، وإلحاق السقم عليه .^(١) أما الإفراط فيه فهو أصل كل داء ، ومنع كل شقاء ، وما مني جسم الإنسان بأضر من إدخال الطعام على الطعام ، وأزدحام المعدة بما لا تقدر على هضمه ، فالمعدة بيت الداء ، وقيل أن يجد الباحث في دواعي الأسقام داعيا شرا من الغذاء . فإن الداء أكثر ما تراه * يكون من الطعام أو الشراب

(١) الرق بقية الروح ولد يطلق على القوة — أى ما يمسك للقوة ويحفظها — ويعيش رقيق يدرك

الرق (٢) ألح السقم عليه لا زمه من ألح السائل في السؤال إذا ألح وألح الدائن على غريمه ضابطه

ودارم مطالبه (٣) متى بكذا ابتل به وأصيب .

وما ملأ ابن آدم وطاء شرًّا من بطنه . وقد قال بعض الحكماء : إذا كنت نهما فعن نفسك من الزمى^(١) . والشيع الزائد داعية إلى البشم^(٢) ، والبشم داع إلى السقم ، والسقم داع إلى الموت ، ومن مات هذه الميتة فقد مات ميتة ليمة لأنه قاتل نفسه ، وقاتل نفسه ألأم من قاتل غيره ، ذلك أنّ ذا الشراة النهم لا بدّ له من إحدى حالتين : فهو إمّا أن يكون ذا معدة تهضم ما تكتظّ به من ذلك الطعام الكثير ، وإمّا أن تعيا معدته بهضمه .

فإن كانت تقوى على هضمه فإنه لا يلبث أن تظهر عليه قطيفة من نسج أضراره . إذ ينشأ عن ذلك غالباً سمن مفرط ، قد يعوق عن الحركة ، ويشغل البدن ، حتّى يستولى عليه الكسل ، ولا ينشط إلى عمل ، ويحول ذلك بين الإنسان والتصرف في معاشه والقيام بما يرجى منه ، ويجعله بالحيوان الأعجم أشبه منه بالإنسان العاقل . وقبيح بالمرء أن يحمل نفسه بهيمة وقد جعله الله إنساناً ، ومثل هذا إن قتلوه أن يمتدّ أجله كمثل متزل فخم ينبو بكلّ ساكن ، ظاهره فيه الرحمة وباطنه من قبله العذاب . وهيهات أن يكون لصاحبه عقل مفكر أو أثر محمود « متزل حاصر وعقل خراب » . وقد ينشأ عن ذلك السمن المفرط البقيض أدواء فاتكة كالنقرس^(٧) ، وداء النقطة ، والاستسقاء^(٨) ، والقروح الجلدية ، ثم لا يلبث الجسم

(١) جمع زمن أو زمن صفة من زمن زمن زمانة وزمة إذا أصيب بهاء (٢) البشم النعمة وفله بشم يشم وقد أيشه الطعام إذا أكثرته فأصابته تخمة (٣) تمثّل (٤) ظهرت عليه قطيفة من نسج أضراره معناه سمن ، القطيفة دثار غمل (أى ذو غمل وهو كالمذهب في وجهه والمثذل كساء له غمل) أى ظهر عليه دثار من اللحم والشحم نسجه له أضراره لكثرة أكله (٥) حظيم (٦) نبا به المزل لم يرافقه ولم تلامه سكناه (٧) القرس ورم ورجع في مفاصل الكبد وأصابع الرجلين (٨) حرارة في الجوف يحبل المصاب بها بكثرة شرب الماء .

أن يضعف فيه كل عضو ما خلا الدورة الدموية ، وإذا ضعف الجسم ضعف العقل فيضعف من الإنسان النبه والذكاء ، ويظلم سراج العقل وينطفئ منه نور الحكمة ويصير جسما بلا علم . فمن الغالب أن المفرطين في السمن يفقدون مضياء الذهن وإن كان لذلك شواذ مشهورة .

هذا والسمان — كالنحاف — عرضة للأمراض الحادة غير أن النحاف أقدر منهم على مقاومة المرض واحتمال الإصابة كما يغلب فيهم إن لم تكن نحافتهم مفرطة وليدة الأسقام والعلل أن يكونوا أمضى ذهنا وأحد ذكاء ولقد صدق القائل :

إذا كان الفتى ضخم المعالي * فليس يضره الجسم النحيل

تراه من الذكاء نحيف جسم * عليه من توفده دليل

على أن البادين لا يستطيعون أن يحافظوا على صحتهم طويلا ، لأن شدة السمن تجعل الرياضة متعذرة تفضي هذه الحال بالسمن إلى ارتخاء عضلاته وضعف تغذيتها . ثم إن تجمع الدهن في الصدر والبطن قد يعوق حركة الأحشاء فيهما إلى درجة الخطر . وأقرب شاهد على ذلك تجمع الدهن حول القلب وصرقلة حركته حتى يفضي ذلك إلى المرض العضال^(١) .

والسمن هو زيادة تجمع الدهن تحت الجلد وحول بعض الأحشاء، ولا بد لكل جسم صحيح سوئ من مقدار من الدهن كثير أو قليل لقضاء وظائفه ولاستكمال

(١) البادن والبدن الجسم السمين وبدن يبدن بدونا (كمقد) عظم بدنه بكثرة لحمه فهو بادن يستوى فيه الذكر والمؤنث وبدن بدانة مثل ضخم خضامة كذلك فهو بدن (٢) داء عضال ومرض عضال أى مئ خالبا شديدا وأعضال الأمر اشتد وتعطل الداء الأطباء وأعضالهم عظيم .

شروط الحسن والجمال . وقد يكون الشخص كثير السمن ومع ذلك تراه صحيح الجسم نشيطا خفيف الحركة كير الهمّة . ولا يحسب السمن مرضا إلا إذا زاد زيادة سريعة مفرطة . أعيد هذا نظرات منك صادقة * أن تحسب السمن فيمن شحمه ورم

(١)

والسمن طيبى في بعض الأفراد والأثم تبعا للمزاج والسن ، فرب شخص يقبل جسمه النماء وأنحرا لا يكون بدنه مستعدا له . وقد يكون السمن وراثيا في بعض الأسر فلا يتبع فيه احتياط ولا علاج . على أن بعض العادات قد يزيد السمن . فمما يزيده غالبا ترف المعيشة ، وقلة الحركة ، والإفراط في النوم ، وأكل المواد الشوية والسكرية . ولرضاء البال وخلو النفس من الأكدار أثر في ذلك عظيم .

والهم يحترم الجسم نحافة * ويشيب ناصية الصبي ويهرم

(٢)

هذا وربما أفادت حتى أوبعض الأمراض الشديدة القصيرة المدة ذوى السمن غير المفيد لأنها تذهب بما في أجسامهم من فضلة الدهن التي تزيد على الحاجة ، فتساعدهم بذلك على استخدام الوسائل الكثيرة النافعة لمنع تجمع الفضول الدهنية مرة ثانية «وربما صححت الأجسام بالعلل» .

إذا علمت ذلك فهت مرقولهم : «البطنة تأفن الفطنة» فإت هذا حكم صحيح في الغالب . لأن كثرة الطعام تستلزم كثرة ورود الدم إلى المعدة والأمعاء فيقل وروده

(١) مزاج البدن ما ركب عليه من الطباع (٢) نصح الدواء وغيره ظهر أثره ونجح فيه الخلاب والوعظ والدواء أى دخل وأزواجه خضع (٣) اخترمهم الدهر وتخرمهم أى اقتطعهم واستأصلهم (٤) البطنة الامتلاء الشديد من الطعام وتأفن أى تذهب والمأفون الضعيف الرأى والعقل وأفن النافة أو الشاة يأفنها أفنا أى حليا في غير حينها ولم يدع في ضرعها شيئا . ومن هذا قول للاحق مأفون كأنه نزع عنه عقله كله وما في فلان أفنة أى خصلة غير حميدة تأفن عقله .

إلى الدماغ مقر القوى العقلية فتقلّ تقوية الدماغ ويضعف عمله . وبهذا يعلل ما يعتري الإنسان من بلادة الفهم عقب الأكل وقبلما يتم هضم الطعام ، وما يرى منه من مضاء العقل في الصباح وحين يتم هضم طعامه وإلى هذا أشار رسول الله صلى الله عليه وسلم بقوله ناهيا عن الإفراط في الطعام والشراب : « لا تيمتوا القلب بكثرة الطعام والشراب فإن القلب كالزراع يموت إذا كثرت عليه الماء » . ولما أهدى إليه الطبيب رده وقال : « لا حاجة لنا به فإننا قوم لا نأكل حتى نجوع وإذا أكلنا لا نشبع » .

ذلك إلى ما يصيب الأكل الحطمة^(١) من المضار الأدبية إذ يصبح همة بطنه وشرأته غالبية على إرادته . وحسب الإنسان نقصا أن يكون حفظه من الحياة الطعام ، وإن يأكل كما تأكل الأنعام . ومن أضل ممن اتبع هواه وكان عبدا لبطنه ؟ أو من أضل ممن ضعفت إرادته ونجا زناد فكره حتى أصبح من سقط المتاع ؟ !

ولهذه المضار العظيمة التي يسوق إليها الإفراط في المطعم نصح الخليفة الحكيم سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه للناس فقال : وإياكم والبطنة فإنها مكسلة للصلاة ، ومفسدة للجسم ، ومؤذية إلى السقم ، وطليكم بالقصد في قوتكم ، فهو أبعد من السرف ، وأصح للبدن ، وأقوى على العبادة . وفي الحديث الشريف « من السرف أن تأكل ما شئت » .

وطالما كانت شهرة الإنسان بالشره^(٢) داعية إلى صغره في النفوس ، وازدراء^(٣) العيون له ، وجعله عرضة للتهكم والسخرية ، حتى كان ذلك لكثير من الناس سببا لزمهم عارها ، ولصق بهم شأرها^(٤) .

(١) الحطمة الكثير الأكل (٢) خبت النار تجبر خبوا أى طفت وتحد لها (٣) سقط المتاع الرديء منه وما لا يفتخ به (٤) الشره غلبة الحرص على الطعام وفعله كفرح (٥) ازدراء طابه واحضره واستترا به (٦) الشار العيب والعار .

هذا كله إذا قويت المعدة على الهضم . وأما الضرر الأكبر والخطب القادح^(١)
والداء العقام^(٢) فحين تعجز عن ذلك ولا تستطيع إليه سبيلا . وهذا هو الغالب فيمن
حمل معدته ما لا طاقة لها به ولم يرق بها ، لأن المعدة مع كونها أشد الأعضاء تعباً
وأكثرها قياماً بالعمل ضعيفة الأجزاء ، رقيقة الأنسجة ، لطيفة التركيب ، فإذا
أجهدت وحملت فوق قدرتها أسرع إليها العطب ، وأصابها الالتهاب ، وقد يعقبه
غيره من الأمراض الأخرى وأخصها المغص المعدى أو التهاب الأمعاء أو الكبد أو غير
ذلك من الأدواء الخطيرة التي تنشأ عنها ، وتتفرع منها ، والتي تنهك القوى ، وتكثر
صفو الحياة ، وتهدم بناء الجسم ، وتؤدي إليه أجله ، فتحصّد زرع الشباب قبل أن
يستوى على سوقه ، وتطفئ ثمرة الحياة قبل يعمها^(٣) ، وإن قدر له طول عيش كان
الموت خيراً له من الحياة ، إذ تَدْوِي بُضْرته^(٤) ، وتذبل زهرته ، ويقتل من النعيم شقاء ،
ومن الصبغة داء ، ولا خير في حياة تنقصها الأسقام ، وترقق صفوها الآلام^(٥) ، ومن
حُرِم حُلّة المعافاة في بدنه ، فقد حرم السعادة كلها .

كذلك التفريط في الغذاء والإقلال منه إلى حد لا يكتفى البدن ولا يرد إليه مثل
ما يفقد منه ، وما أشبه الجسم بمورد ماء سائغ إذا كثر وزاده ولم يحمده الغيث وتملأ
السماء بمطارها حتى يكون ذا زيادة متصلة ، ومادة غير منقطعة ، غضب معينه^(٦)

(١) الخيل الباهظ (٢) داء عقام أى لا يبرأ لاستحسانه على المداوى وتقول بلاد بالسقام
ورماه بالداء العقام (٣) نهكة المرض ينهك من باب قمع وقب مزله وأضعفه وأضناه ويجهده ، ونهك
دفع وضى فهو نهوك (٤) ينح التمر كنع وضرب ينما حان قطافه كما ينح واليانح والينح الثمر الناضج (٥) ذوى
التيث يلوى ذرباً ذبل (٦) رقه كدرو ورتقى الماء كفرح ونصر أى تكدر (٧) غضب الماء كنعصر وضرب
نضوباً بعد وغار في الأرض .

وجف ماؤه ، وكذا شأن من يتد من جسمه بالعمل والحركة ولا تكون له عناية بتعويض ما يفقده إذ لا يلبث أن تنك قوته وتنهأ ^(١) دما ثم ينه ^(٢) .
 "فربّ مخمصة شرّ من الخم" ^(٣) ^(٤) .

ولا تنفل في شئ من الأمر واقتصد ^(٥) كلاً طرفي قصد الأمور ذميم
 ولئن كان امتلاء المعدة ، وإفهام وطاها ^(٦) شراً مستطيراً ، وداء عضالاً ، إن شدة
 الجوع لتؤدي إلى ضعف البدن ، وتوهن ما اشتد من قوته حتى يكاد يموت ^(٧) هزلاً ،
 وهيات لمن عضّ الجوع أحشاءه أن يقدر على عمل أو يقوى على حركة .

وإذا كان الغذاء هو مادة الحياة والحافظ لكان الجسم كان الاستغناء عنه مستحيلاً
 وعدم الاكتفاء بالقدر اللازم منه ضاراً . وإذا كان الطعام غير كاف لتغذية الجسم
 ضعفت قوة الدماغ بضعف تغذيته ، فالذين لا ينالون كفايتهم من الطعام
 لا ينتظر منهم أن يشتغلوا أشغالاً عقلية كثيرة . وإذا أجذب الجسم ولم يحسن
 صاحبه تعاهده والقيام عليه فهيات أن ينجى منه ثمرة طيبة ، ومن اشتد جوعه كان
 ضيق الصدر فقير النفس .

- (١) أنهار وتبورسقط وانهم (٢) جمع دماة وهي حماد ما يستند به الحائط ونحوه إذا مال
 يمنعه السقوط (٣) المخمصة المجاعة ونحوها فهو نحيم إذا جاع والمخمصة الجوعه ويقال :
 ليس البطنة خير من خمصة تبعها (٤) النخعة ما يصيب الإنسان من الإفراط في الطعام وأصله من ونم
 (٥) أضم ملاً (٦) جمع وطب وأصله سقاء اللبن وأضم وطاها كناية عن ملء المعدة (٧) مقشراً إذا نما
 كثيراً (٨) الهزال النحافة تقيض السن وقد هزل هزلاً وهزل هزلاً وهزل هزلاً وهزل هزلاً وهزل هزلاً
 (٩) تعاهد الشيء وتهده تهفقه ويبحث عنه وأحدث العهد به .

ولو أنك غرست شجرة في أصيص^(١) ليس به من الطين ما يكفي غذاءها لوجدتها بعد قليل من الزمن قد فارقتها الخضرة ، وأصبها الذبول بعد النضرة ، فاصفرت أغصانها ، ويست أوراقها ، وعريت من زيتتها ، وعطلت من حليتها ، ذلك لأن المواد الغذائية في تراب ذلك الإناء غير كافية لسد حاجتها ، والحيوان مثل النبات لا بد له أن يستوفى حظه من القوت ، ويمد بما يكفيه منه وإلا شخب لونه ، وهزل بدنه ، ووهت قوته ، وعجز عن القيام بما يربى منه .

فأحد الحالات أن يقصد المرء في غذائه فلا يسرف فيه ولا يقرّ مقتيرا بل يكون بين ذلك قواماً . وقد قرر الأطباء قديما وحديثا أن الاعتدال في الغذاء هو الحصن الحصين لمصادمة الأمراض ، وأرزا الحرير لا تقاها ، وإذا كان لأحدهما فضل على الآخر فالإقلال من الطعام خير من الإكثار منه ، وقد حث الأطباء والحكماء في كل زمان ومكان على الإقلال منه وكرهوا الإفراط فيه ، وليس غرضهم من ذلك أن يحصف الإنسان بحق بدنه فلا يمتد بما يجب له ، بل يريدون الإمساك من غاية الإكثار والبقيا على البدن عند اشتداد الرغبة . وأحسن ما يأخذ الإنسان به نفسه أن يتعاهد دنه من الطعام بما يصلحه في أوقاته وضروب حالاته بما لا يخل المصدة ولا يكتظها^(٢) فقد جعل الله لكل شيء قدرا . والقصد في ذلك يجمع إلى صحة البدن ذكاه الدهن ،

(١) الجرة تروم فيها الرياحين (٢) صلت المرأة صلا وصلولا وتسلت فهي عاقل إذا لم يكن عليها حل والتعطيل الإفراغ والإخلاء وترك الشيء ضياعا (٣) شخب لونه كعب وضروكم وشخب شعوبا وشجوبة تغير من هزال أو جوع أو سفر (٤) القوام العدل والاعتدال والقصد (٥) الموضع الحصين (٦) أجهت به كافه ما لا يلبقه وتقصه حقه تقصا فاحشا (٧) كظله الطعام ملاه حتى لا يطبق النفس فاكنت والكفة البطة وفيه يسترى الأكل من كثرة الطعام .

وإلى صفو العيش صلاح الدين والدنيا . فمن أحب الحياة فهذه سبيلها ، ومن أحب الموت فلا أبعد الله غيره .

هذا ولعناية الأطباء والحكماء والمصلحين بتدبير الجسم وحوصمهم على تمتع المرء بصحته وعالمهم بما في طرفي الإفراط والتفريط في الطعام من المضار التي تسوء مقبها بالغوا في الاحتياط لذلك ، فقدّر كثير منهم المقدار الذي ينبغي للمرء أن يسمح به لنفسه كلّ يوم ، واختلقوا في تقدير ذلك وفي عدد المرات التي يتناول فيها الغذاء مبالغة منهم في الحرص على الاعتدال ، حتى كان منهم من رأى الاكتفاء بالوجبة ^(١) وإن كان أكثرهم يسمح بتجاوزها .

على أنّ قدر الغذاء ونوعه وما يفيد الجسم منه قد يختلف في الناس باختلاف اجناسهم وبيئاتهم ^(٢) وأسنانهم وباختلاف درجة النشوء وفيهم تفاوتات أجسامهم وتغايير أعمارهم ونحو ذلك مما يجعل المساواة بينهم في التغذية غير ميسورة . فإنك ترى الذين ^(٣) ^(٤) ^(٥) يتأهبهم شغل العيش فلا يحصلون إلا على كفايتهم منه يوما فيوما من الصيد أو من جنى الثمار تؤثر فيهم عوامل الجوع والشبع فيعتريهم القرم والنهم . ومتى ظفروا بأكلة فإنهم لا يزالون يلهمونها حتى يأتوا على آخرها كما يفعل الإسكيمو إذا اصطادوا حوتا

-
- (١) الوجبة الأكلة في اليوم واليلة ويجب وأوجب أكل أكلة واحدة بالنهار ويجب المرء اعتدال الوجبة (٢) جمع بطة وهي الحالة (٣) انتابه الأمر نزل به وأتاه مرة بعد أخرى (٤) الشغل الضيق والشدة ويس العيش وشدة الشغل يابس الخبز وفله كفرح فهو شغل (٥) الكفاف من الرزق ما كف من الناس وأخفى من سؤالهم (٦) ابلى ما يعنى من الثمر وفي القرآن الكريم «ويبنى الجنتين دان» (٧) القرم شدة شهوة اللحم وقد قرم الى اللحم كفرح (٨) التهم لإفراط الشهوة في الطعام ونهم كفرح ومعنى فهو نهم ونهم (٩) التهم العامام ابتله بمرة ودجل لم كفرح ولم كهدر أكل .

فلأنهم يستمتعون على استراط لحم أيلها حتى يصبح أثرا بعد حين . أما من اتلات عينه بالخيرات وأمعده جسد الجلد بزينة لقه التي أخرج لعباده والطغيات من الرزق وعرف الغرض المقصود من الطعام فإنه يعتاد اللقطة ، ولا ميا إذا أخذ نفسه بها منذ نشأته حرصا على جودة صحته وعقله . وكذلك من عود نفسه أن يأكلها بكل ما تشتهي ويُفهم بطنه بكل ما أراد لا يلبث أن تصيب للشراهة عادة له مذمومة « إن الطعام يقوى شهوة النهم » .

ولما كان لا يتيسر للسواد الأعظم من الناس أن يحيطوا علمًا بالمقدار الذي يستد كل يوم من أجسامهم وما يحتاج إليه كل منهم لتتويض ما يفقده من لده قضت حكمة البارئ الحكيم تعالى أن أودعت كل قلب دليلا يرشد صاحبه إلى مطالب جسده . وليس هناك أصبق منه إعلاما باحتياج البدن وكفايته . ولا أهمل منه أتباعا . وذلك هو ميل النفس إلى الطعام وشدة رغبته فيه وصدق طلبها لآياه ، فله في استمراء الطعام أوفر حظ لأنه دليل على الموافقة والملاءمة . فحق أحسن المرء من نفسه ميلا حقا إلى الغذاء فإبدم عليه . وحذار بعد أن يقارب الشبع أن يرهق معدته من أضرها ضرا ، وأن يزيد لها لقمة واحدة وإن كانت في نظره سائلة .

فكم من لقمة منعت أخاها * بللة ساعة أكلات دهر

(١) مرط الطعام واسترطه ابتلعه وانسربط في حلقه الطعام سار سيرا ميلا والمنسربط اليعوم

(٢) استمرأه وجدته مرثيا ومرثا الطعام ومرثا ومرثوه مرثوه هو حبيد الخبة والمرثا يمرثو الطعام

والشراب (٣) أرهقه حله ما لا يطيق وأرهقه ضرا كلفه إياه .

والطبع يقود الإنسان إلى ما هو صالح له . وقوانين الطبيعة صالحة كلها لا يشقى من يتبعها . ولا يضل من بها يهتدى . والمرء يحيا بما يهضمه لا بما يأكله فلا ينبغي أن يأكل ما لا يهضم .

ولقد سئل بعض الأطباء عن أفضل الغذاء فقال : أن ترفع يدك عن الطعام وأنت تشبهه . ودعا عبد الملك بن مروان رجلا إلى الطعام فقال : ما في فضل يا أمير المؤمنين . فقال عبد الملك : لا خير في الرجل يأكل حتى لا يكون فيه فضل .

وسأل عبد الملك بعض الحكماء من العرب : هل اتخمت قط ؟ فقال لا : يا أمير المؤمنين ؟ قال : وكيف ذلك ؟ قال : لأننا إذا طبخنا أنضجنا ، وإذا مضغنا دققنا ، ولا نكشط المعدة ولا نخلها .

وقيل لبزجمهر^(١) : أي وقت يكون الطعام فيه أصح ؟ فقال : أما لمن قدر فإذا جاع ، وأما لمن لم يقدر فإذا وجد .

وبعد فللعادة في ذلك أثر عظيم ، ألا ترى أن من اعتاد الغذاء فتركه واقتصصر على العشاء عظم ضرر ذلك عليه . ومن اعتاد الوجبة ثم زاد عليها لم يستمرئ طعامه . ومن كانت عادته أن يجعل غذاءه في وقت من الأوقات فنقله إلى غير ذلك الوقت أضرت هذا به ، وإن كان قد نقله إلى وقت محمود . فالواجب في هذا أن يراعى العادة إذا تقادمت فطال عليها العهد ، وأن يتبع ما ألفه الجسم ، فإن حدث ما يدعو الإنسان إلى الانتقال عما اعتاد فأوفق الأمور له في ذلك أن يتقل قليلا قليلا وأن يخرج عما

(١) وزير كسرى وكان حكيما عاقلا مدبرا سديد الرأي (٢) الغذاء طعام القدوة وتقضى أكل أول

النهار (٣) العشاء طعام العشي وعشى أكله وتقول فلان غديان وعشيان .

ألفته نفسه رويدا فشد يد عادة متترمة . ولهذا يحسن بالمرء أن يأخذ نفسه منذ حداثة
عهده بتنظيم مواعيد طعامه وتحديد أوقاتها ، حتى يعتاد جسمه طلب الغذاء في حينها ،
وتلك عادة حميدة درج عليها عقلاء الناس ، وعُيِّت بها الأمم الراقية . فمن العادات المتبعة^(١)
في البلاد المتمدينة أن يأكل الإنسان قليلا في أوقات معينة مرة أو مرتين أو ثلاث
مرات أو أكثر في اليوم وهي عادة حسنة لا بد لنا من السير عليها وتطبيقها على
أعمالنا التي نقوم بها . ثم لا بد في تعيين أوقات الطعام وعدد مراته في اليوم من
ملاحظة الأعمال التي نعملها والأوقات التي نتمكن بها من أكل الطعام وهضمه
فالذين يتولون الأعمال العقلية مثلا والذين يؤدون أعمالهم جلوسا قد يكتفون بالأكل
مرة واحدة ، أما الذين يقومون بالأعمال البدنية العنية فلا بد لهم أن يأكلوا مرتين^(٢)
في اليوم على الأقل .

ولا يفترن المرء ما قد يحده في نفسه من الصحة والإقبال على التريُّد من الطعام
والرغبة الكاذبة فيه . وليعلم أن الحمية رأس الدواء ، فلا ينبغي أن يعدل عنها ثقة بقوة
جسمه أو اعتمادا على الدواء .

توفى الباء خير من تصدَّد * لا يسره وإن قرب الطيب^(٣)

هذا ولقد روى التاريخ عن بعض الناس أنهم عرفوا بالنهم ففقم الناس منهم^(٤)
ذلك ولمحج الألسنة بسيرتهم ، وأئك لتجد في كتب التاريخ والأدب حكايات كثيرة
عن الأكالين وحوادث ذوى التطفل ، وإن كان بعض هذه الأخبار مما نخرج عن

(١) جرى وسار (٢) الشديدة (٣) حتى المريض ما يضره حمية منه إياه فاحتسب ويحسب أى

امتنع (٤) توفى الشيء . وانقضاء حله (٥) تصدَّى الشيء . تعرض له واستشرفه ناظرا إليه (٦) قم منه كذا

يتقم كره (٧) لمج به كفرح أخرى به فتابرطيه .

الحدّ ووضعته للناس للفتكاه والطرائف ، ومن أشهر من عرفه بذلك وضرب به المثل في الشراهة والطمع أشعب بن جبير المدني ، وهو من موالى سينة عثمان بن عفان رضي الله عنه وتوفي سنة ٤٥ هـ وكان صاحب نواهد وملح في الطمع والحرص على الطعام ، وكان يحيد القراءة والخط وله فيهما صوت حسن ، وتمه يحكى عنه أنّ بعض إخوانه عزّم عليه ليأكل عنده فقال : إني أخاف من ثقيل يأكل معنا : فقال له صاحبه : لا تخف فليس معنا ثالث - فمضى معه فيتا هما يأكلان. إذا بالليالي يطرق فقال أشعب : ما أترانا إلّا صرنا إلى ما نكره - فقال له رب البيت : لئن صديق وفيه عشر خصلك إنّه كرهت واحدة متهم لم أكن له. فقال أشعب : هات لؤظا : قال : لئن لا يأكل ولا يشرب - فقال أشعب : التسع لك فطعمه يدخل فقهه أسماً ما كنا نخافه. وأراد أن يشتري قوساً فطلب البائع منه ديناراً فقال له : لو كنت لآذا وميت ضها سبها أصلب طائراً فوقهم مشواً بين رغيفين ما اشتريتها بدينار . وقال له يوماً سالم بن عبد الله بن عمر : ما بلغ من طمعك يا أشعب ؟ فقال : ما نظرت إلى اثنين في جنازة ينساوان إلّا قدرت أن الميت أوصى لي بشيء . ولقد طلف الصبيان حولي يوماً يتولعون بد فالوت أنه أبعدهم عني فقلت : لك في داو فلان لوزنج (١) يفرق ، فذهبوا يتعادون ، فلما فصلوا عني ظننت أنّ صادق تبعهم . ومرة أشعب رجل يصنع وعاء من الخوص فقال له : أحب أن تزيد فيه طبقة فقال الصانع ، له ؟ قال : عسى أن يهدى إلى فيه شيء يكون أكثر .

(١) جمع ملعة وهي من الأحاديث السائرة المتصنعة والطريف اللصبي (٢) أي أقسم عليه

(٣) تولع بقلان يذمه ويشتمه أخرى بد ولاومه وهو متولع بمرته يثق فيه (٤) نوع من الحلوى يعمل

بالوز وهو مرب (٥) بدلوا -

ولقد تطرف من قال في كذب مسيلة وطمع أشعب .
وتقول لي قولاً أظنك صادقاً * فاجيء من طمع إليك وأذهب
فلذا اجتمعت أنا وأنت يجلسي * خالوا مسيلة وهذا أشعب

ومن ضرب به المثل في مثل ذلك طقيل ، ويدعى طقيل الأعراس وهو
رجل من أهل الكوفة كان يأتي الولائم بدون أن يدعى إليها وكان يقول : وددت
لو أن الكوفة كلها بركة مصهجة غلا ينقى على منها شيء . ثم متى كل من عمل مثله
طفيلياً نسبة إليه وصرخوا منه فعلا فقالوا طفل فلان وتطلق ، والمرب قسسى
الطفيل الراشن وطوارش والواخل . وكان أحمد بن أبي خلف وزير المأمون وكاتبه
من الشره والنهم والتهاب اللسان بحيث يضرب به المثل فيقال : « أكل من ابن أبي
خالد » و « أنهم من ابن أبي خلف » .

ويحكى عنه أنه رأى رجلاً كورة بيلة^(٢) يقول^(٣) : ما أصعب طعام يهدي إليه ، وكانت إذا
عوتب على ما يهدي إليه من المأكول يقول : ما أصعب طعام يهدي إلى صديق لي ؟
الله يعلم أني أستحي من رده عليه . ولما عرف المأمون شره وهوله كل ما يهدي
إليه وإجابته كل من يصره وأنه لا يكاد يزايل الطعام إلا إذا علمت نفسه أجرى^(٤)
عليه كل يوم ألف درهم فلا فلم يفارق مع ذلك شراسته . وفيه بقول الشاعر :

(١) صهرج الحوض طلاء مأخوذ من الصارج كلمة فارسية معربة وهي النورة وأخلاقها التي
يطلقها الحيطان (٢) الكورة الناحية والقعق (٣) اللوان ما يترك عليه الطعام ورجه أخوة ونون
« وهو مرب » (٤) طيب كقبح وجمع فهو طيب . أعظم وقد أفسأه الشبع (٥) ما يبيا للزينة وهو
أيضا الطعام الكثير .

شكرنا الخليفة إجرأه * على ابن أبي خالد نُزله
فكفّ أذاه عن العالمين * وصير في يته أكله

ولم بعض المتطقلين على صنعه فقال : والله ما بُيِّت المنازل إلّا لتُدخل ، ولا
قدّمت الأظعمة إلّا لتؤكل ، وإني لأجمع في التطفيل خللا : أدخل محالسا ، وأقعد^(١)
مستأسا ، وأنبسط وإن كان ربّ المجلس عابسا ، ولا أتكلّف مغرما ، ولا أتفق درهما .^(٢)
وقصد جماعة من الطفيليين باب بعض الكبراء وقت غذائه فتمهم بوابه أن
يخلوا فكتب إليه بعضهم .

قد قصدناك زائرين خفافا * وعلما بكّ عندك فضله^(٤)
ولدينا من الحديث هتات * معجبات نعلها لك جملة^(٥)
إن تجمدنا كما تريد وإلّا * فاحتملنا فإنما هي أكله

ومن دماء بعض الطفيليين : اللهم ارزقني صحة الجسم ، وكثرة الأكل ، وتقواء
المعدة ، وقد أجاد من قال في وصف طفيل .

لو طبخت قدر بمطمورة^(٦) * في الشام أو أقصى جميع الثغور
وأنت بالصين لوأفيتها * يا عالم الغيب بما في القدور

(١) من اختلس الشيء وخطه سلبه وأخفاه بسرعة ومهارة والامم منه انطلمة ، يقال : القرمة خطية ،
فوجدل محالسا وشجاع والمختلس السالب على خرة . وخالسه ظافله واتهز خرته وفخفته ليختلس منه ما يطعم فيه
(٢) بسطه مره فأنبسط والاتبساط ترك الاحتشام ويقال بسطت من فلان فأنبسط أي أزلت منه الاحتشام
ورفعت عنه الكلفة ، وإنه ليسطى ما بسطك ويقضى ما قبضك أي يسرف ويغيب تقسى ما يسرك ويسودنى
ما ساءك (٣) المنقرم والقرم والقراءة ما يلزم أدائه وهو صدّ المنعم (٤) الفضلة والفضالة ما فضل من الشيء
ويقر زائدا (٥) أشياء (٦) المطمورة الحفيرة تحت الأرض والطمير الدفن والخب وبطير الشيء أخفاه .

(المطبعة الأميرية ٤٩٤٤/١٩٢٨/١٥٠٠٠)



Bibliotheca Alexandrina



0428754